

أخي القارئ

تمّ تنضيد الكتب على عجل

وأبى خطأ مطبعي

هو نتيجة الإسراع

في تنزيل هذه الكتب على النت

نزولاً عند رغبة الإخوة القراء

ونتيجة عدم مراجعتها

لذلك نعتذر

إن وجدت بعض الأخطاء المطبعية

ونعد بتصحيحها لاحقاً بإذن الله تعالى

المهندس عدنان الرفاعي

قصة الوجود

المهندس عدنان الرفاعي



.. عفواً أيها السادة ..
.. هذا الكتاب ..
.. للباحثين عن الحقيقة ..
.. أولي الألباب في كل جيل ..

المهندس عدنان الرفاعي

كاتب ومفكر إسلامي

مواليد : سورية - درعا - قل شهاب .. عام : ١٩٦١ م ..

من المؤلفات:

"النظرية الأولى (المعجزة)

"النظرية الثانية (القدر)

"النظرية الثالثة (الحق المطلق)

"النظرية الرابعة (الحكمة المطلقة)

"النظرية الخامسة (إحدى الكبر)

"النظرية السادسة (سلم الخلاص)

"المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء)

"محطات في سبيل الحكمة

"الحق الذي لا يريدون

"قصة الوجود

"نقد نقد النظرية الإعجازية في القرآن الكريم

دراسة قرآنية في فلسفة الموت والحياة
لعالمي الإنس والجن

قصة الوجود

المهندس عدنان الرفاعي

مركز الذِّكْر

لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

موقع :

الكاتب والمفكر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

المقدمة

.. قصّة الوجود ، لا ندرك حقيقتها ولا نملك يقينها إلا بتدبر كتاب الله تعالى المقروء (القرآن الكريم) ، وبالبحث في مادة كتابه المنشور (الكون) .. فما بين إدراكنا لدلالات القرآن الكريم ، وبين استقراءنا لما بين أيدينا من معرفة لخواص المادة ، يُبحر إدراكنا لحقيقة الوجود وقصته ..

ووجود عالمي الإنس والجن ككائنات مكلفة - مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف طبيعة التكليف كما سنرى - له خصوصيته التي تميزه عن وجود باقي المخلوقات ، من حيث الوظيفة ، ومن حيث المآل .. وبالتالي فإن إدراكنا لحقيقة هذا الوجود ، يتعلّق بإدراكنا لحقيقة تكليفنا في هذا العالم ..

.. وإدراكنا لحقيقة تكليفنا يتعلّق بإدراكنا لحقيقة الدلالات والمعاني التي يحملها القرآن الكريم ، إدراكاً مجرداً عن كلّ موروثٍ فكريٍّ يناقض صريح آيات كتاب الله تعالى ..

ولذلك ... سنتعرّض في هذا البحث إلى قضايا فكرية هامة ، كوجود عالمي الإنس والجن ، وفارق التكليف بينهما ، واستحالة رؤية الله تعالى في الدنيا ، وحقيقة عالم البرزخ ، وكيف أنّ الجنّة والنار - بحيثيّاتهما المادّية - لم تُخلقا بعد ، وحقيقة الشفاعة ، وحقيقة عدم خروج أهل النار من النار وأهل الجنّة من الجنّة ، وغير ذلك من المسائل الفكرية التي يبيّنهما القرآن الكريم ، والتي تمّ تفسير أكثرها تفسيراً مقلوباً مخالفاً لدلالات كتاب الله تعالى ، بسبب الاندفاع الفكريّ وراء العصبية المذهبية ، دون معايرة حقيقيّة على كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) ..

.. إنّ الفلسفة الإسلاميّة الحقّ التي يحملها كتابُ الله تعالى ، هي الأدلّة والبراهين التي تُؤلّد نتيجة تفاعل عقولنا وتصوّراتنا مع ذاتيّة النصّ القرآني ، بموضوعيّة لا تخرج عن ظاهر دلالاته ، دون أن نفرض على إدراكنا لهذه الدلالات أيّ تصوّر موروثٍ ، سواءً كان روايةً أو رأياً مُسبقاً ..

فالعلاقة بين الفكر الإسلاميّ السليم ، والنصّ القرآني ، توازي تماماً العلاقة بين صورة الشيء وحقيقته .. ومقدار ما نتجرّد في إدراكنا لدلالات النصّ القرآنيّ متعلّقين حقيقة هذه الدلالات ، بمقدار ما نقترّب من حقيقته ، ومن مُراد الله تعالى فيه ..

إنّ ثنائيّة القرآن الكريم والعقل ، في إدراك الفلسفة الإسلاميّة الحقّ ، عبر إدراك دلالات القرآن الكريم ، لا تُعطي نتائج على درجة كبيرة من الصحّة ، إلا إذا كانت (هذه الثنائيّة) الطرف الأوّل في ثنائيّة أخرى ، طرفها الثاني هو التجرّد عن أيّ موروثٍ فكريّ لا دلالة له في كتاب الله تعالى ، ولا يقبله العقل والمنطق ..

.. وإشكاليّة إدراك حقيقة الوجود بالنسبة لعالم الجنّ ، تكمن في كون هذا العالم مخفياً عن أبصارنا .. ولذلك ذهب بعضهم إلى إنكار وجود هذا العالم ، وذهب بعضهم الآخر إلى هذا الإنكار عبر تأويل النصوص القرآنيّة التي ترد فيها الكلمات (الجنّ ، الجانّ ، الجنّة) تأويلات ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، وتتناقض فيما بينها تناقضاً يُدرّكه من يملك حدّاً أدنى من المنطق .. وسنرى - إن شاء الله تعالى - هذه الحقيقة في الفصل الثالث من هذا البحث ..

.. وذهب الكثير من المفسّرين ومن مؤطّري أساسيّات الفكر الإسلاميّ الموروث ، إلى الجزم بتحديد الكثير من المسائل الفكرية ، وإلى ليّ دلالات النصوص القرآنيّة المصوّرة لهذه المسائل ، لكي تمرّ من أنفاقٍ فكريّةٍ مُقوّلةٍ مسبقاً بقوالبٍ مذهبيّةٍ مسبقيةٍ الصنع ..

.. لقد تمّ الجزم من قبل الكثيرين بأنّ عذاب القبر جسديّ حسّيّ ، وبأنّ الله تعالى شيءٌ ويسمّى باسم الشيء ، وبأنّ المعراج بالجسد ، وبأنّ الشفاعة - كما ورد في بعض

الروايات - تُسقط عقوبة الكبائر ، وبأنّ المسلمين الذين يدخلون النار سيخرجون منها ، و.....

.. فسرى - إن شاء الله تعالى - في هذا الكتاب ، أنّ هذه المسائل تمّ تطيرها فكرياً (وتفسيريّاً) بحيثيةً تُناقض تماماً الدلالات التي يحملها القرآن الكريم ، وأنّ هذا التأطير كان - في الكثير من الحالات - من أجل مخالفة مذاهب فكرية أخرى ، دون اعتبار القرآن الكريم معياراً للحقّ والباطل ..

ومسألة تأويل الكلمات والعبارات القرآنية ، تأويلاً يُخرج هذه الكلمات والعبارات من ساحة دلالات كتاب الله تعالى ، هي في النهاية خروجٌ على أحكام كتاب الله تعالى ، وتحريفٌ للكلم عن مواضعه .. فأوجه الدلالات والمعاني التي تحملها الكلمات والعبارات القرآنية ، والأعماق الباطنة لهذه الكلمات والعبارات ، لا تتعارض أبداً مع الدلالات والمعاني الظاهرة التي ندرکها من ظاهر الصياغة اللغوية للعبارة القرآنية .. وبالتالي فكلُّ تأويلٍ يتعارض مع ظاهر ما تحمله الكلمات والعبارات القرآنية هو تأويلٌ ساقط ..

.. فالفارق بين التفسير الموضوعي المنهجي لكتاب الله تعالى ، وبين التأويل المحكوم لأهواءٍ مسبقة الصنع ، يُوازي تماماً الفارق بين الموضوعية العلمية ، وبين الذاتية الغارقة في مستنقعات الأهواء ..

إنّ كلّ أركان الإيمان غيبية .. فحتى نؤمن بالله تعالى لا يعني أنّه يجب أن نرى الله تعالى ، وكذلك حتى نؤمن بالملائكة .. وحتى نؤمن بالرسول عليهم السلام وبالكتب التي أنزلت عليهم ، لا يعني أنّه يجب استحضار اليوم الآخر استحضاراً حسياً ، وأن نرى رؤية حسية ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ ..

علينا أن نعلم أنّ وقوع أيّ مسألة غيبية في عالم الحسّ ، يعني خروجها من ساحة الغيب ، وبالتالي لم يعد لإيماننا بها أيّ معنى ، لأنّه - حين ذلك - يستوي في تصديقها المؤمن والكافر ..

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ

كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨]

.. وكلامنا هذا لا يعني - كما يتوهم الجاهلون - التسليم لكل ما قيل من خرافات وأوهام تُسجّت حول عالم الجنّ ، والتي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان .. ولا يعني التسليم الفكري لكل موروثٍ تفسيريٍّ يُؤطر أيّ مسألةٍ تَأطيراً يُخالف دلالات كتاب الله تعالى لهذه المسألة ..

صحيحٌ أنّ أركان الإيمان غيبية - بالنسبة لحواسنا المادية في هذا العالم الماديّ - ولكنّ العقل السليم يراها في كتاب الله تعالى ببصيرةٍ تفوق - من حيث البرهان - الرؤية الحسية لما نراه في عالم المادة والحسّ ..

نحن في عالم الدنيا لم ندخل عالم البرزخ بعد ، ولا الجنة ولا النار .. ولا يُوجد نصٌّ في كتاب الله تعالى يجعلنا نجزم - كما جزموا - أنّ الله تعالى شيءٌ ويسمى باسم الشيء .. ولم نقف في الحساب حتى نجزم بحجّيات الشفاعة كما تُوردها الروايات - كما سنرى - وروداً يُخالف صريح آيات كتاب الله تعالى .. إنّ ما نستطيع أن نجزم به هو البراهين والأدلة التي تُدركها من كتاب الله تعالى ، والتي يجب أن تكون معياراً لأيّ رواية ، ولأيّ تصوّر يدور في أنفسنا ..

إنّنا ننطلق في بحثنا هذا - وفي أيّ بحثٍ قرآنيّ - من المقدمة القرآنية ﴿ وَنَزَّلْنَا

عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] ، مُعتقدين أنّ القرآن الكريم كافٍ

لدراسة هذه المسائل من بداياتها إلى نهاياتها ، وكافٍ لمعرفة دلالات الكلمات التي تصف هذه المسائل ، وبالتالي فأبغ معنى لأيّ كلمة من الكلمات التي تصف هذه المسائل نجده في قواميس اللغة العربية (أو في الروايات) منافيةً لدلالات هذه الكلمة في كليات القرآن الكريم ، لا نعتبره مُراداً من الله تعالى ، ولا حُجّةً على كتاب الله تعالى ، لأنّه معنى اصطلاحيّ من صنع البشر ، أو دُسّ على رسول الله ﷺ ، الذي تُفسّر سنّته الشريفة كليات النصّ القرآنيّ ، فلا تُخالفها ، ولا تُلغىها ..

.. إنَّ استخدامَ الكلمة القرآنيَّة وتأويلها وتليسيَّها للمسائل عبر الزمان من قِبَل البشر ، وتوثيقَ ذلك في بعض قواميس اللغة العربيَّة ، وفي بعض الروايات ، لا يعني أبداً أنَّ هذا الاستخدامَ حجَّةٌ على ما يحمله القرآن الكريم من دلالاتٍ لهذه الكلمة ..
 .. والعكس* هو الصحيح ، فالقرآن الكريم هو الحجَّة على قواميس اللغة ، وعلى الروايات .. والقاموس الوحيد الذي يُحتجُّ به على ما تحمله المفردات القرآنيَّة من دلالات ومعانٍ ، هو القرآن الكريم ذاته ، الذي نزلهُ اللهُ تعالى تبياناً لكلِّ شيءٍ .. فمن المؤكَّد أنَّ جملة الأشياء التي نزل القرآن الكريم تبياناً لها ، تحتوي على كونه قاموساً لغويّاً لإدراك دلالاته ومعانيه ..

إنَّ من أكبر الأكاذيب التي تُسيءُ إلى منهجِ اللهِ تعالى وإلى كتابه الكريم ، اختراع تعاريف لغويَّة للمسائل تختلف عن التعاريف التي يحملها القرآن الكريم للمسائل ذاتها .. فالتعريفُ اللغويُّ الحقُّ هو ما يُستنبطُ من دلالات صياغة القرآن الكريم ، لأنَّ القرآن الكريم هو المعيارُ اللغويُّ للغة .. ولا يُوجدُ تعريفٌ اصطلاحياً للمسائل التي يحملها القرآن الكريم ، خارج دلالات كتاب اللهُ تعالى ، لأنَّ المفرداتِ القرآنيَّةَ فطريَّةٌ مُوحاةٌ من اللهُ تعالى ، علَّمتها لآدم عليه السلام قبل هبوطه من جنة الاختبار [كما رأينا في

* لقد رأينا في النظرية الأولى (المعجزة) أنَّ كلمة الأُميين ومشتقاتها في القرآن الكريم ، تحمل دلالاتٍ ومعاني تختلف عن الدلالات والمعاني الواردة في قواميس اللغة ، وفي موروثاتنا التفسيرية .. ورأينا في النظرية الرابعة (الحكمة المطلقة) أنَّ أحكام مسائل العبيد وملك اليمين في القرآن الكريم ، تختلف كثيراً عن الأحكام التي تمَّ تأطيرها في الفقه وفي قواميس اللغة ، وأكَّدنا ذلك في كتاب المعجزة الكبرى : (حوار أكثر من جريء) ، عبر برهان عددي لا يعرف الكذب والخداع .. ورأينا في النظرية الخامسة (إحدى الكُبر) أنَّ كلمة الأعراب في القرآن الكريم تحمل دلالاتٍ ومعاني تختلف عن الدلالات والمعاني الواردة في قواميس اللغة ، وفي الروايات التاريخية .. ورأينا في كتاب المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) كيف أنَّ مسألة الطلاق في كتاب اللهُ تعالى ، ومسألة الكلالة ، وغيرهما الكثير ، تختلف أحكامها المستنبطة من كتاب اللهُ تعالى عن الأحكام الفقهيَّة التي نتوارثها جيلاً عن جيل ..

النظرية الخامسة (إحدى الكُبر) [] ، وليست وضعيّة من صنع البشر .. فالقرآن الكريم هو المعيار اللغويّ والشرعيّ والفلسفيّ والفقهيّ والعقديّ لفكر هذه الأمة .. ومن أكبر الأكاذيب التي تُسيء إلى منهج الله تعالى ، الزعم بأنّ تصوّرات مذهب ما في جيل ما ، هي كلّ ما تحمله النصوص القرآنيّة من أدلّة ومعان بالنسبة للمسائل موضوع هذه التصوّرات ، بحيث يُحظر على الأجيال اللاحقة أيّ تدبّر خارج منظار هذه التصوّرات ..

لذلك نقول لمن يُخالفنا الرأي في المسائل المطروحة في هذا البحث ، ويتوهّم أنّ بحثنا هذا خروجٌ على أساسيات العقيدة وثوابتها .. هل وصّعت تصوّراتك لهذه المسائل في ميزان القرآن الكريم ؟ ، وهل وضعت أدلّتنا وبراهيننا في ميزان القرآن الكريم ؟ ، أم أنّك وضعت أدلّتنا وبراهيننا - ومن قبلها القرآن الكريم - في ميزان تصوّراتك ؟ .. وبالتالي ما هي أساسيات العقيدة عندك ، وما هي ثوابتها ؟ ، هل هي القرآن الكريم ، أم تصوّرات من تحسبهم آلهة يُحيطون بكتاب الله تعالى ؟ ..

وإنّ تلبّيس الكلمات القرآنيّة العائدة إلى جذر لغويّ واحد ، معاني متناقضة ، حسب تصوّرات البشر المختلفة عبر الأزمنة ، والتي وثّقت في بعض قواميس اللغة ، باعتبار الكلمة القرآنيّة وضعيّة من صنع البشر ، هو في الحقيقة تجزئة الدلالات الواحدة في كتاب الله تعالى إلى دلالات متفرّقة لا علاقة بينها ، بل ومتناقضة ، تبعاً لاختلاف تصوّرات البشر حول المسألة الواحدة ، عبر الزمان ..

.. وهذا لا يختلف عن مسألة الناسخ والمنسوخ المزعومة ، ففي الحالتين نحن أمام مسألة تقودنا إلى الإيمان ببعض ما يحمله القرآن الكريم ، وإلى الكفر ببعض ما يحمله .. وهو ذاته ما عبّر عنه القرآن الكريم في الصورتين القرآنيّتين التاليتين ، اللتين رأينا في النظرية الخامسة (إحدى الكُبر) أنّهما متكاملتان في مسألة واحدة ، بدليل أنّ مجموع القيم العدديّة لحروفهما (وفق الأبجدية القرآنيّة المكتشفة لأول مرّة في العالم في النظرية الخامسة [إحدى الكُبر]) من المضاعفات التامة للعدد (١٩) ..

﴿أَفْتُوْمُنُوْنَ بِبَعْضِ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُوْنَ بِبَعْضِ﴾ [البقرة : ٨٥] = ٢٣٩*

﴿الَّذِيْنَ جَعَلُوْا الْقُرْءَانَ عِضِيْنَ﴾ [الحجر : ٩١] = ١٤١

$$٣٨٠ = ١٤١ + ٢٣٩$$

$$٢٠ \times ١٩ = ٣٨٠$$

﴿أَفْتُوْمُنُوْنَ بِبَعْضِ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُوْنَ بِبَعْضِ﴾ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ

مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرْدُونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴿٧٠٩﴾ =

٧٠٩

﴿الَّذِيْنَ جَعَلُوْا الْقُرْءَانَ عِضِيْنَ ﴿١١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَنَّاهُمْ أَجْمَعِيْنَ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوْا

يَعْمَلُوْنَ﴾ = ٣٣٦

$$١٠٤٥ = ٣٣٦ + ٧٠٩$$

$$٥٥ \times ١٩ = ١٠٤٥$$

.. فبمقدار ما يكون تفسيرنا لأيّ مسألة قرآنيّة قريباً من كونه رابطاً لهذه المسألة

مع القرآن الكريم ككلّ ، بمقدار ما تقترب من تفسير هذه المسألة تفسيراً سليماً ..

* الأرقام الواردة بعد إشارة (=) هي - كما رأينا في النظرية الخامسة (إحدى الكُبرى) ، وفي كتاب : المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) - هي مجاميع القيم العددية لحروف النصوص القرآنيّة (الحروف المرسومة) ، حيث تمّ إعطاء كلّ حرف قيمة عددية ، تتعلّق بترتيب مجموع وروده في القرآن الكريم ، ابتداءً من الحرف الأكثر وروداً وهو حرف الألف ، الذي أُعطي القيمة العددية (١) ، وانتهاءً بالحرف الأقلّ وروداً وهو حرف الظاء ، الذي أُعطي القيمة العددية (٢٨) .. وتوصّلت إلى قانونين يحملهما القرآن الكريم في كلّ حرفٍ من حروفه .. القانون الأول هو أنّ العبارات القرآنيّة المتكاملة في المعنى والدلالات يكون مجموع القيم العددية لحروفها من المضاعفات التامة للعدد (١٩) .. والقانون الثاني هو أنّ العبارات القرآنيّة المتوازنة في المعنى والدلالات يكون مجموع القيم العددية لحروفها متساوياً تماماً ..

والاختلافات الفكرية بالنسبة لإدراك المسائل القرآنية ، تتقلص كلما اقتربنا من البحث القرآني في كليات القرآن الكريم ، كمنهج وكمعيار ، فوق أي تصور وأي موروث (رواية كان أم رأياً) ..

.. إن الذين يتهمون متدبري القرآن الكريم والمجتهدين الذين يفعلون العقل في فهم القرآن الكريم ، بمرجحي العقل على النقل ، وبالقرآنيين ، إنما يرجحون الروايات الموضوعية والأهواء المقبولة مسبقاً ، على النقل (القرآن الكريم) والعقل معاً .. فيريدون وضع التاريخ كبديل عن منهج الله تعالى ..

والذين يفرضون تصوراتهم وأهواءهم على دلالات كتاب الله تعالى ، بحجة أن القرآن الكريم حمال أوجه ، إنما يسعون إلى وضع أهوائهم كبديل عن منهج الله تعالى ... القرآن الكريم حمال أوجه غير منتهية من الدلالات الحق التي لا تتعارض مع صياغة نصه ، وليس حمال أوجه من الأهواء التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ..

.. إن الذين يقودون العقل والمنطق والحقيقة إلى مذبح فكري ، هم الذين يحسبون الوجود داخل إطار ما تُدركه حواسهم ، وهم الذين يجعلون من تصوراتهم المحدودة ، ومن إدراكهم المقيد ، حكماً لتقرير وجود المسائل ، وعدم وجودها .. وهم ذاقهم الذين يحسبون أنهم على حق لأن الجاهلين جاهلون .. فهم يدفعهم للعقل والمنطق والحقيقة إلى ساحة الجهل الفكري ، إنما يختنقون - فكراً - في أنفاق هذا الجهل ، دون أن يشعروا ..

فهل يدفعنا العقل والمنطق إلى تبني خرافات ، وإلى إنكار الحقائق ، بحجة أن الذين تختلف معهم في الرأي قد تبّنوا خرافات وأوهاماً تناقض خرافاتنا وأوهامنا؟! .. وهل نغمض أعيننا عن الحق الذي نراه في كتاب الله تعالى وتصدقه عقولنا ، ونأخذ بنقيضه ، لأن الذين تختلف معهم في الرأي يأخذون بهذا الحق؟! .. وإذا كنا نسير باتجاه الحقيقة فهل يدفعنا هور بعضهم على يمين الطريق إلى أن ندفع بأنفسنا وبفكرنا للتهور على يساره!!!? ..

.. فإدراكنا السليم لما يحمله القرآن الكريم من أدلة ومعانٍ ، هو عبادةٌ وليس لهواً ..
 كما أنّ إدراكنا السليم للكون الذي نعيش فيه هو علمٌ وليس جهلاً ..
 إنّ الموروثات الفكرية المخالفة لكتاب الله تعالى ، والتي تُرَجِّح الروايات والمقولات
 المذهبية على دلالات كتاب الله تعالى ، تترسّب - مع الزمن - في نفوس المسلمين ،
 لتكوّن منهم أفراداً متواكلين ، يُرَجِّحون العاطفة الهوجاء على العقل ، والقول على
 الفعل .. وتكوّن منهم أفراداً لا يتفاعلون مع الدنيا بالحیثیة التي يُريدها الله تعالى منهم ،
 كخلفاء له في الأرض ..

.. ولنبدأ برسم صورة قصة الوجود لعالمي الإنس والجنّ ، خطوةً خطوةً ، من
 كتاب الله تعالى ، عبر المنهج القرآني ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ﴾ [آل عمران : ٧] ، ومن منظارٍ
 علميٍّ منطقيٍّ .. فمن المقدمات إلى النتائج لا نخرج عمّا يحمله القرآن الكريم من دلالاتٍ
 ومعانٍ ، وعمّا يحمله العلم والعقل والمنطق ، جاعلين دلالات القرآن الكريم معياراً لأيّ
 موروثٍ تاريخيٍّ ، ولأيّ تصوّرٍ عقليٍّ ..



مركز الذِّكْر

لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

موقع :

الكاتب والمفكر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

مراتب الوجود

.. لا يُمكننا أن نفصلَ - في تصوّراتنا حول مسألة الوجود - فلسفةَ الوجود التي نحملها ، عن فلسفة المعرفة .. ففلسفة الوجود ثمرةٌ من ثمار فلسفة المعرفة ..

.. وإنّ الاقتصارَ على المذهب الحسّي المادّي ، في الانطلاق من مقدّمات فلسفتنا المعرفيّة ، نحو إدراك فلسفة الوجود - كما ذهب بعض الفلاسفة الماديين - سيؤدّي بالضرورة إلى إنكار العقل المجرّد ، وإلى إنكار المعرفة العقليّة والفطرة الروحيّة خارج إطار المادّة ، وإلى إنكار تعلّق المعلول بالعلّة ..

.. فإدراكنا للأشياء التي تقع تحت حواسّنا يكون بالتجربة والبرهان ... والاتّجاه نحو العلة الأولى التي تقف وراء المعلولات التي نحسّها ، ونحو إدراك البداية الأولى لوجودها ، يكون بإدراك ما يُخبرنا الله تعالى عنه ، عبر منهج قرآنيّ تتفاعل معه من منظار الثوابت العلميّة ..

.. ونحن حينما اخترنا المنهج القرآنيّ لدراسة مسائل هذا البحث ، إنّما اخترنا منهجاً نملك برهاناً رياضياً على صدق نزوله من عند الله تعالى خالق الوجود .. فقد رأينا في النظرية الأولى (المعجزة) وفي النظرية الخامسة (إحدى الكُبرى) وفي النظرية السادسة (سلّم الخلاص) وفي كتاب المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ، أدلّةً رياضيّةً يتساوى في إدراكها المؤمن والكافر ، والعربي وغير العربي ، تُثبت بشكلٍ لا لبس فيه أنّ القرآن الكريم كتابُ الله تعالى المطلق الذي يحوي كلّ أسرار الكون وقوانينه ، وكتابُ الله تعالى الوحيد الذي لم يُحرّف فيه حرفٌ واحد ..

.. وفي تصوّراتنا للوجود المخلوق علينا أن نُميّز - قرآنيّاً وفلسفيّاً - بين حالتي الوجود التاليتين :

[١] - عالم الوجود المخلوق المحسوس الذي نستطيع إخضاعه لحواسنا .. وهو حاضِعٌ للمكان والزمان .. وجميع الجزئيات الماديّة تنتمي إلى هذا العالم ..
 .. وهذا العالم المحسوس مكوّنٌ من ذرّات ماديّة .. وهذه الذرّات مكوّنة من طاقة تدور بسرعة هائلة جداً داخل جسم الذرّة ، ممّا يُعطي الذرّة حيثيّاتها المكانيّة الزمانيّة ..
 .. والقوّة الأولى التي دوّرت وما زالت تُدوّر الطاقة داخل جسم الذرّة ، هي حتماً من خارج الذرّة ، وبالتالي من خارج عالم الجزئيات (عالم المادّة والمكان والزمان) ..
 فلو كانت هذه القوّة من ذات الذرّة لتخامدت مع الزمن ، ولانتهت المادّة إلى الزوال ..
 بل كيف تُعطي الذرّة حيثيّات وجودها من ذاتها ، وذاتها (وكلّ ذوات عالم المادّة والمكان والزمان) محتاجة أصلاً في وجودها لهذه الحيثيّات ؟ ..

.. فإذا كانت الذرّة بحاجة إلى تدوير الطاقة المُودعة فيها حتى تخرج إلى عالم المادّة والمكان والزمان ، فلا بُدّ من وجود من دوّر هذه الطاقة في البداية ، حتى خرجت هذه الذرّة إلى عالم الوجود المحسوس .. بل لا بدّ من وجود من أوجد هذه الطاقة أصلاً ؟ ..
 .. إذا المادّة بجزئياتها المختلفة والتي تُشكّل قوام العالم المحسوس ، بحاجة في كلّ لحظة إلى من يُعطيها حيثيّات وجودها في عالم المادّة والمكان والزمان ، عن طريق تدوير الطاقة المُودعة فيها ، داخل إطار المكان الذي تحتجزه ذرّات هذه المادّة ..
 .. وبالتالي فالمادّة تتّجه في كلّ لحظة نحو الزوال لولا إعطاؤها حيثيّات وجودها ..
 وبالتالي فالله تعالى يُمسك المادّة في كلّ لحظة من الزوال عن طريق إعطائها حيثيّات وجودها .. هذه الحقيقة العلميّة ، نراها واضحةً جليّةً في الآية الكريمة التالية ..

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ۗ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ

أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١]

وهكذا .. فمادّة السماوات والأرض بحاجة - في كلّ لحظة - إلى أمرٍ الله تعالى ، كي تقوم في عالم الوجود المكاني الزماني المحسوس ..

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۗ ﴾ [الروم : ٢٥]

.. فورود الكلمة القرآنيّة ﴿تَقُومَ﴾ بصيغة المضارع ، دليلٌ على حاجة السماء والأرض المستمرة إلى أمرِ الله تعالى ، كي تقومَ مادّة الكون في عالم الوجود المحسوس ..
وأجسادنا الماديّة التي تتكوّن في النهاية من عناصر الأرض عن طريق الغذاء ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح : ١٧] .. تنتمي إلى جزئيات هذا العالم الماديّ المحسوس ، وإحساسُ أنفسنا بالزمان والمكان لا يكون إلاّ حينما تدخل هذه الأنفس أجسادنا الماديّة ..
.....
وحيثما تخرج أنفسنا من أجسادنا الماديّة - أثناء النوم وحين الموت - فإننا لا نحسّ بالزمان ، ولا بالمكان ..

[٢] - عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، والذي يخضع للزمان والمكان فقط حينما يُوطّر بجزئيات المادّة في عالم الحسّ ، كأنفسنا التي تسكن أجسادنا .. فهذه الأنفس المجردة ، قبل حلولها في أجسادنا تكون منتميةً إلى عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ، وبعد حلولها في أجسادنا تُصبح محكومةً لقوانين المكان والزمان التي يفرضها الجسدُ عليها ..

وعالم الجنّ ككائناتٍ ناريّة مخلوقة من الطاقة (النار) ، ينتمي - بالنسبة لحواصننا - إلى عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن : ١٥] .. وكذلك الملائكة تنتمي إلى عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، فلا تُرى إلاّ إذا تمثّلت بالصور الماديّة لعالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، على الرغم من أنّ وجودها تعلق بالخلق ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنْنَا ءَأَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ؕ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف : ١٩] ..

.. وعلى الرغم من أنّ عناصر عالم الوجود غير المحسوس ، ليست محسوسةً ، وتكون متحرّرةً من قيد المكان والزمان حينما تكون خارج أسر الجزئيات الماديّة ، إلاّ أنّها تنتمي إلى عالم الخلق (شأنها بذلك شأن مكوّنات عالم الوجود المحسوس) ، ولا تنتمي إلى عالم الأمر ، الذي ينتمي إليه الروح والقرآن الكريم ..

.. ويمكن تلخيص الفارق بين موجودات عالم الأمر ، وبين موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، بالنقاط التالية :

[أ] - موجودات عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) تتعلّق بصفات الله تعالى ، فلا تحمل أيّ صفةٍ سلبيةٍ (نقيض إيجابية) ، وكلّ صفاتها إيجابية مرتبطة بصفات الله تعالى .. بينما موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، منها من يحمل صفاتٍ إيجابيةً دائمةً كالملائكة ، ومنها من يحمل صفاتٍ إيجابيةً وسلبيةً ، كالأنفس البشرية ، وكموجودات عالم الجنّ ..

[ب] - موجودات عالم الأمر لا يُمكن أن تخضعَ للزمان والمكان .. بينما موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، تخضع للزمان والمكان حينما تُؤطرّ بالجزئيات الماديّة لهذا العالم المحسوس ، كالنفس الإنسانيّة حينما تكون داخل الجسد ، فتحسّ بالزمان والمكان نتيجة وجودها في هذا الوعاء الماديّ (الجسد) ..

[ج] - موجودات عالم الأمر لا يُطلق عليها اسم الشيء ، شأنها بذلك شأن الذات الإلهيّة ، بينما موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، تخضع لصفات الأشياء ، حينما تُؤطرّ بالجزئيات الماديّة لهذا العالم المحسوس ..

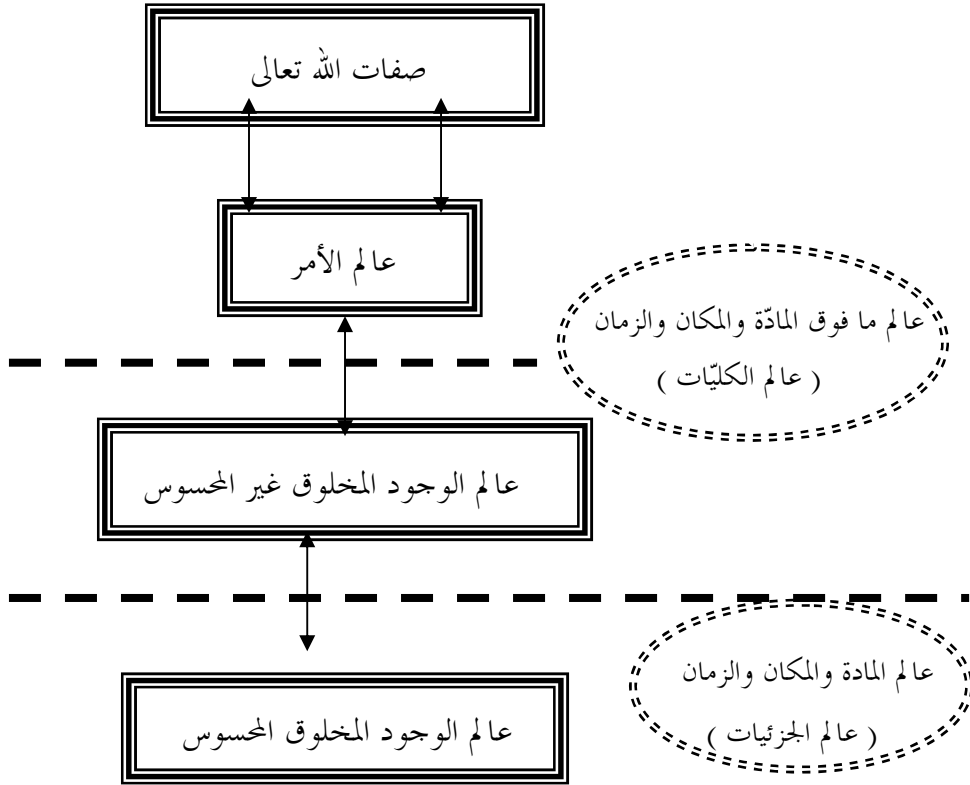
ويمكن تلخيص التشابه بين موجودات عالم الخلق غير المحسوس حينما تكون خارج إطار الجزئيات الماديّة ، وبين موجودات عالم الأمر ، بالنقطتين التاليتين :

[أ] - كلاهما غير خاضع للزمان والمكان ..

[ب] - كلاهما لا يتفاعل مع مسألتين متناقضتين في الوقت ذاته ..

.. إذاً هناك عالم الخلق المُكوّن من جزءٍ محسوس وجزءٍ غير محسوس ، وهناك عالم الأمر المتمايز تماماً عن عالم الخلق .. وقد بيّن الله تعالى - في كتابه الكريم - هذين العالمين المتمايزين وعودتهما إليه جلّ وعلا ..

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤]



.. ولما كان عالم الخلق هو عالم الأشياء (عالم الجزئيات) ، وساحة لتفاعل الموجودات غير المحسوسة مع الجزئيات الماديّة ، ومع قوانين المكان والزمان ، ومُؤطّراً بإطار المادّة والمكان والزمان ، فإنّ موجوداته تُسمّى باسم الشيء ..

.. ولما كان وجودُ الله تعالى فوق وجود الأشياء ، فإنّ الله تعالى لا يُسمّى باسم الشيء ، وكذلك موجودات عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) ..

.. وقول الكثيرين بأنّ الله تعالى شيءٌ ، استشهداً بالصورة القرآنيّة التالية ، هو قولٌ غيرٌ سليم .. فهذه الصورة القرآنيّة ليست شاهداً على قولهم ، كما يتوهّمون ..

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۗ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ ﴾ [الأنعام : ١٩]

.. لقد قالوا .. العبارة القرآنيّة ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ هي جوابٌ للسؤال ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ

شَهَادَةً ۗ ﴾ ، وبذلك أولّوا العبارة ﴿ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ ﴾ بأنّ معناها (وهو شهيدٌ بيني

وبينكم) .. فقد فصلوا العبارة ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ عن العبارة ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ .. فالمبتدأ وخبره ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ وضعوا بينهما حاجزاً ، فوضعوا - من جيوبهم - للمبتدأ خبراً بتقدير (قل الله شيء) ، ووضعوا - من جيوبهم - للخبر مبتدأً بتقدير (وهو شهيدٌ بيني وبينكم) ..

.. نقول .. الصورة القرآنية ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ كلامٌ مستقلٌ تامٌ مكتملٌ بنفسه ، المبتدأ فيه هو كلمة ﴿اللَّهُ﴾ ، وخبره ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ..

.. وقولهم إن العبارة القرآنية ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةٌ﴾ ، لا بد لها من جوابٍ مرسومٍ (غير مقدر) في كتاب الله تعالى ، وأن جوابها هو العبارة ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ .. هذا القول ، لا دليل عليه .. فالجواب الذي يريدونه مُستقلٌ عن العبارة الثانية ، ويُقدَّرُ تقديراً .. وإن كانوا يستغربون تقدير الجواب ، نقول لهم أين الجواب المرسوم في القرآن الكريم للصورة القرآنية التالية ..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس : ٤٥]

.. وما دفعنا إلى تقدير جواب العبارة الأولى ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةٌ﴾ ، هو قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد : ١٦] .. فلو كان الله تعالى شيئاً ، ويُسمى باسم الشيء ، كما يزعمون ، لكان جلّ وعلا خالقاً لذاته ، وبالتالي لكان سبحانه وتعالى مخلوقاً ، وهذا محال ..

.. وأمّا قولهم بأن العبارة : ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ في الصورة القرآنية ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، كلامٌ عامٌ دخله التخصيص ، بمعنى أن الله تعالى خلق كل الأشياء ما عدا شيئاً واحداً هو ذاته ، واستشهادهم - على ذلك - بوصف الهدهد لملكة سبأ في العبارة القرآنية ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل : ٢٣] .. وكذلك بقول

سليمان عليه السلام ﴿ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ط ﴾ [النمل : ١٦] .. وكذلك بقول الله تعالى عن ذي القرنين ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٤] .. قولهم هذا يتنافى تماماً مع عظمة الصياغة القرآنيّة ، التي تصف المسائل وصفاً مطلقاً ، ولا يتكئ على أيّ دليل في حيثيات الصياغة اللغويّة للعبارات القرآنيّة التي يستشهدون بها ..

.. وسنرى إن شاء الله تعالى - في الفصل الثاني - كيف أنّهم أعرضوا عن كلمة ﴿ مِنْ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ط ﴾ التي رأيناها في الصور القرآنيّة السابقة ، وسنرى أنّ هذه العبارة ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ط ﴾ تعني وَضَعَ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ أَيْدِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَوْتَوْا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، مفاتيح الوصول إلى حقائق كلّ الأشياء ، وكيف أنّهم تفاضلوا في استعمال هذه المفاتيح ..

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ في الصورة القرآنيّة التالية التي استشهدوا بها أيضاً ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٢٤ - ٢٥] ، هي ضمن العبارة ﴿ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ التي تصف الريح المعنيّة في هذه الصورة القرآنيّة ، أي أنّ هذه الريح إذا أمرها الله تعالى بتدمير أيّ شيءٍ فإنّها تدمره ، وبالتالي إذا لم يأمرها لا تدمره ..

.. وهكذا فالعبارة القرآنيّة التالية لها مباشرة ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾ تُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ هَذِهِ الرِّيحَ بِتَدْمِيرِ كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِؤُلَاءِ ، إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ .. ولا يُمكن القول بأنّ الله تعالى أمر هذه الريح بتدمير كلّ شيءٍ يحيط بهؤلاء حتى مساكنهم فالعبارة القرآنيّة ﴿ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ لم تشمل المساكن ، وقولهم بأنّها تشمل المساكن تُناسبه الصيغة التالية : (دَمَّرَتْ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ) .. بينما ورود عبارة التدمير بصيغة المضارع ، يُبَيِّنُ لَنَا صِفَةَ هَذِهِ الرِّيحِ ، ولا يعني الأمر الإلهي الخاصّ بتدمير هؤلاء ..

.. أما في قولهم عن العبارة القرآنية ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، بأن ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ في هذه العبارة كلامٌ عامٌّ دَخَلَهُ التخصيص ، فإننا نقول .. حينما يقول الله تعالى ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، فهذا يعني كلَّ شيءٍ .. ولو كانت العبارة القرآنية ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ تعني - كما ذهبوا - كلَّ شيءٍ باستثناء الذات الإلهية كشيءٍ من هذه الأشياء ، لتعارض ذلك مع كون الذات الإلهية أعظم وأكبر وأسمى من كلِّ الأشياء ..

.. التخصيص الذي يدعونه في هذه العبارة - وفي كلِّ عبارة شبيهة - يعني أن لفظ الكلُّ يُطلق على الأكثرية الهامة ، باستثناء الأقلية لعدم أهميتها ، ولأنها - مقارنة مع الأكثرية - نادرة ، ولأن وجودها وعدمه شبه سيان في المسألة التي تتعلق بها الكلية التي أدخلنا عليها التخصيص ..

.. وهنا نسألهم السؤال التالي : إن كان الله تعالى شيئاً ويسمى باسم الشيء كما تزعمون ، فهل الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً تنطبق عليه شروط التخصيص هذه؟! .. لو كان الله تعالى شيئاً ويسمى باسم الشيء لكان وجوده - بين جملة الأشياء - أعظم وأكمل وأشرف من كلِّ الأشياء ، وبالتالي لا يمكن لعقلٍ سليمٍ أن يتصورَ بأنَّ الله تعالى يُطلق لفظ الكلِّ على الأشياء ، مستثنياً الذات الأعظم والأشرف من كلِّ هذه الأشياء ..

.. لذلك حينما يقول الله تعالى ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ في الصورة القرآنية ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ

شَيْءٍ﴾ ، فإنه يعني كلَّ ذاتٍ تنتمي إلى عالم الخلق ، ضمن إطار المادة والمكان والزمان (سواءً كانت محسوسة أو غير محسوسة) .. وبالتالي فالله تعالى لا يدخل تحت هذه الكلية لأنه لا يُسمى بالشيء ، وأعظم من أن يكون محكوماً لإطار المادة والمكان والزمان ، ومن أن يكون قابلاً لحكم هذا الإطار ..

.. وكذلك الأمر بالنسبة لموجودات عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) ، فإنها

لا تندرج تحت كلية الأشياء الواردة في العبارة القرآنية ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ..

.. وفي استشهادهم بالصورة القرآنية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] ، على أن الله تعالى شيء ، بعد أن أولوا الوجه بأنه الوجود والحقيقة ، حيث قالوا .. المراد بهذه الصورة : كلُّ شيء هالكٌ إلا هو .. نقول .. هذا التأويل غير سليم ، والتوجه في - كتاب الله تعالى - يعني تسديد القصد نحو الغاية التي يتم التوجه إليها ..

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام : ٧٩]

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى

مَوْلَاهُ أَيَّنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ [النحل : ٧٦]

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : ٢٢]

.. ولذلك فالوجه هو المسلك الذي يتم عبره تسديد القصد نحو الغاية التي يتم

التوجه إليها عبر هذا المسلك (الوجه) ..

﴿ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٤٨]

.. هذا المعنى للوجه نستشفه من الصورة القرآنية التالية ..

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم :

[٣٩]

.. فالمقصود بوجه الله تعالى هنا هو قصد الله تعالى والغاية من عبادته جلّ وعلا ..

.. هذا المعنى المجرد للجذر (و ، ج ، هـ) لا يتغير حتى حينما ترتبط كلمة متفرعة

عنه بمسألة حسية .. فوجه الإنسان (كمادة وحس) هو آلية اتجاهه نحو الأشياء ، لأنه

يحوي حواسّ البصر والسمع والذوق والشم ، إضافة لحاسة اللمس التي يشترك فيها مع

باقي الجسم .. فالإنسان - كنفس وجسد - يتوجه إلى الأشياء في هذا العالم المادي ، عبر

آليات الحسّ التي يحويها الوجه المعروف ..

.. وهكذا نرى أن الصورة القرآنية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ تعني أن

الذوات المادية التي تنتمي إلى عالم الخلق (عالم الأشياء) ، والتي أوجدها الله تعالى

وسخرها بين أيدينا لامتحاننا في هذه الدنيا ، هي زائلة فانية ، ولا يبقى إلا قصد الله تعالى من إيجادها ، والغاية التي سخر الله تعالى هذه الأشياء إليها ..

.. وإذا نظرنا إلى هذه الصورة القرآنية مع سياق القول المحيط بها .. ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ

اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [

القصص : ١٨] ، فإتنا سنرى أن الله تعالى يقول : لا تُشرك مع الله تعالى إلهاً آخر ، فلا إله إلا الله تعالى ، وكلُّ شيءٍ مما تُشرك به مع الله تعالى ، ومما لم تُشرك به ، سيهلك ، ولا يبقى إلا قصد الله تعالى من امتحانك في وجود هذه الأشياء وتسخيرها بين يديك ، والحكم في النهاية لله تعالى ، وإليه سترجع المخلوقات ..

وهناك صورة قرآنية أخرى تُلقى الضوء على هذه المسألة ..

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٧﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦

– ٢٧]

ففي العبارة القرآنية ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ﴾ نرى أن الله تعالى يقول ﴿ رَبِّكَ ﴾ ، ولم يقل (ويبقى وجه الرب) ، وبالتالي نرى أن الخطاب يخص ما أعطاه الرب عز وجل لكل فرد من خصوصية لامتحانه ، وهذا الذي أعطاه إياه سيفنى ويزول ، ولا يبقى منه إلا ما تمّ تسديده من القصد والهدف باتجاه رب هذا الممتحن ..

وهكذا نرى أن الله تعالى متّرة عن الشيئية ، وعن خواصّ عالم الأشياء (عالم الخلق) ، سواءً الجانب المحسوس أم غير المحسوس ، لأنّ كل موجودات عالم الخلق والتشبيؤ محكومة لقوانين عالم المادّة والمكان والزمان ، أو قابلة لأن تكون محكومة لهذه القوانين كما رأينا .. هذه الحقيقة نراها واضحة جلية في الصورة القرآنية التالية

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١]

.. إننا نرى أن كاف التشبيه تزيد في بيان ابتعاد الذات الإلهية عن الشيئية .. فلو قال

الله تعالى (ليس مثله شيء) دون كاف التشبيه ، لربّما يتسرّب إلى الذهن أن الله تعالى

شيءٌ ولكن يختلف عن باقي الأشياء .. بينما بوجود كاف التشبيه نرى بياناً يفيد أن الله تعالى لا يُوجد في عالم الأشياء مثله ، ولا مثل مثله ﴿ كَمِثْلِهِ ﴾ ..

.. لذلك نرى كيف أن الله تعالى يُورد في كتابه العزيز كلمة ﴿ كَمِثْلٍ ﴾ في المقارنة

بين آدم وعيسى عليهما السلام ..

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

﴾ [آل عمران : ٥٩]

إنَّ خلق عيسى عليه السلام يشبه خلق آدم عليه السلام ، ولكن ليس مثله تماماً ، وإثما كمثلته .. صحيحٌ أن كليهما وُلد دون أب ، ومباشرة من تراب دون مراحل الخلق المعروفة أثناء الحمل ، ولكن عيسى عليه السلام وُلد من أمٍّ ((ليس بمفهوم الولادة الناتجة من اجتماع النطفة مع البويضة كباقي نساء الأرض ، وإثما بمفهوم الحمل لساعات محدودة)) ، بينما آدم عليه السلام لم يُولد من أمٍّ ، بمعنى لم يُحمَل في رحم أنثى ..

.. فكاف التشبيه حينما دخلت على كلمة مثل ﴿ كَمِثْلٍ ﴾ ، نراها تُخرج المماثلة

من ساحةٍ واحدةٍ إلى ساحتين بينهما اختلاف ... وهكذا نرى أن نفي المماثلة المقرونة بكاف التشبيه في العبارة القرآنية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، تُخرج المماثلة من أيِّ ساحةٍ كانت ..

فاجتماعُ كاف التشبيه مع كلمة مثل ﴿ كَمِثْلِهِ ﴾ ، يعني أن التشبيه هو بمثل المثل ،

وبالتالي فالتشبيه ينتقل من المماثلة في الذات إلى المماثلة في بعض الصفات المعنوية من منظار هذا التشبيه ..

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ

سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ﴾ [البقرة : ٢٦١]

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ ذُرْبِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَا لِيَ الْعَنْكَبُوتِ أَتَّخَذَتْ بَيْتًا ۗ ﴾

[العنكبوت : ٤١]

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ

وَالْأَوْلَادِ ۗ كَمَا لِيَ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ۗ ﴾ [الحديد : ٢٠]

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَا لِيَ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۗ ﴾ [

الجمعة : ٥]

إذا قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ، يعني أن الله تعالى

ليس كالأشياء ، وليست صفاته كصفات الأشياء ، فسمعه وبصره وكل صفاته ليست كما هي عند الأشياء ..

.. ولنعد إلى النفس الإنسانية كذات تنتمي إلى عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ،

والتي تكون - حين وجودها خارج الجسد - غير خاضعة لقوانين المكان والزمان ..

.. لقد بين القرآن الكريم أنه حين الموت وفي المنام ، تكون الأنفس البشرية خارج

أجسادها المادية ، لأن الله تعالى يكون قد توفّاها ، وبالتالي استرجعها فأخرجها من العالم

المحسوس المحكوم لقوانين المكان والزمان ، إلى عالم ما فوق المادة والمكان والزمان ..

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۗ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ

عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

﴿ [الزمر : ٤٢]

.. واضح في هذه الآية الكريمة أن النفس البشرية يتوفّاها الله تعالى في منامها ، وحين

موتها ، فيسترجعها من عالم المادة والمكان والزمان الذي تُسجن فيه في قفص الجسد ، إلى

عالم ما فوق المادة والمكان والزمان الذي أتت منه قبل حلولها في الجسد .. وواضح في

هذه الآية أن النفس التي لم تمت يُرسلها الله تعالى في جسدها حين اليقظة ، وفي هذا بيان

صريحٌ أنّ النفسَ هي الوعي والذات ، وهي الكيان الممتحن في هذه الدنيا ، عبر سكنها في الجسد الحيّ ..

فأصل الإنسان هو النفس المجردة عن عالم المادة والمكان والزمان ، والتي تدخل عالم المادة والمكان والزمان ، وتخضع لقوانينه عبر الجسد الماديّ الحيّ .. ولذلك فالخطاب القرآنيّ الموجه للإنسان ، هو خطابٌ موجهٌ - في الأصل - إلى النفس ، فالإنسانُ نفسٌ تُمتحنُ في وعاء الجسد ..

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنُكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۗ ﴾ [الأنعام : ٦٠]

إننا نرى أنّ الخطابَ موجهٌ إلى النفس الساكنة في الجسد .. فكلمة ﴿ يَتَوَفَّنُكُمْ ﴾ هي - كما نرى - خطابٌ للإنسان كنفسٍ مجردةٍ عن الجسد .. والصورة القرآنيّة التالية تُشير إلى هذه الحقيقة ..

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ [الأنعام : ٩٣]

فالنفس الإنسانية هي الذات الممتحنة في هذه الدنيا ، وهي التي ستُحاسَبُ في الآخرة

﴿ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَدِلُةٌ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل : ١١١]

وقد بيّنا في النظرية الثانية (القدر) أنّ الإنسان الممتحن في الحياة الدنيا ، مكوّنٌ من عنصرين هما النفس والجسد ..

الإنسان = نفس + جسد

.. إنّ النفس البشريّة هي التي تحسّ بالألم واللذة ، وبواباتها إلى هذه الأحاسيس في عالم المادة والمكان والزمان هي عناصر الجسد الحيّ .. وحينما تُغادر الجسد ، فإنّ

لأحاسيسها بواباتٍ أُخرى غير هذه البوابات الماديّة ، لأنّها تكون قد انتقلت إلى عالمٍ آخر غير ماديّ ..

فأثناء أحلامنا في النوم نحسّ باللذّة والألم ، على الرغم من أنّ الجسد لم يتعرّض لأيّ مؤثّرٍ ماديّ يؤدّي إلى تلك الأحاسيس .. وحين خضوعنا للتخدير الجراحي ، لا نحسّ بالألم على الرغم من تعرّض أجسادنا للعمل الجراحي ، وسبب ذلك أنّ أنفسنا كانت أثناء التخدير خارج أجسادنا ، وحين عودتها إلى هذه الأجساد بعد زوال تأثير مادّة التخدير ، يبدأ إحساس أنفسنا بالألم ..

.. إنّ ما نريد قوله هو أنّ النفسَ في المنام ترى دون آليّة العين الضوئيّة ، وتسمع دون آليّة الأذن السميّة ، و ، وما نريد قوله أيضاً أنّ تعرّض الآليّات الماديّة لأحاسيسنا (أعضاء جسدنا) للعمليات الجراحيّة أثناء التخدير ، لا يُرافقه ألمٌ ، لأنّ أنفسنا التي تحسّ بالألم تكون خارج أجسادنا .. وكلّ ذلك أدلّةٌ عقليّةٌ على أنّ النفسَ جوهرٌ غير ماديّ ، وتتفاعل مع عالم المادّة والحسّ عبر الجسد الحيّ الذي تسكنه ..

.. ومّا يؤكّد أنّ النفس مجردةٌ عن المادّة ، هو أنّنا أثناء النوم لا نحسّ بالزمان ولا بالمكان ..

.. إنّ الجسدَ الحيّ بحياته ونبضه وحركة مكوّناته الداخليّة ، ليس أكثر من وعاءٍ للنفس ، وآليّة ماديّةٍ لأحاسيسها في الدنيا .. والجسد يعمل - عبر الحركات الإراديّة - بأمر هذه النفس ، ويستجيب لشهواتها ورغباتها .. بالمقابل فإنّ النفسَ عندما تحلّ في الجسد تُصبح محكومةً لإطار المادّة والمكان والزمان الذي ينتمي إليه الجسد .. فالعلاقة بين النفس والجسد تشبه - إلى درجة ما - العلاقة بين السائل والوعاء الذي يحوي هذا السائل ، ففي حين أنّ السائل هو الذي يُعطي الوعاء قيمته الوظيفيّة ، فإنّ الوعاء يفرض على السائل شكله وتكوينه داخل هذا الوعاء ..

.. ونحن لا ننكر - أبداً - العلاقة بين النفس والجسد ، فأثناء النوم تعود النفس إلى الجسد عند عتبة محدّدة من التأثير على هذا الجسد .. والتخدير الجراحي الذي يؤدّي إلى إخراج النفس من الجسد ، هو مادّة نضعها في هذا الجسد ..

.. ولكن هذا لا يُلغي الانفصال التام بين النفس والجسد ، اللذين ينتميان إلى عالمين متميزين ، لكل منهما خصوصيته الخاصة به ، هما عالم ما فوق المادة والمكان والزمان ، وعالم المادة والمكان والزمان ..

.. هذه الزوجية بين النفس والجسد نراها تتجلى في إدراكنا للأمور والأشياء في حياتنا ، عبر زوجين مختلفين من الإدراك ..

[١] - هناك مسائل نتصورها ككليات مجردة ، دون أن نستطيع تصور نقيضها ، ولا بأي شكلٍ من الأشكال .. فعقلنا الذي يتصور الاثنين (كرقم مجرد عن أي جزئية مادية) أكبر من الواحد ، لا يمكنه تصور نقيض ذلك وهو أن الواحد أكبر من الاثنين ، وذلك في ساحة الكليات المجردة عن الجزئيات المادية ..

.. هذا التصور يتبع - في النهاية - للنفس المجردة عن عالم الجزئيات .. ولا يمكننا تصور هاتين المسألتين المتناقضتين إلا إذا أنزلناهما إلى عالم الجزئيات (عالم المادة والمكان والزمان) .. فالتفاحة الكبيرة أكبر من تفاحتين صغيرتين ..

.. ومن هذه الساحة (ساحة الكليات المجردة عن الجزئيات المادية) التي تنتمي إليها النفس المجردة ، تنبع الإرادة التي يملكها الإنسان .. وقد رأينا في النظرية الثانية (القدر) كيف أن تعلق الإرادة^(*) بالنفس المجردة عن عالم المادة والمكان والزمان ، يتجلى في كتاب الله تعالى عبر عدم تعلق مسألتين متناقضتين بإرادة واحدة ..

.. فلما كان اليسر نقيض العسر ، فإننا نرى عدم عطفهما على إرادة واحدة ،

وبالتالي نرى تكرار كلمة ﴿ يُرِيدُ ﴾ في قوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥]

وكذلك الأمر بين الحرج والتطهير :

(*) كنا قد عرفنا الإرادة في النظرية الثانية (القدر) بأنها : القصد والهدف والغاية ، وأنها دون الأخذ بالأسباب ، وتحوّل إلى مشيئة بعد تحقيق الهدف المراد من خلال التفاعل مع الأسباب المادية ..

﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦]

.. وكذلك الأمر بين السوء والرحمة :

﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ [الأحزاب : ١٧]

.. أمّا إذا كانت المسألتان غير متناقضتين ، فمن الممكن عطفهما على إرادة واحدة .. فالتبيان والهداية مسألتان ليستا متناقضتين .. بل متكاملتين ، ولذلك يُمكن تعلّقهما بإرادة واحدة :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٦]

.. وكذلك الأمر بين التطهير وإتمام النعمة :

﴿ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : ٦]

.. وكذلك الأمر بين إيقاع العداوة والبغضاء وبين الصدّ عن ذكر الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَيْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١]

.. وهكذا .. فالعقل المجرد والإرادة ، يتبعان للنفس المجردة عن الجسد وعن عالم الجزئيات المتناقضة ..

[٢] - الجزئيات المادّية نستطيع تصوّرها وتصوّر نقيضها في الوقت ذاته .. فتصوّرنا أنّ انخفاض درجة الحرارة يؤدي إلى تقلص أقطار الجسم ، لا يمنع من تصوّرنا نقيض ذلك ، وهو أنّ انخفاض درجة الحرارة يؤدي إلى تمدد أقطار الجسم ، فنحن نعلم أنّ الماء في الدرجة (+٤) مئويّة ، تبدأ أقطار جسمه بالتمدد مع انخفاض درجة الحرارة ..

هذا التصور الذي يحمل المتناقضات في الوقت ذاته ، يتبع في النهاية إلى تفاعل النفس المجردة (بعد حلولها في الجسد المادي الذي ينتمي إلى عالم المتناقضات) مع عالم الجزئيات الذي يحوي المتناقضات ، وهو ذاته التصور الذي أنزلناه من ساحة الكليات المجردة إلى ساحة الجزئيات المتناقضة ، حينما تصورنا التفاحة الكبيرة أكبر من تفاحتين صغيرتين ، بعد عجز تصورنا العقلي المجرد في ساحة الكليات عن تصور الواحد أكبر من الاثنين .. وساحة الجزئيات المتناقضة هذه هي - كما رأينا في النظرية الثانية (القدر) - ذاتها ساحة المشيئة .. فقد رأينا كيف أنه - في القرآن الكريم - من الممكن ارتباط المشيئة الواحدة بمسألتين متناقضتين ..

.. فبسط الرزق هو نقيض التضييق فيه ، وعلى الرغم من ذلك نرى تعلق هاتين المسألتين المتناقضتين بمشيئة واحدة :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد : ٢٦]

.. وكذلك الأمر في مسألتي المحو والإثبات :

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ^ط وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٣٩]

.. وكذلك الأمر في مسألتي التقدّم والتأخّر :

﴿ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدثر : ٣٧]

.. ولذلك عرفنا المشيئة بأنها : تفاعل الإرادة النابعة من النفس المجردة ((والتي تنتمي إلى ساحة الكليات المجردة عن الجزئيات المتناقضة)) مع الأسباب (الجزئيات المتناقضة) في عالم المادة والمكان والزمان (عالم الجزئيات) .. وبالتالي فحمل المشيئة للمتناقضات في الوقت ذاته ، يتبع لعالم الأسباب (عالم الجزئيات) الذي هو ساحة تفاعل هذه المشيئة ..

.. وهكذا نرى التوازي التام بين المعادلات التالية ..

جسد حي	+	نفس مجردة	=	الإنسان
تفاعل مع الأسباب (الجزئيات)	+	إرادة	=	المشيئة
امتلاك التفاعل مع الجزئيات	+	امتلاك التفاعل مع الكلّيات	=	خلافة الإنسان لله تعالى

.. فتفاعلنا - في الحياة الدنيا - مع أيّ مسألة ، يكون إرادةً بإدراك الكلّية المجردة المرتبطة بهذه المسألة ، عبر تصوّر الهدف والقصد والغاية تجاه هذه المسألة .. ويكون مشيئةً بالعمل من خلال الجزئيات المادّية (الأسباب) لتحقيق هذه الكلّية في عالم المادّة والمكان والزمان ..

.. والإنسان - في حياته الدنيا - يملك إرادةً مستقلةً خاصّةً به ، تنبع - كما رأينا في النظرية الثانية (القدر) - من نفسه المجردة عن عالم المادّة والمكان والزمان .. وهذه الإرادة قد تختلف عما يريد الله تعالى ، فقد يريد شيئاً - أو أمراً - لا يريد الله تعالى ..

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [الأنفال : ٦٧]

.. ولكن .. هذه الإرادة المستقلة الخاصة بذات الإنسان ، سواء التي توافق ما يريد الله تعالى ، أم التي تخالف ما يريد الله تعالى .. هل يستطيع الإنسان تنفيذها في عالم المشيئة عبر تفاعل إرادته مع الجزئيات (الأسباب) دون أن تكون هذه الأسباب مسخّرةً بين يديه ؟ .. بالطبع لا يستطيع إلاّ بتسخير الجزئيات المادّية (الأسباب) بين يديه ..

.. ولما كانت هذه الجزئيات المادّية مخلوقةً لله تعالى ، وهي بحاجة - كما رأينا - في كلّ لحظة لله تعالى حتى يعطيها حيثيات وجودها في هذا العالم الحسّي لكي تقوم فيه ، ولما كانت هذه الجزئيات (الأسباب) مسخّرةً من الله تعالى لتحقيق مرادنا ، فإنّ مشيئتنا لا

تخرج - أبداً - عن إطار مشيئة الله تعالى ، فلولا الجزئيات المادية المسخّرة بين أيدينا ، ما استطعنا تجسيد إرادتنا إلى مشيئة في عالم الجزئيات (عالم المادة والمكان والزمان) الذي نُمْتَحَن فيه ..

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان : ٣٠]

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩]

.. والقرآن الكريم يُشير إلى عنصري الإنسان (النفس ، الجسد) ، وذلك حسب السياق القرآني الذي يصف هذا الإنسان .. ففي بعض المواقع يُلقى القرآن الكريم الضوء على خلق الإنسان النفس ، وفي مواضع أخرى يُلقى الضوء على الإنسان الجسد .. إن مسألة خلق الإنسان النفس ، قبل خلق الجسد ، نراها بشكل جلي في الصورة القرآنية التالية ..

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [الأعراف :

[١١]

.. الخطاب - كما نرى - يصف البشرية جمعاء ، فأفراد البشرية جمعاء يخاطبهم الله تعالى مبيناً لهم أنه خلقهم كأنفس ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ .. بعد ذلك تم إعطاء هذه الأنفس صورها الخاصة بما ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ .. بعد ذلك أتى الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ .. وهو الأمر الذي سبق خلق الجسد المادي لآدم ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٨ - ٢٩]

.. لقد ذهب الكثيرون إلى أن العبارة القرآنية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ تعني آدم عليه

السلام لوحده (كجسد) ، وكذلك العبارة ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ .. نقول : إن خلق

جسد آدم عليه السلام تم - كما يؤكد القرآن الكريم - بعد الأمر الإلهي بالسجود لآدم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ .. بينما نرى أن هاتين العبارتين تصوّران مرحلتين تمتا قبل الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ، وهذا يناقض تماماً ما يذهبون إليه ... هذا بالإضافة إلى أن العبارة القرآنية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ ترد - كما نرى - بصيغة الجمع (لتشمل البشرية جمعاء) ، وأن العبارة القرآنية ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ خاصة بآدم عليه السلام وحده ..

.. وهكذا فالإنسان - كنفوس - موجودٌ في عالم الكليات ، وذلك قبل ولادته في عالم الجزئيات (عالم المادة والمكان والزمان) .. وبعد موته تعود نفسه إلى عالمها ، ويبقى جسده المادّي في هذا العالم ليتحلّل إلى جزئياته ، ويعود إلى التراب ..
.. وأشار القرآن الكريم إلى الإنسان النفس ، كذاتٍ مجردةٍ عن علائق الجسد ، وعن عالم الجزئيات ..

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : ٣٧]
﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿ [المعارج : ١٩ - ٢١]
.. فعجلة الإنسان ، واستعجاله لمعرفة الغيب ، وهلعه ، وجزعه من الشرّ .. كل ذلك صفاتٌ سلبيةٌ ، تتبع للنفس المجردة عن الجسد المادّي ..
.. وأشار القرآن الكريم إلى الإنسان الجسد ، الممتحن في عالم الدنيا ، في العديد من آياته الكريمة ..

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأنعام : ٢]
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٦]

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ [النحل : ٤]

﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ [نوح : ١٧]

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : ٢]

.. إذا علينا - حينما نقرأ القرآن الكريم - أن نُميزَ في المراد الإلهي بين الإنسان النفس ، وبين الإنسان الجسد ، تمييزاً معياره القرآن الكريم ، حتى لا تختلط علينا المسائل ، وحتى نُدرك مُراد الله تعالى في كتابه الكريم إدراكاً سليماً .. وهذا يُوازِي تمييزنا بين الإرادة والمشية ، ففي حين أن الإرادة ترتبط بالإنسان النفس ، فإن المشية ترتبط بالإنسان (نفس + جسد) ..

.. وهذه الزوجية (نفس مجردة + جسد حي) لا تُوجد إلا في الإنسان .. فالحيوانات تملك أجساداً حيةً وغريزةً فَطَرَهَا اللهُ تعالى عليها ، ولكنها لا تملك نفساً مجردةً ، وبالتالي لا تملك إرادةً ولا عقلاً ، وبالتالي تتفاعل مع الجزئيات فقط ، دون أن تتفاعل مع الكليات .. فتفاعلها مع الجزئيات من أكلٍ وتمتّعٍ ، لا تستطيع أن تنطلق منه نحو إدراك الكليات الكامنة وراء هذه الجزئيات ..

.. وقد بيّن القرآن الكريم بشكلٍ جليٍّ أن النفسَ خاصّةً - من بين المخلوقات - بالإنسان .. ففي قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .. لو كانت الذبابةُ نفساً ، لكان حُكْمُ من يقتلها كحُكْمِ من يقتل الناس جميعاً .. فقوله تعالى ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا ﴾ ، يشملُ أيَّ نفسٍ ، وقوله تعالى : ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ، يُؤكِّدُ أن النفسَ خاصّةً بالإنسان ، وبالتالي فمن يقتل إنساناً فكأنما قتل الناس جميعاً ..

.. وقوله تعالى ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۗ ﴾

﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٣] .. يُؤكِّد حقيقة ما نذهبُ إليه ، فالحيوان تحكمه

الغريزة ، ولا يُوجد عنده أمرٌ بالسوء ولا بغير السوء ..

وقوله تعالى ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : ٢١] ، يُؤكِّد - أيضاً

- صحّة ما نذهبُ إليه ، فالحيوانات لا تجيءُ يوم القيامة مع كلِّ منها سائقٌ وشهيد ..

أما بالنسبة لعالم الجنّ ، فكائناته مخلوقةٌ من النار كما يؤكِّد القرآن الكريم ..

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ [الحجر : ٢٧]

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ [الرحمن : ١٥]

وصفات الجنّ تتبع لصفات النار ، كما أنّ صفات الإنسان (الجسد) تتبع لصفات

الطين والتراب .. فالسرعة عند الجنّ عاليةٌ تُقارن بسرعة الضوء ، وماهيّة الخلق عند الجنّ

تتحمّل هذه السرعة ، لأنّ الجنّ مخلوقٌ من النار .. بينما السرعة عند الإنسان هي ضمن

حدود ما يتحمّله جسمه ، فلا يستطيع الإنسان الانطلاق في الفضاء بسرعاتٍ عاليةٍ (

مقارنةً مع سرعة الضوء ومع السرعة التي يتحرّك بها الجنّ) ، لأنّ جسم الإنسان -

حينئذٍ - يقترب من التحوّل إلى طاقة ، وبالتالي تتغيّر صفات الجسم تغيّراً لا يتحمّله

الإنسان ..

.. وعالم الجنّ عالمٌ مستقلٌّ لا يمكننا أن نقارنه بعالم الإنسان ، لا من حيث ماهيّة

الخلق ، ولا من حيث الصفات ، ولا من حيث طبيعة التكليف (كما سنرى في الفصل

الثاني) .. وما بين العالمين تُوجد مقابلةٌ في التسميات القرآنيّة ، ففي حين أنّ الكلمات (

الإنسان ، الإنس ، الناس) تصف عالم الإنس ، فإنّ الكلمات (الجنّ ، الجنّة)

تصف عالم الجنّ ..

.. واستقلالية الخلق بين عالمي الإنس والجنّ ، ليست فقط في ماهية الخلق وفي الصفات وفي طبيعة التكليف ، إنّما تتعدّى إلى الترتيب في زمن الخلق .. فالجان مخلوق من النار قبل الإنسان الذي خُلِقَ فيما بعد ..

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ

مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ [الحجر : ٢٦ - ٢٧]

.. وهذا الاستقلال في الخلق ليس فقط في الدنيا ، إنّما سيستمرّ في الآخرة ، فالجان سيبقى جاناً ، والإنس سيبقى إنساً ..

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾ [

الأعراف : ٣٨]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نجعلهما تحت

أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ [فصلت : ٢٩]

﴿ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن : ٥٦]

﴿ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن : ٧٤]

.. ولما كان جسم الإنسان مكوّناً في النهاية من ذرات ، ولما كانت الذرة عبارة عن طاقة مُحتزلة في حيز المكان الذي تشغله الذرة ، فإنّ تحرير الطاقة من ذرات جسم الإنسان يعني تحويل هذا الجسم من حالة الوقود إلى حالة الطاقة (النار) .. بينما في عالم الجنّ نرى أنّ ماهية الخلق هي أصلاً من النار ، وبالتالي لا يمكن اعتبار الجانّ وقوداً ، لأنّه - أصلاً - طاقة من النار .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم في الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة : ٢٤]

﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦]

.. فلو أتى النصُّ القرآنيُّ على الشكل (وَقَوْدُهَا الْجَنُّ وَالنَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) ، لكان الجنُّ مخلوقاً من ماهية الوجود الذي يتحوّل إلى طاقة (نار) ، ولتتأقّف ذلك مع الآياتِ الكريمة التي تؤكد أنّ الجنَّ مخلوقٌ من النار ..

.. وما بين عالمي الإنس والجنّ ، كعالمين مستقلّين في الخلق والصفات وطبيعة التكليف ، يبرز مفهوم الشيطان الذي يتعلّق بهذين العالمين على حدّ سواء .. فما هو الشيطان ؟ .. وما علاقته بعالمي الإنس والجنّ ؟ ..

.. إنّ الملائكة ككائناتٍ نورانيّة لها وجودها وعالمها المستقلّ ، هي كائناتٌ لا تعصي الله تعالى أبداً .. أمّا الملائكة كصفةٍ تعني الانصياع الكامل لأمر الله تعالى وعدم عصيانه ، فتقابلها صفة الشيطان التي تعني التمرد على أمر الله تعالى ، وعصيانه ..

.. وصفة الشيطان هذه تمثّلها مئة بالمئة إبليس ، الفرد الذي ينتمي إلى عالم الجنّ ، والذي كان قبل تمثله لهذه الصفة متّصفاً بصفة الملائكة .. فعصيان الله تعالى في حضرته ومن موقع صفة الملائكة ، يعني تمثّل صفة الشيطان تمثلاً كاملاً ..

.. لا شك أنّ إبليسَ فردٌ من أفراد عالم الجنّ ، ولكنه حتى تلك اللحظة التي أمر الله تعالى بها الملائكة بالسجود لأدم عليه السلام ، كان يتّصف بصفة الملائكة ، لأنّه لم يعص الله تعالى أبداً قبل ذلك ، بدليل أنّ الله تعالى استثناه من الملائكة ..

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنَّا ﴾

﴿ أَمْرٌ رَبِّهِ ﴾ [الكهف : ٥٠]

.. فقولهُ تعالى ﴿ فَفَسَقَ عَنَّا أَمْرٌ رَبِّهِ ﴾ يؤكد أنّ إبليسَ كان قبل هذه المعصية ليس

فاسقاً عن أمر ربّه ، وبالتالي منصاعاً لأمر الله تعالى ، وبالتالي متّصفاً بصفة الملائكة ..

وبعد معصيته هذه اتّصف بصفة الشيطان ، التي تناقض تماماً صفة الملائكة ..

.. وتمثّل إبليس لصفة الشيطان تمثلاً كاملاً - بعد معصيته - مسألة نراها نتيجةً

طبيعيّةً ، وذلك وفق منظرين ..

المنظار الأول : إبليس ينتمي إلى عالم الجنّ (عالم الماهيّة الناريّة) .. وفي عالمه هذا لا تُوجد - كما تُوجد عند عالم الإنس - الزوجيّة بين ماهيّة النفس والجسد ، وبالتالي فالمشيئة التي يمتلكها الإنسان والتي تمكّنه من التفاعل مع الجزئيات ، عبر تسخير الله تعالى للأسباب بين يديه لتحقيق مُراد نفسه ، غير موجودة عند عالم الجنّ .. فما هو موجود في ذوات كائنات عالم الجنّ هو الإرادة التي لا تتحوّل - في الحياة الدنيا - إلى مشيئة .. فكائنات عالم الجنّ تملك قدرةً على التفاعل مع الكليّات ، دون التفاعل مع الجزئيات ..

.. وعظمة البيان الإلهي تُبين هذه الحقيقة بشكل جليّ .. فلا يُوجد نصُّ قرآنيّ يُبيّن أنّ عالم الجنّ والشيطان (الذي تمثّل صفته إبليس تمثلاً كاملاً) يملك مشيئةً .. في حين يُبيّن لنا القرآن الكريم أنّ للشيطان إرادة ..

﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ٦٠]

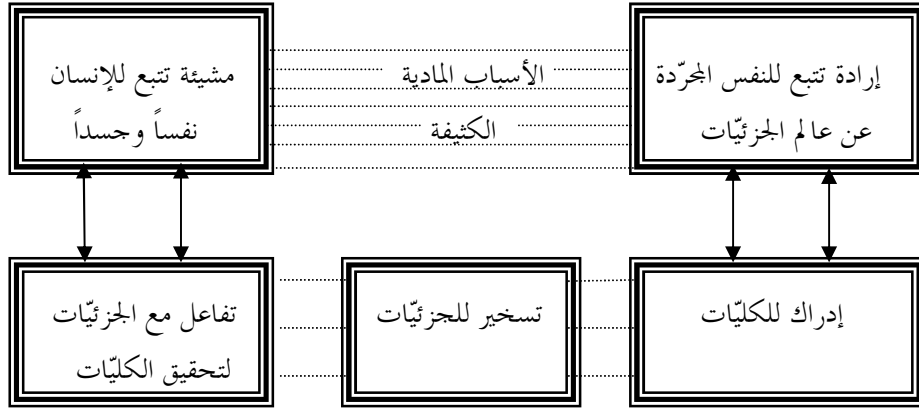
﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١]

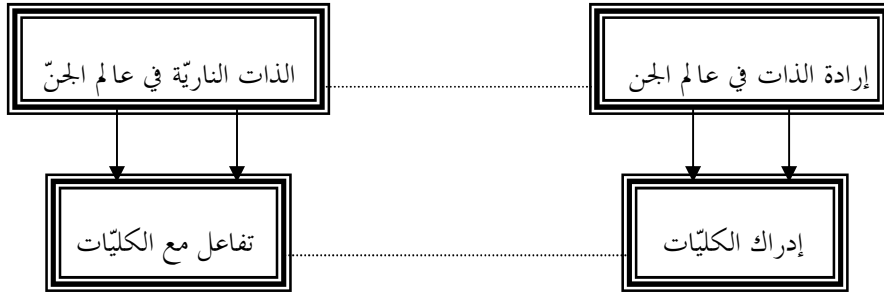
.. فصفةُ عالم المتناقضات (عالم الجزئيات) الذي ينتمي إليه الجسد ، والذي تستخدمه النفس البشريّة في تحقيق إرادتها الواحدة بأسباب متناقضة ، هذه الصفة (التي تختلف عن صفة عالم النار الذي ينتمي إليه الجنّ) هي سبب جعل تحقيق إرادة الإنسان (في عالم الأسباب) أقرب إلى المتناقضات في الوقت ذاته ، مقارنةً مع تحقيق إرادة الجنّ .. وهذا الاختلاف بين صفة عالم النار بالنسبة للجانّ ، وبين صفة عالم التراب (عالم الجزئيات المتناقضة) بالنسبة للجسد الحاوي للنفس البشريّة ، يقتضي مسألةً أخرى تُوصِل إلى النتيجة السابقة ذاتها .. فالنفس البشريّة ذاتٌ مجردةٌ عن الزمان والمكان ، تخضع - حين مزاجتها مع الجسد - لقانون الزمان والمكان الثقيل كثيراً (مقارنةً مع عالم النار) ، وبالتالي فإمكانية التراجع عن الخطأ ، أو الدخول في الخطأ ، مسألةٌ فرصتها في الظهور أكبر بكثير ممّا هي في عالم الجنّ ..

بينما في عالم الجنّ ، لا ازدواجية من عالمين مختلفين - كما هو الحال في ازدواجية النفس والجسد عند الإنسان - وماهية الخلق أكثر شفافية ، وأكثر بعداً عن التحرك بين المتناقضات ، حيث لا مشيئة أصلاً ، وبالتالي أكثر بعداً عن التراجع في تمثّل الخطأ والصّح .. فالفرد من عالم الجنّ فرصته في التراجع عن الخطأ والعكس ، أقلّ ممّا هي عند الإنسان ، وغوصه في جانبي الخير والشرّ هو بمسافة أوسع ممّا هي عند الإنسان ..

.. وهذه الماهية الأكثر شفافية التي تميّز خلق الجنّ (مقارنة مع خلق الإنسان) ، تقتضي شفافية أكبر ومسافة أقلّ ما بين المقدمات والنتائج .. فالمعصية في عالم الجنّ تُعطي في جانب الشرّ تمثلاً لصفة الشيطان أكبر ممّا هو في عالم أقلّ شفافية كعاملنا ، لأنّ المُراد كقيمة معنوية - سواءً للذات من عالم الجنّ أم للنفس البشرية المجردة - أقرب بكثير إلى الماهية النارية ، مقارنة مع الماهية الترابية ..



(في عالم الإنس)



(في عالم الجن)

.. هذه الحقيقة في المقارنة بين عالمي الإنس والجنّ ، نراها واضحة تماماً في رحلة

إبليس من صفة الملائكة إلى صفة الشيطان .. فإبليس في عالم الكلّيات والذي كان يتّصف

بصفة الملائكة ، كان أقرب ما يكون إلى معرفة حقيقة المعصية ، وبالتالي نقلته معصيته لله

تعالى من صفة الملائكة إلى صفة الشيطان نقلةً واحدةً ، بل وإلى تمثّل صفة الشيطان تمثّلاً

كاملاً لا رجعة فيه ، بدليل طرده نهائيّاً من رحمة الله تعالى ..

.. من هنا نرى أن فارق التكليف بين عالمي الإنس والجنّ ، يتبع لفارق الخلق بين العالمين ، وللازدواجية بين النفس والجسد التي يتّصف بها الإنسان ، وغير الموجودة عند الجنّ ..

.. وهذا الفارق في ماهية الخلق بين عالمي الإنس والجنّ ، أشار إليه القرآن الكريم ..

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا هَتَّأَتْ كَأَنَّهُمَا جَأْنٌ وَوَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [النمل : ١٠]
 ﴿ وَأَنَّ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا هَتَّأَتْ كَأَنَّهُمَا جَأْنٌ وَوَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [القصص

[٣١ :

.. فاهتزاز عصا موسى عليه السلام بحيثية أدت به إلى أن يُولّي مُدْبِرًا ولم يُعَقِّبْ ، شبهه الله تعالى بالماهية النارية لعالم الجنّ ، من زاوية رؤيتنا لمحاولة تشكيلها المادي في عالمنا .. فالجنّ لا يستطيع أن يتخلّى عن طبيعته النارية ، وإن حاول التشكّل في عالمنا الكثيف مادياً ..

.. ومسألة عدم التخلّي عن ماهية الخلق ، نراها في معيارٍ آخر ، هو تشكّل الملائكة (ككائنات نورانية) في عالمنا الماديّ .. فالملائكة لها ماهيتها الخاصة بها ، ولا تفقد ماهيتها حتى وإن تشكّلت بصور عالمنا الماديّ ..

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا رِءَا أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴾ [هود : ٦٩ - ٧٠]

ففي قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا رِءَا أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ ، نرى إدراك إبراهيم عليه السلام لتمايز ماهية خلق ضيوفه (الملائكة) ، عن ماهية خلق غيرهم من ضيوفه البشر ..

.. ويبيّن الله تعالى هذا الفارق بين الماهيتين من خلال اختلاف صيغة مخاطبة السلام المتبادلة ما بين الملائكة (ضيوف إبراهيم عليه السلام) وما بين إبراهيم عليه السلام : ﴿

قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ .. فهم قالوا : (سَلَامًا) ، وهو قال : (سَلَامٌ) .. وهنا تكمنُ عظمة الصياغة القرآنيّة التي تُصوِّرُ الأحداث كما هي تماماً ، تصويراً مُطلقاً يتعلّقُ بعظمةِ القائل سبحانه وتعالى ..

.. إبراهيم عليه السلام ردّ عليهم قائلاً (سَلَامٌ) ، بمعنى : سلامٌ عليكم ، أو : أمري سلامٌ .. أي أنّه عليه السلام نطق هذه الكلمة (سَلَامٌ) بحرفيّتها كما هي تماماً .. بينما هم حينما خاطبوه بتحيّة السلام ، لم يخاطبوه بنطق هذه الحروف ذاتها ، فقد خاطبوه بماهيّة تُعطيهِ السلام والطمأنينة والهدوء .. فقوله تعالى الذي يصف صيغة مخاطبتهم (قَالُوا سَلَامًا) ، يحملُ معنى : أنّهم أعطوه الطمأنينة والأمان بما يحملُ له السلام ..

وهذه المسألة وردت أيضاً في قوله تعالى :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ [الذريات : ٢٥]

.. وخاطبه ضيوفه من الملائكة بهذه الطريقة مرّة أخرى :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [الحجر : ٥٢]

وقد بيّن الله تعالى مسألة تمايز الماهيّة بين عالم الخلق والعوالم الأخرى ، حينما صوّر لنا إرسال جبريل عليه السلام (الروح الأمين) إلى مريم عليها السلام ..

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ١٧]

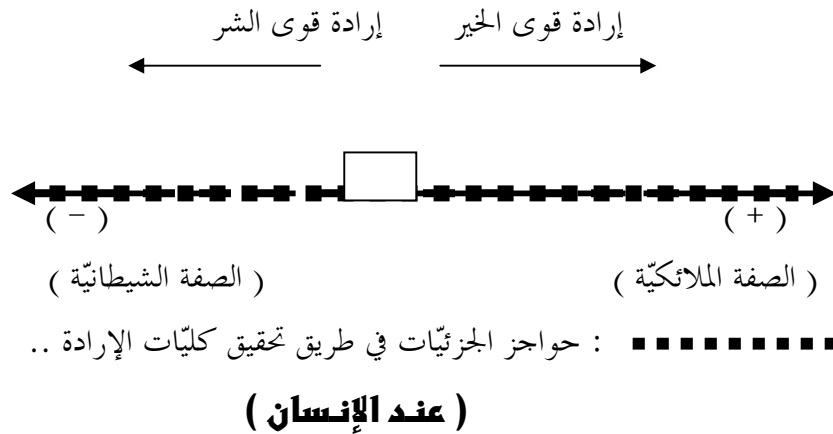
.. فالتمثل هنا كان بشريّاً تامّاً : (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) ، وليس كتشكّل

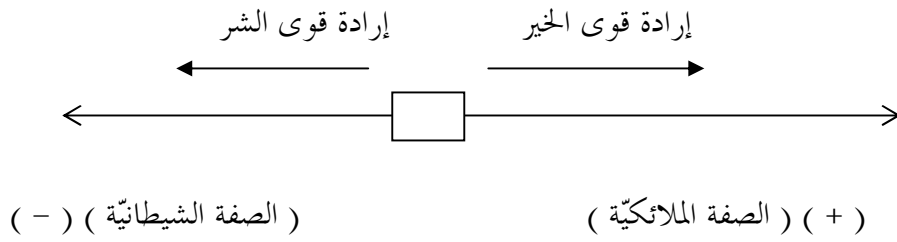
الملائكة بالصورة البشريّة حينما أتت إبراهيم عليه السلام وأوجس منهم خيفةً كما رأينا .. فكلمة : (فَتَمَثَّلَ) ، تعني الاقترابَ من الصورة البشريّة ، ولا تعني أبداً التحوّل إلى الماهيّة البشريّة ..

.. والسَّامِرِيُّ بفتنته التي قام بها في بني إسرائيل ، إنما بَصُرَ ما لم يُبصره غيره ،
فالقبضة التي قبضها من أثر الرسول كماهية تنتمي للعوالم الأخرى ، لها مُعجزتها وماهيتها
المتميّزة عن ماهية عالم الخلق المحسوس الذي يعيشه من فتنوا بفتنته ..

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا
فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا
إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِئَ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٨٨﴾ قَالَ
بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ
سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه : ٨٧ - ٩٦]

.. وهكذا فالانتقال من مرتبة من مراتب الوجود إلى مرتبةٍ أُخرى ، يُؤدِّي إلى تغيير
ماهية النواميس التي تنضبط وفقها مكونات كلِّ مرتبة من هذه المراتب .. فبالانتقال من
الماهية الترابية الكثيفة عند الإنسان إلى الماهية النارية الأكثر شفافية عند الجانّ ، يتم
الابتعاد عن قانون الزمان والمكان الكثيف (عالم الجزئيات) ، ممَّا يُؤدِّي إلى اتساع أكبر
بين رأسي محور الخير والشرّ .. وإنّ عدم امتلاك المشيئة - بالنسبة لعالم الجان - يُقلِّل
كثيراً من فرملة قوى الشرّ والخير في ذلك العالم ، لأنّ الجزئيات كحواجز تُعيق - نسبياً
- تحقيق المراد ، غير موجودة في عالم الجانّ ..





(عند الجان)

.. هذا الاتساع ما بين نهائي محور قوى الخير والشرّ بالنسبة لعالم الجنّ مقارنةً مع عالم الإنس ، للإرادة ذاتها ، نتيجة شفافية ماهية عالم الجنّ بالنسبة لعالم الإنس ، ونتيجة عدم وجود حواجز الجزئيات أمام تحقيق المراد كما هو عند عالم الإنس .. نراه اتساعاً كاملاً بالنسبة لعالم الملائكة (الأكثر شفافية من عالم الجن) ، وفي الجانب الإيجابي فقط ، لأنّ الملائكة لا تملك إرادة شريرة ..

(الصفات الملائكية)



(+)

المنظار الثاني : تمثّل إبليس تمثلاً كاملاً لصفة الشيطان ، نراه من منظارٍ آخر هو طرده طرداً نهائياً من رحمة الله تعالى ، وتوعده بإغواء البشرية إلى يوم الدين ، واستحالة أيّ احتمالٍ لتوبته وعودته إلى الحقّ ..

﴿ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ [الأعراف : ١٨]

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٥]

وفي الوقت ذاته نرى أنّ إمكانية التوبة (في عالم الإنس) مفتوحة حتى أمام أكثر الناس معصية ، فحتى فرعون أعلن تراجعته في اللحظة الأخيرة ، ولكنها اللحظة التي لا

تنفع فيها التوبة ، وهي ذاتها اللحظة قبيل ترك النفس البشرية للجسد المادي الذي تُمتَحَن خلاله في حياتها الدنيا ..

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِم بَنُوآ إِسْرَآءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْفَنُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ - ٩١]

.. ووجود إبليس الذي يتمثل صفة الشيطان ، في هذه الدنيا ، حيث تركه الله تعالى إلى يوم البعث ، هو من أجل امتحان الله تعالى للبشر ، عبر تفاعلهم مع غواية إبليس ، ومع محاولته إبعادهم عن صراط الله تعالى المستقيم ، وليس من أجل امتحانه هو ، فمصيره محسومٌ ، وليس كمصير أفراد عالمي الإنس والجن المرتبط بعملهم والتزامهم بمنهج الله تعالى ..

.. من هنا نستشف حقيقة التناظر بين ورود كلمة الشيطان في القرآن الكريم ، وبين ورود كلمة الملائكة فيه ، حيث ترد كل كلمة منهما (٦٨) مرّة .. فتمثل إبليس تمثلاً كاملاً لصفة الشيطان ، وتأخيره إلى يوم القيامة ، تقابله تماماً - من زاوية الخير والشر - الملائكة ككائنات نورانية لا تعصي الله تعالى أبداً ..

.. أما الصفة الشيطانية (كلمة الشيطان ومشتقاتها) فتقابلها تماماً الصفة الملائكية (كلمة الملائكة ومشتقاتها) .. ولذلك نرى أن كلمة الشيطان ومشتقاتها ترد في كتاب الله تعالى (٨٨) مرّة ، وأن كلمة الملائكة ومشتقاتها ترد أيضاً (٨٨) مرّة .. وكلمة إبليس هي اسم الذات لهذا الفرد ، بدليل أن الله تعالى حينما خاطبه بأداة النداء خاطبه بهذا الاسم بالذات ..

﴿ قَالَ يٰٓإِبْرٰٓئِيْمُ مَا لَكَ اَلَّا تَكُوْنَعَ مَعَ السَّجِدِيْنَ ﴾ [الحجر : ٣٢]

﴿ قَالَ يٰٓإِبْرٰٓئِيْمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيْـٔدِيْ ط ﴾ [ص : ٧٥]

وهكذا .. فصفة الشيطان هي صفة معنوية (غير مادية) ، والنفس البشرية - كما رأينا - مجردة عن المادة أيضاً .. ولذلك فعظمة البيان الإلهي تبين لنا أن مسألتي التسويل

والوسوسة - كمسألتين معنويتين غير ماديتين - لا ترتبطان إلا بالشیطان وبالنفس البشرية ، فكلاهما (الشيطان والنفس البشرية) لا ينتميان إلى عالم المادة الكثيف الذي تنتمي إليه أجسادنا .. وها هي جميع مشتقات هاتين المسألتين في القرآن الكريم ..

﴿ فَوَسَّوَسَ هُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ [الأعراف : ٢٠]

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ [يوسف : ١٨]

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ [يوسف : ٨٣]

﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلْتِ لِىَ نَفْسِى ﴾ [طه : ٩٦]

﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ [طه : ١٢٠]

﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٥]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق : ١٦]

﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٥﴾ الَّذِى يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾

﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس : ٤ - ٦]

.. وهكذا نرى - كما رأينا في النظرية الثالثة (الحق المطلق) - أن الوجود في

الكون (مخلوق وغير مخلوق) يتكوّن من المراتب التالية :

[١] - الذات الإلهية وصفاتها : وهو وجودٌ مطلقٌ غيرٌ محكومٌ للمكان والزمان ،

وحاكمٌ للزمان والمكان ..

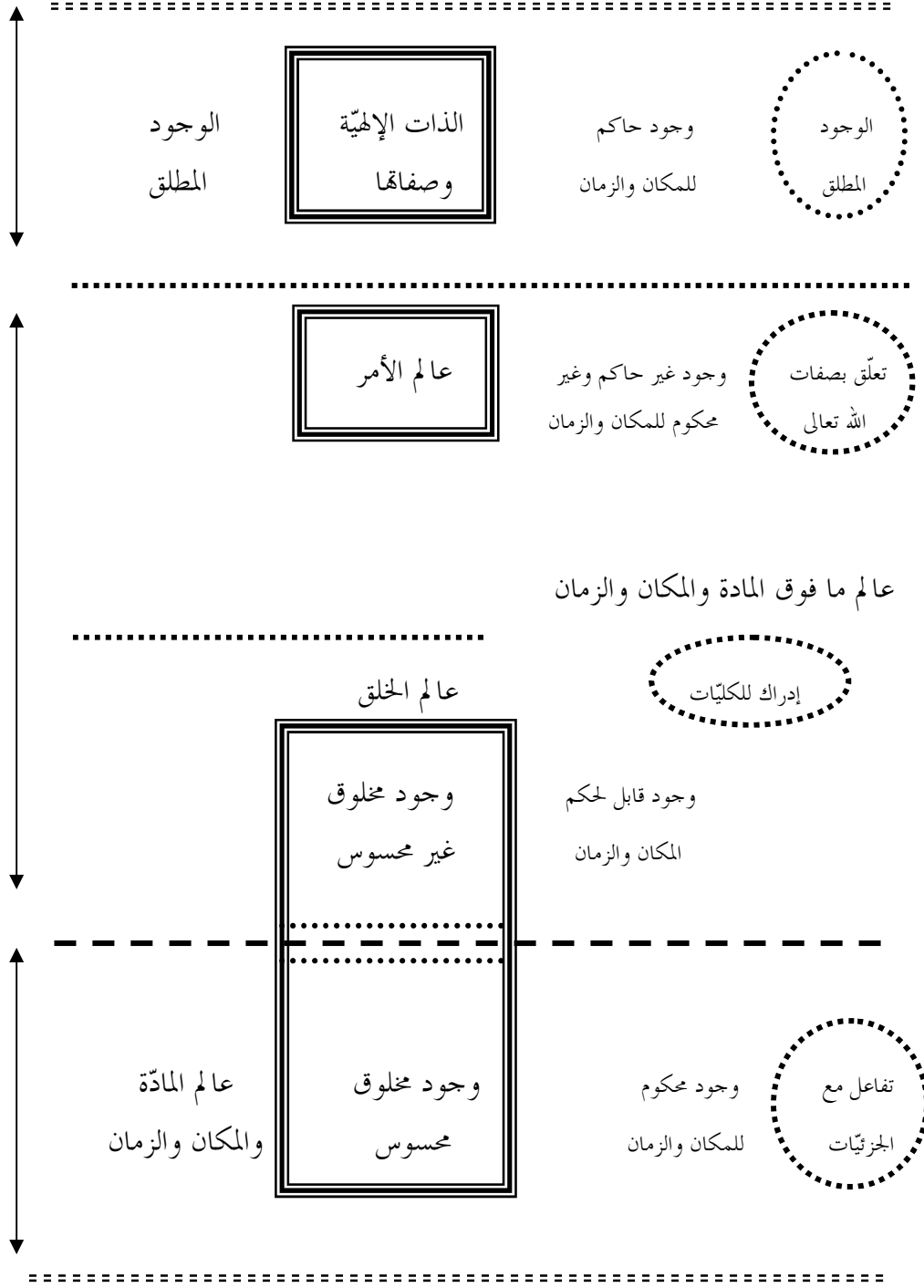
[٢] - عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) : وهو وجودٌ غيرٌ محكومٌ للمكان

والزمان ، وفي الوقت ذاته ليس حاكماً للمكان والزمان ..

[٣] - عالم الخلق : وينقسم إلى قسمين :

أ - وجود مخلوق غير محسوس (كالنفس البشريّة) ، وعلى الرغم من أنّه متحرّرٌ من المكان والزمان ، إلاّ أنّه يخضع للمكان والزمان حينما يُؤطرّ بجزئيات المادّة في عالم المادّة والمكان والزمان ..

ب - وجود مخلوق محسوس ، وهو وجود محكوم لقوانين المكان والزمان ، كأجسادنا الماديّة ..



.. بعد هذا التبيان لمراتب الوجود ، لا بُدَّ من الوقوف عند مسألة ما يُسمَّى بالمجاز (في القرآن الكريم) ، وهو ما أطلقوا عليه : استخدام الألفاظ في غير المعنى الذي وُضعت له ..

.. لقد خُلِقَ مفهوم المجاز - هذا - من قِبَلِ بعض المفسرين نتيجة إسقاط تصورات جزئيات عالم الوجود المخلوق المحسوس على غيره من العوالم الأخرى في الوجود .. فبدلاً من اعتبار المعنى المُجرّد للكلمة القرآنيّة (من منظور علم الله تعالى لحقيقة ما تصفه وتسميه هذه الكلمة) معياراً وأساساً تُسقط عليه المعاني الحسيّة التي تُدرِكُها .. بدلاً من ذلك ، تمّ - في مسألة المجاز - اعتبار ما تُدرِكُهُ من صُور العالم الحسيّ المخلوق معياراً لغيره من العوالم الأخرى ..

.. نحنُ البشرَ حينما نُولَدُ - في هذا العالم المخلوق المحسوس - نخرجُ من بطون أمهاتنا لا نعلمُ شيئاً عن جزئيات هذا العالم ..

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [النحل : ٧٨]

.. إنّنا نرى أنّ الله تعالى يقول : **﴿ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾** وأنّه لا يقول (لا تعلمون أمراً) ، فالذي لا نعلمه هو صفات جزئيات عالم الحسّ والتشّيؤ هذا .. بينما الفطرة النقيّة والروح الذي ينتمي إلى عالم الأمر ، نفخه الله تعالى فينا منذ ولادتنا ..
.. وحينما نُريدُ تسمية الأشياء التي حولنا في هذا العالم (عالم الحسّ والتشّيؤ) فإنّ تسميتنا تبتعدُ عن التسمية الحقّ للأشياء بمقدار نقص علمنا في عاملين اثنين :
- علمنا في إدراك حقيقة هذه الأشياء إدراكاً كاملاً ..
- قدرتنا اللغويّة على صياغة ما علمناه صياغةً كاملة ..
.. ولذلك تبتعدُ تسميتنا للشيء عن التسمية الحقّ التي تصفُ حقيقة هذا الشيء وصفاً مُطلقاً ، بمقدار نقص علمنا بهذين العاملين الاثنين ..

.. وهكذا .. فالألفاظ الوضعيّة (التي تُسمّيها بأنفسنا) ، نستخدمها إمّا على الحقيقة ، حينما نستعملها في المعنى الذي وُضعت له ، وذلك في تعبيرنا عن موجودات

عالم الخلق ، حيثُ تمت صياغة تلك الألفاظ من تفاعل نفوسنا مع عالمه .. وإما على المجاز حينما نستخدمها في غير ما وُضعت له ، وذلك في تعبيرنا عن معانٍ ودلالاتٍ معنويّةٍ لا تنتمي إلى موجوداتِ عالم الخلق ..

.. فحينما نقولُ لإنسانٍ : يدُكَ طويلةٌ .. فإننا نعني على الحقيقة طولَ يدهِ الحسيّةِ .. ونعني على المجازِ قوّةَ سيطرتهِ على الأمورِ ، وسهولةَ وصوله إلى مُرادِهِ .. فحقيقةُ اليدِ بالنسبةِ لنا في عالم الخلق ، هي اليدُ المعروفةُ من دمٍ ولحمٍ وعظم .. بينما قُدرةُ الإنسانِ على تناوُلِهِ للأمورِ مسألةٌ تتصوّرُها بأذهاننا ، ولا نستطيعُ أن نُجسّدَها بشيءٍ من أشياءِ عالم الخلق .. فالجأزُ هو الاستعمالُ المعنويُّ لهذه الكلمة ، والحقيقةُ هي استعمالُها في التعبيرِ عن الحثيَّاتِ الماديّةِ التي تنتمي إلى عالم الخلق الذي فيه تمت صياغةُ لفظَةِ اليدِ ..

.. وهكذا .. لا يمكنُ لألفاظٍ وضعيّةٍ أن تتسعَ - على الحقيقة - لدلالاتٍ أكثرَ من سعةِ علمِ واضعِها ، وذلك في تسميةِ كائناتِ عالم الخلق .. ولا يُمكنُها أبداً تصفيرَ موجوداتِ عالم الأمرِ ، إلا على سبيلِ المجازِ ، ومن منظارِ علمِ واضعِ تلك الألفاظِ ..

.. وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى مسألةِ تسميةِ البشرِ للأشياءِ بأسماءٍ ما أنزلَ اللهُ تعالى بها من سلطان ، فكانت هذه الأسماءُ بعيدةً كلَّ البعدِ عن حقيقةِ الأشياءِ المُسمّاةِ ..

﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ [النجم : ٢٣]

.. وإضافةً إلى أن تسميتنا للأمورِ والأشياءِ ناقصةٌ عن التسميةِ الحق ، بسببِ علمنا الناقصِ عن العلمِ الكاملِ بحقيقةِ هذه الأشياءِ ، فإن هذه التسميةِ ذاتُ خصوصيّةٍ فرديّةٍ وقوميّةٍ ، فقد تختلفُ تسميةُ الشيءِ ذاته من فردٍ لآخر ، ومن أمةٍ لأخرى ، حسبَ المناظيرِ المختلفةِ التي تنظرُ منها الأممُ وأفرادُها إلى هذا الشيءِ ، وحسبَ درجاتِ علمِهِم بماهيتهِ عبرَ الأزمنةِ ، وحسبَ قُدراتِهِم المختلفةِ على الصياغةِ ..

.. ولما كانت حقيقةُ الأمورِ والأشياءِ ، فوقَ الرؤى المختلفةِ التي تنظرُ منها المخلوقاتُ إلى هذه الأمورِ والأشياءِ ، ولما كانت حقيقةُ الأمورِ والأشياءِ لا يعلمُها أحدٌ

كعلم خالقها جلّ وعلا ، ولا يستطيع أحدٌ غير الله تعالى ترجمة هذا العلم المطلق إلى صياغة مطلقة تُصوّر تصويراً مطلقاً حقيقة هذه الأمور والأشياء ، فإن التسمية الحقّ والتي تصفُ وصفاً مطلقاً حقيقة المُسمّى لا تكون إلاّ من الله تعالى ، فارتباط الذوات المُسمّاة من الله تعالى بأسمائها ، يماثل تماماً ارتباط المادّة بصورتها ..

فحتى تكون المفردات القرآنيّة تبيانا لكلّ شيءٍ ، وكاملةً ومطابقةً تامّةً للمعنى ، لا بدّ أن يكون صائغها ، فوق علمي الخلق والأمر ، على حدّ سواء ..
.. فلما كانت الكلمة المقولة الوعاء الذي يحوي المعنى ، فإن التسمية المطلقة تقتضي علماً مطلقاً في المعنى (الكلام) ، وعِلماً مطلقاً في الوعاء المصوغ لاحتواء المعنى (القول) .. وأيُّ ابتعادٍ عن المطلق في المعنى (الكلام) أو في الوعاء (القول) ، تفقّد التسمية مطلقها ..

ولما كان القرآن الكريم تبيانا لكلّ شيءٍ ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] ، فهذا يقتضي أن مفاتيح مُسمّيات الأسماء كلّها في هذا الكون تحملها المفردات القرآنيّة .. ولما كان آدم عليه السلام في عالم ما وراء المادّة والمكان والزمان قبل حلول نفسه في جسده ، قد علّمه الله تعالى الأسماء كلّها (كما سنرى إن شاء الله تعالى) ، فهذا يقتضي أن تكون المفردات القرآنيّة علّمها الله تعالى لآدم عليه السلام وهبط بها إلى الأرض ..

.. وماهيّة القرآن الكريم كونه الوحيد - من بين الكتب السماويّة - قول الله تعالى ، وكونه يتعلّق مباشرةً بصفات الله تعالى ، وكونه يحمل مفاتيح أسرار الكون ، وكونه معجزةً مستمرةً حتى قيام الساعة ، وكونه منهج هداية للبشريّة جمعاء ، وكونه يحمل عمق التأويل الذي لا يعلمه إلاّ الله تعالى ... وكونه ينفرد - من بين الكتب السماويّة - بالتريل^(*) من عند الله تعالى ، في حين يشترك مع الكتب السماوية الأخرى بالإنزال من

(*) - بينت هذه المسائل بشكل مُفصّل في النظرية الثالثة (الحقّ المطلق) ، وفي النظرية السادسة

(سلّم الخلاص) ، وفي كتاب : المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ..

عند الله تعالى .. كلُّ ذلك يقتضي أن تكون كلمائهُ فطريّةً مُوحاةً من الله تعالى ، علمها لأدم عليه السلام قبل حلولِ نفسه في جسده ، في العالم الذي لا يحوي المتناقضات ، والذي ينتمي إليه القرآن الكريم ..

.. فتتزيلُ القرآن الكريم (من الفعل نَزَلَ) من عندِ الله تعالى ، هو انتقالُهُ إلى عالَمنا دون أيّ تغييرٍ وارتسامٍ بمادّةِ هذا العالم ، وبالتالي فمفردائهُ هي ذاتها نزلتْ من السماء ، وجمَلُهُ هي ذاتها نزلتْ من السماء ، فالقرآن الكريم ليس معاني من الله تعالى صاغتها المخلوقاتُ بقلبٍ لغويٍّ كالكتبِ السماويّةِ السابقة ، إنّما هو معانٍ من الله تعالى صاغها الله تعالى بقلبٍ لغويٍّ ..

.. وكلُّ ذلك يُبيّنهُ لنا القرآن الكريم ، من خلالِ تفردِ القرآن الكريم عن غيره من الكتبِ الأخرى بكونه قولَ الله تعالى ، أي صياغةً لغويّةً من عندِ الله تعالى .. وبتفردِهِ أيضاً عن غيره من الكتبِ السماويّةِ بكونه تنزيلُ الله تعالى ، أي نزولاً كما هو تماماً دون أيّ تغييرٍ أو تبديل ، فهو كلامُ الله تعالى ، وأنزلهُ الله تعالى ، شأنهُ بذلك شأنُ الكتبِ السماويّةِ الأخرى ، ولكنّه - أيضاً - قولُ الله تعالى وتزيُّله ، أي تنزيلُ الصياغةِ ذاتها دون أيّ تغييرٍ أو تبديل ..

.. ولذلك فكلُّ المفرداتِ القرآنيّةِ تصفُ الأمورَ والأشياءَ - على الحقيقة - وصفاً مُطلقاً ، وما نتوهمهُ من مجازٍ لبعضِ مفرداتِهِ ناتجٌ عن كونِ تصوّراتنا لا تخرجُ عن إطارِ الصورِ الحسيّةِ التي اكتسبناها من عالمِ الخلق (عالم المادّةِ والمكان والزمان) ، وعن كوننا جاهلينَ لحقيقةِ الأمورِ في ما وراءِ عالمِ الخلقِ الذي نعيشُ فيه ..

.. فحينما نقرأ قولَ الله تعالى .. ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا

كُلَّ الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] .. نحسبُ أنّ كلمة ﴿ يَدَكَ ﴾ في

هذه الآيةِ الكريمةِ قد أُستخدِمتْ على سبيلِ المجاز .. فالمعنى الحقيقيُّ لليدِ لا نستطيعُ تصوّره إلاّ لليدِ الحسيّةِ المعروفة ، ولذلك نُسقطُ تصوّراتنا الحسيّةَ هذه على المعنى الحقيقيِّ لهذه الكلمةِ فترعُمُ أنّها أُستخدِمتْ على المجاز ..

.. لكن .. إذا أدركنا أن أنفسنا جوهراً معنويّ موجوداً قبل خلق أجسادنا ، وقبل حلول هذه الأنفس في تلك الأجساد .. وإذا أدركنا أن هذه الأنفس لها صورها الخاصة بها قبل خلق أجسادنا ، حيث يقول تعالى .. ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ** ﴾ [الأعراف : ١١] .. وإذا أدركنا أن هذه الأجساد الحاملة لأنفسنا مجردة أوعية مادية لارتسام صور أنفسنا في عالم المادة والمكان والزمان (كما سنرى إن شاء الله تعالى في الفصل القادم) .. حين ذلك .. ندرك أن قوله تعالى ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ** ﴾ ، هو أمر إلهي يُصور تصويراً مطلقاً على الحقيقة وليس على الجاز ، ما يُريده الله تعالى لحركة النفس المجردة في توجيهها لما يقع تحت سيطرتها ، كي تتعد عن البخل والإسراف .. فأداة القوة والسيطرة للنفس هي يد هذه النفس ، والتي تتجسد في عالم المادة والحس بيد حسية هي اليد التي نعرفها .. فلما كان السياق القرآني يتعلّق بقيم معنوية تتأرجح بين البخل والإسراف ، وتتعلّق بجوهر نفس الإنسان ، فلا بُدَّ أن تتعلّق دلالات كلمة ﴿ **يَدَكَ** ﴾ في هذه الآية الكريمة بالنفس المجردة ، وليس بارتسامها المادي في الجسد ..

.. وقد ورد هذا المعنى الحقيقي لليد في قوله تعالى ..

﴿ **وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصِرِ ﴿٤٧﴾** إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدارِ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٥ - ٤٧]

ولكن حينما يكون السياق القرآني متعلّقاً بمسائل من عالم الخلق ، فإن هذه الكلمة تصف على الحقيقة أيضاً اليد المادية التي هي عضو من الجسد ، حيث الجسد صورة ارتسام وعاء النفس في عالم المادة والمكان والزمان .. ﴿ **يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ**

إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۗ» [المائدة : ٦] .. فالمعنى المُجَرَّدُ لكلمة اليدِ هو ذاتهُ ، ولكنَّ الذي يتغيَّرُ هو استخدامها في العوالمِ المختلفةِ ، فالاختلافُ يعودُ إلى تمايزِ تلكِ العوالمِ عن بعضها .. ولذلك فهذه الكلمةُ تحملُ دلالاتٍ للمعنيينِ ، المُجَرَّدِ والحسيِّ ، بأنَّ واحدٍ .. يقولُ تعالى .. ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۗ ﴾ [الفتح : ٢٤]

.. وهكذا .. فعدمُ إدراكِ حقيقةِ فطريَّةِ المُفردةِ القرآنيَّةِ ، وبأنَّها من صياغةِ الله تعالى ، لتحملَ معنىً مُجرِّداً له ارتساماً في العوالمِ المُختلفةِ ، وعدمُ إعادةِ المعنى والدلالاتِ التي تحملُها الكلمةُ القرآنيَّةُ إلى حقيقةِ العالمِ الذي تنتمي إليه المسألةُ التي تصفُها وتسمِّيها المُفردةُ القرآنيَّةُ .. كلُّ ذلكِ أدَّى إلى أوهامِ التجسيدِ عندَ بعضهم ، وإلى أوهامِ المجازِ عندَ بعضهم الآخر ..

.. فحينما نقرأ قولَ الله تعالى .. ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] .. علينا أن نعلمَ أنَّ الاستواءَ هنا يُحمَلُ على فاعله ، وهو اللهُ تعالى ، الذي هو فوقَ عالمي الخلقِ والأمرِ على حدِّ سواءٍ .. ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .. وأيُّ تصورٍ لهذا الاستواءِ بمعاييرِ عالمنا الماديِّ الحسيِّ ، هو تجسيدٌ لله تعالى ، ومحاولةٌ لفرضِ معاييرِ عالمنا الماديِّ على الذاتِ الإلهيَّةِ ..

فالفارقُ بين استواءِ الله تعالى على العرشِ ، وبين استواءِ سفينةِ نوحٍ - على سبيلِ المثال - يُوازي تماماً الفارقَ بين الذاتِ الإلهيَّةِ وبين مادةِ سفينةِ نوحٍ .. ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَابْسِمَاءِ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۗ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود : ٤٤] .. مع العلمِ أنَّ المعنى المُجَرَّدَ لكلمةِ ﴿ اسْتَوَى ﴾ ، هو ذاتهُ ، ولكنَّ الذي يتغيَّرُ في دلالاتِ هذه الكلمةِ القرآنيَّةِ هو الذاتُ التي تصفُها ، والعالمُ الذي تنتمي إليه هذه الذاتُ ، أي استخدامُ هذه الكلمةِ في الجملةِ القرآنيَّةِ ..

وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة **«الْعَرْشِ»** ، فالعنى المُجَرَّد لهذه الكلمة هو ذاته ، ولكنَّ الفارق بين العرش الذي استوى الله تعالى عليه من جهة ، وبين العرش الذي رفع يوسف عليه السلام أبويه عليه .. **«وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ»** [يوسف : ١٠٠] ، وعرش ملكة سبأ .. **«قَالَ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ»** [النمل : ٣٨] .. هذا الفارق هو ذاته الفارق بين الله تعالى من جهة ، وبين يوسف وملكة سبأ والعالم الذي ينتميان إليه من جهةٍ أخرى ..

.. وضرورة إدراك مرتبة الوجود للموصوف بالكلمة القرآنية ، وحقيقة المعنى المُجَرَّد الذي تحمله هذه الكلمة في السياق القرآني المُحيط ، يتجلى في إدراكنا للمعنى المُجَرَّد الذي تحمله كلمة **«لَتَمُرُونَ»** في النصّ القرآني التالي ..

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ جَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنكُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٣ - ١٣٨]

.. والتفسير التاريخي الموروث ، بأن دلالات الآيتين الكريميتين **«وَإِنكُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ»** ، تتعلق بسياقٍ تاريخيٍّ مُحدّدٍ بإطار الزمان والمكان ، ويخصّ أشخاصاً مُحدّدين ، كانوا - في الماضي أثناء فترة الرسالة - يمرّون مروراً مكانيّاً من المنطقة التي كان فيها قومُ لوط .. هذا التفسير ، يُناقضُ صياغة هاتين الآيتين المُوجّهة لكلّ البشر في كلّ زمانٍ ومكان .. فقوله تعالى **«وَإِنكُمْ لَتَمُرُونَ»** ، خطابٌ لكلّ البشريّة دون استثناء ، في كلّ زمانٍ ومكان .. وقوله تعالى **«أَفْلا تَعْقِلُونَ»** هو - أيضاً - خطابٌ من الله تعالى للبشريّة جمعاء ..

.. دلالات هاتين الآيتين ندرکہما في إطار التصوير الإلهي لنوازع النفس البشرية (التي تنتمي إلى عالم الخلق غير المحسوس) ، مرورها النفسي على إمكانية فعل حيثيات الفاحشة التي فعلها قوم لوط ..

.. بمعنى : أن الله تعالى يُنبه النفس البشرية ويُحذرها في بداية الصباح والليل ، حيث الوقت الغالب للقاء بين الرجل والمرأة ، من أن تفعل فعل الفاحشة التي فعلها قوم لوط عليه السلام ..

.. فالنتيجة التي وصل إليها قوم لوط بفعلتهم هذه ، بينها الله تعالى لنا في كتابه الكريم ، وبالتالي ففي اللقاء بين الرجل والمرأة ، حيث إمكانية المرور من فعل هذه الفاحشة ممكنة ، عند هذا الحد من إمكانية الانزلاق بفعل فاحشة قوم لوط ، يُحذرننا الله تعالى ، بأن غضب الله تعالى الذي أنزله على قوم لوط ، ومصيرهم في الآخرة ، لا يختلف عنه مع من يفعل فعلتهم التي فعلوها ..

.. فالله تعالى يقول للبشرية جمعاء من خلال هاتين الآيتين : إياكم من الانزلاق في فعل فاحشة قوم لوط ، فمصيرهم - في الدنيا والآخرة - بينته لكم في القرآن الكريم ، ويدركه كل عاقل ، وناموسي لا يتغير ولا يتبدل ، فمن يفعل هذه الفاحشة مصيره لا يختلف عن مصير قوم لوط ، وعليكم أن تعقلوا هذه الحقيقة ..

.. وهكذا فالكلمة القرآنية بحقيقتها المحرّدة عن العالم الذي ينتمي إليه الموصوفُ بها ، دلالاتها ثابتة مُطلقة مُتعلّقة بعلم الله تعالى المُطلق المحيطة بحقيقة الموصوف .. ودلالاتها في كل عالم من عوالم الوجود تصفُ وصفاً مُطلقاً حقيقة إدراكنا لارتسام صفات الموصوف بها في ذلك العالم .. وكل ذلك ضمن صياغة قرآنية تحمل من الدلالات والمعاني ما يُناسب إدراك الأجيال المتلاحقة حتى قيام الساعة ..

.. ولنقف عند تفسير الآية الكريمة التالية لنرى كيف أن عدم الوقوف على حقيّة الصياغة القرآنية وفرض التصوّرات المُسبقة الصنع على دلالات النصوص القرآنية ، يُوصل إلى فهم مُشوّه لدلالات كتاب الله تعالى ..

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ آخَذُوا فِيهِ لَكَيْفٌ مِّنْهُمْ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَتْبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء: ١٥٧]

.. في العبارة القرآنية ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمْ ﴾ داخل هذه الآية الكريمة ، نرى أن الضمير في كلمة ﴿ قَتَلُوهُ ﴾ يعود إلى ﴿ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ ، وكذلك الأمر بالنسبة للضمير في كلمة ﴿ صَلَبُوهُ ﴾ .. فالكلمتان [[﴿ قَتَلُوهُ ﴾] ، ﴿ صَلَبُوهُ ﴾] صيغتهما متماثلة ، فعل ماضي بصيغة المبني للمعلوم ، والضمير فيهما لا يعود إلا إلى عيسى عليه السلام ..
.. ولكن إلى ماذا يعود الضمير المتعلق بكلمة ﴿ شُبِّهَ ﴾ ؟ ..

كلمة ﴿ شُبِّهَ ﴾ نراها بصيغة الفعل الماضي المبني للمجهول ، وإعادة الضمير إلى عيسى عليه السلام ، بمعنى أن شبه عيسى أوقعه الله تعالى على إنسان آخر ليُصَلَّبَ بدلاً من عيسى عليه السلام ، أمرٌ غير ممكن ، لأن عيسى عليه السلام (وفق هذا التصور) مشبَّه به ، وليس بمشبَّه ..

فالله تعالى لم يقل (ولكن شبه الله به لهم) ، إنما يقول ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمْ ﴾ .. إذاً الروايات الملققة والمتناقضة فيما بينها ، من أن الله تعالى أوقع شبه عيسى عليه السلام على إنسان آخر ، تنقضها الصياغة اللغوية لهذه العبارة القرآنية ..

ولا يمكن إعادة الضمير المستتر في كلمة ﴿ شُبِّهَ ﴾ إلى أي إنسان آخر ، كالذي زُعم أنه صُلب بدلاً من عيسى عليه السلام ، لأن هذا الآخر المفترض لم يجر له ذكر في السياق السابق ، ولا حتى في اللاحق ..

أما محاولات تخريج ذلك كالقول بأن الضمير المستتر مُسند إلى الجار والمجرور ﴿ هُمْ ﴾ ، بمعنى ولكن وقع لهم الشبه ، أو كالقول بأن الضمير مُسند إلى ضمير المقتول ، في

العبارة **﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾** ، تصوّراً بأنّه يدلّ على أنّه وقع القتل على غيره ، فصار ذلك الغير المذكوراً بهذا الطريق ، فحسن إسناد **﴿ شُبّهة ﴾** إليه .. هذه التخريجات لا تُسعفها الصياغة اللغويّة لهذه العبارة القرآنيّة ، وهي نتيجة فرض تصوّر مُسبق الصنع على دلالات هذا النصّ الكريم ..

وهذه القصّة التاريخيّة الملقّقة ، بأنّ الله تعالى ألقى شبهة عيسى عليه السلام على إنسانٍ آخر ليُصلّب بدلاً منه ، يتبيّن فسادها من أمرين :

.. الروايات في هذا الأمر متناقضة فيما بينها تناقضاً جلياً ، ولمعرفة هذه الحقيقة لننظر في النصّ التالي الذي أنقله بحرفيّته من تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفتاح الغيب ، للإمام محمد الرازي فخر الدين ، طباعة دار الفكر ، الطبعة الأولى (٢٠٠٥ م) ، وذلك في تفسير هذه الآية الكريمة :

[[..... اختلفت مذاهب العلماء في هذا الموضع وذكروا وجوهاً :

الأوّل : قال كثيرٌ من المتكلمين : إنّ اليهود لما قصدوا قتله رفعه الله تعالى إلى السماء فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامّهم ، فأخذوا إنساناً وقتلوه ولبسوا على الناس أنّه المسيح ، والناس ما كانوا يعرفون المسيح إلاّ بالاسم ، لأنّه كان قليل المخالطة للناس ، وبهذا الطريق زال السؤال . لا يقال : إنّ النصارى ينقلون عن أسلافهم أنّهم شاهدوه مقتولاً ، لأننا نقول : إنّ تواتر النصارى ينتهي إلى أقوام قليلين لا يبعد اتّفاقهم على الكذب .

والطريق الثاني : أنّه تعالى ألقى شبهة على إنسان آخر ثمّ فيه وجوه :

الأوّل : أنّ اليهود لما علموا أنّه حاضر في البيت الفلاني مع أصحابه أمر يهوداً رأس اليهود رجلاً من أصحابه يقال له طيطايوس أن يدخل على عيسى عليه السلام ويخرجه ليقتله ، فلمّا دخل عليه أخرج الله عيسى عليه السلام من سقف البيت وألقى على ذلك الرجل شبهة عيسى فظنّوه هو فصلبوه وقتلوه .

الثاني : وكلّوا بعيسى رجلاً يحرسه وصعد عيسى عليه السلام في الجبل ورفع إلى

السماء ، وألقى الله شبهه على ذلك الرقيب فقتلوه وهو يقول لست بعيسى .

الثالث : أن اليهود لما همّوا بأخذه وكان مع عيسى عشرة من أصحابه فقال لهم :

من يشتري الجنة بأن يلقي عليه شبيهي ؟ فقال واحد منهم : أنا ، فألقى الله شبه عيسى عليه فأخرج وقتل ، ورفع الله عيسى عليه السلام .

الرابع : كان رجل يدّعي أنه من أصحاب عيسى عليه السلام ، وكان منافقاً فذهب

إلى اليهود ودلّهم عليه ، فلما دخل مع اليهود لأخذه ألقى الله تعالى شبهه عليه فقتل وصلب . وهذه الوجوه متعارضة متدافعة والله أعلم بحقائق الأمور . [] ..

.. القول بأن الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه السلام على إنسان آخر ليصلب بدلاً منه ، دون أيّ ذكرٍ لذلك في كتاب الله تعالى ، وبناءً على روايات متناقضة مناقضة لكتاب الله تعالى ولسننه الكونية التي لا تتبدّل ولا تتغيّر ، يفتح باب السفسطة ، ويُعطي حيثيات الشك بما يراه الإنسان .. وكلّ ذلك يتعارض مع منهج الله تعالى الذي لا يأتيه الشك لا من قريب ولا من بعيد ..

.. إذا .. الضمير المستتر في كلمة ﴿ شُبّهة ﴾ يعود إلى الصلب والقتل ، بمعنى شُبّه

الصلب والقتل لهم .. ولكن كيف يكون ذلك ؟ .. للإجابة على هذا السؤال لا بدّ من معرفة معنى الصلب في كتاب الله تعالى ..

.. دلالاتُ الفعل الثلاثي (صَلَبَ) تعني وَضَعَ الإنسانِ وتَشَبّهَهُ على أداة ثابتة حتى ينتقل إلى الحياة الأخرى من على هذه الأداة .. أي هي الخروجُ من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى من خلال الوجودِ على أداة ثابتة صلبة ..

.. من هنا .. فالصليبُ : هو الأداة الثابتة التي يخرجُ من خلالها المصلوبُ إلى الحياة

الأخرى ..

.. وفي هذا الإطار من المعنى تُفهم دلالاتُ مشتقات الجذر (ص ، ل ، ب) في

الآيات التالية :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ آخَتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء: ١٥٧]

﴿ يَنْصَحِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۗ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۗ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١]

.. والصُّلْبُ: هو الخطُّ الثابتُ الحاملُ للصفات المتوارثة من آدمَ عليه السلام إلى الأجداد إلى الآباء إلى الأبناء ، والذي من خلاله يخرج الإنسان إلى عالم الدنيا ، الذي هو العالم الآخر بالنسبة لمرحلة ما قبل خروج الإنسان إلى الدنيا ..

.. ففي قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۗ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ فَتُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ أَلْصُلْبِ وَالْتَرَائِبِ ۗ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۗ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۗ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٥ - ١٠] .. نرى أن الآية الكريمة : ﴿ تُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ أَلْصُلْبِ وَالْتَرَائِبِ ﴾ ، تعني : يخرج من بين الخطِّ الثابت للصفات الوراثية الذي هو ﴿ أَلْصُلْبِ ﴾ والممتدُّ من آدمَ عليه السلام إليه ، وبين الصفات المختلفة المكتسبة والظفرات الطارئة التي يحملها الإنسان خارج محور ﴿ أَلْصُلْبِ ﴾ الذي خرج إلى الدنيا من خلاله ، وبالتالي تُوصَفُ هذه الصفات بـ ﴿ وَالْتَرَائِبِ ﴾ ، أي بالضعف والتفتت وعدم الثبات ، وذلك مقارنة مع الصفات التي يحملها الإنسان من محور الصُّلْبِ الذي خرج من خلاله إلى الدنيا ..

.. وهكذا .. فالصُّلْبُ هو الخطُّ الثابتُ الممتدُّ من آدمَ عليه السلام إلى الإنسان ، حيث يخرج المولود من خلاله إلى حياةٍ أخرى (الحياة الدنيا) ، تماماً كما أن الصليب أداة ثابتة يخرج من خلالها المصلوب عليه من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى ..

.. ولما كان لكل إنسان صُلبه الذي يخرج منه أولاده إلى الدنيا ، فإن لمختلف البشر أصلاً بهم التي تلقتي جميعها عند آدم عليه السلام ، والتي يخرج منها أولادهم ..

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [

النساء : ٢٣]

.. وفي حين أن دلالات جذر الفعل الثلاثي (صَلَبَ) تعني الموت على الصليب دون تأثير خارجي ، بمعنى : أن الصليب كان البداية للخروج من الدنيا ، فمن على الصليب يبدأ المصلوبُ خروجه من الدنيا نحو الآخرة ، لا قبل ذلك ، دون أي مؤثر خارجي مُفتعل .. في الوقت ذاته ، نرى أن دلالات الفعل الرباعي (صَلَّبَ) ، تعني ابتداء مُقدّمات الخروج من الدنيا قبل الوضع على الصليب من خلال التعذيب وفعل مُقدّمات القتل ، ثم يأتي الصليب ليكون النهاية للمصلوب ، حيث يخرج المصلوب من الدنيا من خلال هذا الصليب نتيجة أفعال التعذيب التي تعرّض لها قبل الصلب ، إضافة لوضعه على الصليب .. يقول تعالى واصفاً قول فرعون للسحرة :

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفِكُمْ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف :

[١٢٤]

.. فالكلمة القرآنية : ﴿ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ تعني الوضع على الصليب بعد قطع الأيدي والأرجل من خلاف ، فالموت على الصليب - في هذه الحالة - هو بسبب قطع الأيدي والأرجل من خلاف ومن ثم بسبب الترك على الصليب حتى الموت .. والآيتان الكریمتان التاليتان تُؤكِّدان هذه الحقيقة :

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۗ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ مُّمُّ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۗ فَلَا تُقَطِّعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۗ ﴾ [طه : ٧١]

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۗ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ مُّمُّ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۗ لَا تُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ ۗ ﴾ [الشعراء: ٤٩]
وفي الآية (٧١) في سورة طه نرى العبارة القرآنية ﴿ وَلَا صَلِّبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ وذلك بورود كلمة ﴿ في ﴾ وليس كلمة (على) ، ولا يمكن لكلمة ﴿ في ﴾ أن تكون بمعنى كلمة (على) ، وفي هذا دليل على أن الصلب لا يعني مجرد الوضع على الصليب إنما يعني الموت من على الصليب ، فالعبارة القرآنية ﴿ وَلَا صَلِّبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ تعني الموت صلباً ﴿ وَلَا صَلِّبْنَكُمْ ﴾ وذلك من خلال كونهم محاطين في جذوع النخل ﴿ في جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ ..

وفي ذات السياق نفهم كلمة ﴿ يُصَلِّبُوا ﴾ في قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۗ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣]

.. وهكذا ففي حين تحمل دلالات الفعل الثلاثي (صَلَّبَ) معنى كون الصليب بداية خروج المصلوب إلى الحياة الآخرة ، فإن دلالات الفعل الرباعي (صَلَّبَ) تحمل معنى كون الصليب نهاية خروج المصلوب إلى الحياة الآخرة ، لأنَّ مُقَدِّمات موت المصلوب كانت من خلال التعذيب وفعل كلِّ ما يُودِّي إلى الموت قبل الوضع على الصليب ..

وحاصل الأمر أنّ الصلب يعني الموت على الصليب ، ولا يعني مجرد الوضع على الصليب ، فالوضع على الصليب والتزول عنه دون الموت عليه ، لا يعني صلباً ولا بأيّ شكلٍ من الأشكال ..

.. إذاً .. العبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمْ ﴾ تنفي عن عيسى عليه السلام القتل ، وتنفي عنه الصلب ، وتؤكد تشبيه الصلب والقتل لهم .. فكيف يكون ذلك ؟ ..

.. مشتقات الجذر (ش ، ب ، هـ) في كتاب الله تعالى تعني رؤية ظاهر مخالف لباطن المرئي وحقيقته ، وعدم إدراك حقيقة المسألة ، واختلاط الأمر بالنسبة لها ، مع أنّ لها وجهاً ظاهراً .. فالصورة القرآنيّة : ﴿ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة : ٧٠] ، تعني أنّ الأمر قد اختلط عليهم فلم يعودوا يدركوا حقيقة البقرة المطلوبة ، مع أنّ البقر ظاهراً أمامهم .. والصورة القرآنيّة : ﴿ كَلَّمَا زُرِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي زُرِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهٖ مُتَشَبِهًا ﴾ [البقرة : ٢٥] ، تعني أنّ ظاهر ذلك الرزق متماثلٌ مع أنّ حقيقة طعمه مختلفة ، أي يرون ظاهراً مختلفاً عن الباطن الذي اعتقدوه ..

وكذلك الأمر بالنسبة للصورة القرآنيّة : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمْ ﴾ [النساء : ١٥٧] ، فهي تعني أنّ الصلب والقتل شُبِّهَ لهم ، بمعنى أنّهم رأوا ظاهراً يُوهَم بالصلب ، مع أنّ حقيقة الأمر وباطنه غير ذلك ..

ولما كان هذا الشبه ليس من فعلهم ، وهو توهم اعتقدوه ، كان الفعل ﴿ شُبِّهَ ﴾ بصيغة المبني للمجهول ... إذاً عيسى عليه السلام تمّ وضعه على الصليب ، واعتقدوا أنّه فارق الحياة من على الصليب ، بمعنى اعتقدوا أنّه صلب وقُتل ، وهذا ما شُبِّهَ لهم ، ولكن الحقيقة أنّه أنزل من على الصليب حياً لم يفارق الحياة ، وبالتالي لم يُصلب ولم يُقتل ..

إذاً ظاهر هذه المسألة (الوضع على الصليب والاعتقاد بأنه فارق الحياة من عليه) ،
 يخالف باطنها وحقيقتها (عدم الموت على الصليب والتزول عنه حياً) ، مع العلم أنّ
 الصلب كما بيّنا لا يعني مجرد الوضع على الصليب ، إنّما يعني الموت من على الصليب ..
 وهذه هو عين ما تنطق به العبارة القرآنية ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُم ﴾ ..
 وتكملة الآية الكريمة ذاتها تؤكد هذه الحقيقة ..

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ اِلَّا اَتْبَاعَ الظَّنِّ وَمَا

قَتَلُوهُ يَقِيْنًا ﴾

.. وهكذا نرى كيف أنّ الإعراض عن الصياغة الحرفية للنصّ القرآني مع فرض
 الروايات وأقوال السابقين على النصّ القرآني ، لا يزيدنا إلاّ ابتعاداً عن حقيقة دلالات
 كتاب الله تعالى ..



مركز الذِّكْر

لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

موقع :

الكاتب والمفكر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

وجودنا وحقيقة التكليف

.. ما الحكمة من وجودنا في عالم الدنيا ؟ .. وهل لنا من اختيارٍ في مجيئنا إلى هذه الدنيا ؟ .. وما الفارق بين وجودنا ووجود باقي المخلوقات ؟ .. هذه الأسئلة موجودةٌ في كلِّ نفسٍ ، وأحوبتها تختلف حسب درجة إدراك النفس لآيات كتاب الله تعالى ، ولذاها كذاتٍ مجردةٍ عن هذا العالم المادّي المحسوس ، وللحقائق العلميّة حول صفات المادّة التي ينتمي إلى عالمها حسدنا ..

.. لقد بيّن لنا القرآن الكريم أنّنا (كأنفسٍ مجردةٍ عن هذا العالم المادّي) موجودون قبل سجود الملائكة لآدم عليه السلام (آدم النفس والجسد) ، وأنّ وجودنا - آنذاك - وجودٌ عاقلٌ ..

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ٧٢ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ [الأحزاب : ٧٢ - ٧٣]

هذه الصورة القرآنيّة تبين لنا أنّ الله تعالى عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال - عرضاً غير إجباريٍّ - بغية حملها .. ودليلنا على أنّ هذا العرض - غير الإجباري - بغية حمل الأمانة ، هو قوله تعالى ﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا ﴾ .. فما هي هذه الأمانة ؟ ..

.. لا شك أنّ الأمانة تعني التكليف في الائتمان على شيء ، فمن يُؤتمن على شيء لا بُدَّ أن يُوضَع هذا الشيء بين يديه ، وأن يملك القدرة على إنكار الأمانة ، وعلى تأديتها ، في الوقت ذاته ..

.. وقوله تعالى ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ، يبيّن لنا

مسألتين في الوقت ذاته :

- ١ - أنّ الإنسان هو الوحيد الذي تصدّى لحمل هذه الأمانة ..
 - ٢ - أنّ الإنسان كان باختياره لحمل هذه الأمانة ظالماً لنفسه ، وجاهلاً بحقيقة نفسه وبما يترتب عليه من حمل هذه الأمانة .. بينما المخلوقات الأخرى لم تكن جاهلةً بذلك جهل الإنسان .. فماذا نستنتج من ذلك ؟ ..
- .. علينا أن نعود إلى مرحلة عرض الأمانة ، ونقارن بين الإنسان النفس (قبل حلول هذه النفس في جسده) من جهة ، وبين الكائنات الأخرى من جهة أخرى .. تلك الكائنات التي لم تظلم ذاتها ، ولم تكن جاهلةً بعواقب حمل هذه الأمانة ، كما هو الحال عند الإنسان ..

.. المخلوقات التي كانت موجودةً - آنذاك - يُمكننا تصنيفها - من زاوية

إدراكها للكليات والجزئيات - على النحو التالي :

[١] - كائنات غير مدركة لا للكليات ولا للجزئيات ، كالجماد ، ولذلك

لا تملك إرادة ولا مشيئة ..

[٢] - كائنات مدركة فقط للجزئيات ، وغير مدركة للكليات ، كالبهائم

، فتتفاعل مع الجزئيات من طعامٍ وما تمليه عليها غريزتها ، دون النظر في الكليات التي تنتج عن التفكير فيما وراء هذه الجزئيات .. ولذلك لا تملك إرادة ولا مشيئة ، فالمشيئة على الرغم من أنّها تفاعلٌ مع الجزئيات ، إلا أنّها مسبوقة بإرادة توجّهها داخل إطار هذا التفاعل ، والبهائم تفتقد هذه الإرادة ..

[٣] - كائنات تدرك الكليات إدراكاً حقاً ، دون أن تُدرك الجزئيات .. كالملائكة التي تعبد الله تعالى ولا تعصيه أبداً ، دون أن تُدرك الجزئيات من صفات للأشياء .. وقد بين لنا القرآن الكريم مسألة عدم إدراك الملائكة للجزئيات ، حينما صور لنا عرض الله تعالى للأشياء على الملائكة ، وطلب منهم أن ينبئوه بأسمائها ، وكيف أن الملائكة عجزت عن ذلك ، لأنها لا تُدرك الجزئيات .. ولما كان إدراك الملائكة للكليات إدراكاً حقاً ، ولا تعصي الله تعالى أبداً ، ولا تفعل إلا ما يأمرها الله تعالى به ، فإن إرادتها متضمنة ضمن إرادة الله تعالى ، ولا تخرج أبداً عن إرادة الله تعالى ..

[٤] - كائنات تتفاعل مع الكليات تفاعلاً يتأرجح بين الخير والشر ، وتطلع أطلاعاً على الجزئيات ، فتعرف صفاتها دون أن تدركها ، ودون أن تعيش في ساحة هذه الجزئيات ، كعالم الجنّ المخلوق من النار ، ولذلك تملك هذه الكائنات إرادة دون أن تملك مشيئة ..

صحيح أن النار ليست كالمادة الثقيلة التي تتكوّن منها أجسادنا ، لكنها في النهاية طاقة ، ويوجد فيها من صفات المادة ما يجعل الجنّ مطّلعاً على صفات المادة ، ولكن دون أن يستقرّ في عالمها ، ودون أن يُدرك - إدراك يقين - الجزئيات الماديّة التي تُدركها نحن في عالم الدنيا ..

[٥] - كائنات تتفاعل مع الكليات دون أيّ علمٍ أو إدراكٍ أو اطلاعٍ على الجزئيات ، وهي الأنفس الإنسانيّة المجردة عن المادة ..

.. من هنا نرى أن إدراك النفوس البشريّة (التي اختارت حمل الأمانة) للكليات (إدراكاً ليس كاملاً كإدراك الملائكة) ، دون إدراكها للجزئيات التي سيتمّ الامتحان في ساحتها ، والذي انطلقت منه في اختيارها لحمل الأمانة ، هو الجهل الذي وصفه الله تعالى للإنسان (النفس) الذي اختار حمل الأمانة ، وهو ما جرّ الإنسانُ به الظلمَ على نفسه ، حينما أخطأ بتقديره واعتقد أن امتلاكه القدرة على إدراك الجزئيات والتفاعل معها ، سيؤدّي - حتماً - إلى ما يريد الله تعالى ..

.. فالأمانة المعروضة هي أنّه إذا تمّ امتلاك القدرة على إدراك الجزئيات والتفاعل معها بإرادة مستقلة ، أن يقوم المؤمنُ بدفعها باتجاه ما يريد الله تعالى ، وأن ينطلق من هذه الجزئيات إلى كليّات لا تخرج عن منهج الله تعالى .. أي إذا سُخِّرَت المشيئة بين يدي الممتحن ألاّ يعمل بها إلاّ وفق مُراد الله تعالى ..

.. ومما يؤكّد ذلك أنّ الله تعالى - وبعد أن اختار الإنسان (النفس) حمل الأمانة - أخذ العهد والميثاق من جميع الأنفس البشريّة ، بأنّه سيُنزل البشر إلى عالم المشيئة (عالم الجزئيات) ، ليمتحنهم عبر أجساد مادّيّة ، يتوالدون بها من ظهور بعضهم بعضاً ، وأنّ غرقهم في هذا العالم المادّي ، وفي التفاعل مع الجزئيات ، يجب ألاّ يجعلهم في غفلة عن الأمانة التي تمّ تعهدهم بحملها ..

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۗ شَهِدْنَا ۗ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف :

[١٧٢ - ١٧٤]

.. الله تعالى يقول ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ، ولم يقل (وإذ أخذ ربك من آدم من ظهره ذريته) .. فالظهور ظهور بني آدم دون استثناء .. وسواءً كانت كلمة ﴿ ظُهُورِهِمْ ﴾ تعني - كما هو معروف - أصلاهم ، أم كانت تعني الظهور الجسدي المادّي في الحياة الدنيا .. فالمعنى لا يتعارض ، بل يتكامل في تفسير هذه الصورة القرآنيّة ..

.. إذا الامتحان في حمل الأمانة التي اختار الإنسان (النفس) حملها ، يقتضي نزول النفس البشريّة في جسد مادّي ، لإدراك الجزئيات ، حتى يكون الإنسان وصياً على تفاعله مع الأسباب ، وليملك المشيئة ..

.. ونزول النفس البشرية المجردة إلى عالم الجزئيات من أجل امتحانها ، هو في الحقيقة جعل الإنسان خليفةً لله تعالى على عالم المادة والأسباب (عالم الجزئيات) .. فقد أخبر الله تعالى الملائكة بأنه سيجعل له خليفةً في الأرض على جزئيات هذا العالم الماديّ المحسوس ..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ اِنِّيْ جَاعِلٌ فِي الْاَرْضِ خَلِيْفَةً ۗ قَالُوْۤا اَتَجْعَلُ فِيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيْهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ اِنِّيْۤ اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْاَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰئِكَةِ فَقَالَ اَنْبِئُوْنِي بِاَسْمَآءِ هٰٓؤُلَآءِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿٣١﴾ قَالُوْۤا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا بِاِلٰهٍ اِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۗ اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّخِذُمْ اَنْبِيَآءَهُمْ بِاَسْمَآئِهِمْ ۗ فَلَمَّا اَنْبَاَهُمْ بِاَسْمَآئِهِمْ قَالَ اَلَمْ اَقُلْ لَّكُمْ اِنِّيْۤ اَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاَعْلَمُ مَا تُبْدُوْنَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُوْنَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰئِكَةِ اسْجُدُوْۤا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْۤا اِلَّا اِبٰلِيسَ اَلْبٰى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ﴿٣٤﴾ [البقرة : ٣٠ - ٣٤]

.. إن الخليفة من يخلف غيره ، يأخذ القوامة على موضوع الخلافة .. والبشر كانوا حتى تلك اللحظة أنفساً مجردةً عن عالم المادة ، وبالتالي ليسوا خلفاء على عالم الجزئيات .. فقوله تعالى للملائكة ﴿ اِنِّيْ جَاعِلٌ فِي الْاَرْضِ خَلِيْفَةً ۗ ﴾ يدلّ على أنّ الخلافة - حتى تلك اللحظة - لم تبدأ بعد ..

وفي تعلق هذه المسألة بصفة الربوبية ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ اِنِّيْ جَاعِلٌ فِي الْاَرْضِ خَلِيْفَةً ۗ ﴾ ، حيث كلمة ﴿ رَبُّكَ ﴾ واضحة جليّة في ذلك .. في هذا التعلق بيان أنّ موضوع الخلافة هو في ساحة الأسباب (المادة والمكان والزمان) ..

.. إذاً موضوع الخلافة هو ذاته موضوع حمل الأمانة التي عُرضت على السماوات والأرض والجبال ، وهو امتلاك القدرة على تسخير الأسباب ودفعها باتجاه المراد ..

.. وقوله تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ ﴾ ، يعني خلافة الإنسان (نفس + جسد) لله تعالى في الأرض .. فامتلاك الجزئيات ، والعقل الذي يربط بين هذه الجزئيات وبين الكلّيات (امتلاك الإرادة والمشئمة معاً) ، لم يُعطَ لمخلوق غير الإنسان ، هذا إضافة إلى أنه لا يُوجدُ أيُّ ذِكْرٍ لأيِّ مخلوقٍ يخلفه الإنسان في سياق هذا النصّ ، ولذلك .. لا يُبرّر لبعضهم توهمه بأن هذه العبارة القرآنيّة تعني خلافة الإنسان لمخلوقٍ آخر ..

وقوله تعالى ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ دليلٌ آخر على أنّ موضوع الخلافة التي سيعطيها الله تعالى للإنسان (نفس + جسد) ، هو هذه الأسباب المسخّرة بين أيدينا .. فسواءً الفساد أم سفك الدماء ، هما مسألتان مادّيتان ساحتهم هذا العالم المادّي المحسوس ، فليس من المعقول أن يُفسد الإنسان ويسفك الدماء خارج إطار ساحة المادّة والمكان والزمان ..

.. ومرتبة الوجود التي تمّ فيها الحوار بين الله تعالى وبين الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ هي - كما رأينا في النظرية الثانية (القدر) - خارج إطار المادّة والمكان والزمان ، وفي هذه الحالة لا غطاء للزمن ، لأنّ الزمن وليدُ المادّة وحركتها .. ولذلك رأت الملائكة ما يحصل الآن من فسادٍ ومن سفكٍ للدماء ، نتيجة رفع الله تعالى عنها غطاء الزمن المستقبل ، فقالت على سبيل الاستفسار لا الاحتجاج ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ..

وفي هذه المرتبة من الوجود حيث الأنفس البشريّة مجردة عن عالم المادّة والمكان والزمان ، فإنّ آدم (النفس) لم يكن يعلم من صفات عالم الجزئيات (موضوع

خلافة الإنسان لله تعالى (شيئاً ، وكذلك الملائكة التي تدرك الكليّات ولا تدرك الجزئيّات .. وكذلك كلُّ المخلوقات ، لأنّ امتلاك العقل لإدراك الجزئيّات والانطلاق من هذا الإدراك نحو الكليّات ، خاصٌّ - من بين المخلوقات - بالإنسان (نفس + جسد) ، وهذا هو عطاء الله تعالى لمن سيّجعله خليفة له في الأرض ..

.. ولذلك هيّا الله تعالى آدم النفس (قبل حلول هذه النفس في الجسد) لهذه الخلافة .. فعلمه صفات الأشياء وخواصّها وميزاتها **﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾** ..
وحيثما يقول الله تعالى **﴿ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾** ، فهذا يعني الأسماء كلّها ..

.. ولما كان هذا التعليم في عالم الأنفس المجرّدة ، ما فوق عالم المادّة والمكان والزمان ، فإنّه بإلهام من الله تعالى دون أيّ زمنٍ .. فبلازم تعلّم آدم (النفس) صفات كلّ الأشياء وخواصّها (مسمّيّاتها) .. ومن هنا ورث العقل البشري إمكانيّة تعلّم خواصّ المادّة والتفاعل معها ، وإمكانيّة تسخيرها وفق مُراد النفس البشريّة ..
وقد رأينا في النظرية الخامسة (إحدى الكبر) كيف أنّ الأسماء التي علّمها الله تعالى لآدم عليه السلام في هذه المرتبة من الوجود ، هي ذاتها المفردات القرآنيّة ، التي يقع تحت ما تصفه وتسميه كلّ شيءٍ في هذا الكون ، وذلك من منظار الوصف الحقّ الذي يعلمه الله تعالى ، حيث برهنّا - عبر برهانٍ رياضيٍّ - أنّ واحدة المعنى في القرآن الكريم هي الحرف وليس الكلمة ، وهذا ما كان ليكون إلّا إذا كانت المفردة القرآنيّة فطريّة موحاة من الله تعالى ..

.. وعلى الرغم من إلهام الله تعالى لآدم عليه السلام بتعليمه هذه الأسماء ، فإنّ آدم في هذه المرحلة لم يكن نبياً ولا رسولاً ، فهو - آنذاك - آدم النفس المجرّدة ، خارج إطار حمل أمانة التكليف المعروضة ..

.. وقوله تعالى **﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾** بيّن لنا أنّ الله تعالى عرض على الملائكة الأشياء (أصحاب الأسماء) التي علّم أسماءها لآدم عليه السلام .. وفي هذا دليلٌ آخر على أنّ موضوع خلافة

الإنسان لله تعالى هو القوامه على هذه الأشياء ، بغية تسخيرها ودفعها باتجاه مُراد الحقّ .. وفي هذا دليلٌ آخر - أيضاً - على أنّ الله تعالى رفع غطاء الزمن المستقبل ، فرأت الملائكة الأشياء التي ستكون حتى قيام الساعة ، والتي منها أعمالُ الفساد وسفك الدماء ، التي استفسرت عنها الملائكة ، حيث قالت ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ ..

.. وقوله تعالى ﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ ، يبيّن لنا عجز الملائكة عن إدراك الجزئيات (موضوع الخلافة وموضوع حمل الأمانة) ، وبالتالي يبيّن لنا عدم قدرة الملائكة على إدراك صفات الأشياء ، وأنّ علم الملائكة وإدراكها هو للكليات ، وبتعليم مباشر من الله تعالى ..

وقوله تعالى ﴿ **قَالَ يَتْلُوا آيَاتِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ يؤكد لنا - من جديد - أنّ امتلاك معرفة صفات الأشياء ، والتفاعل مع الجزئيات للانطلاق منها - عقلاً - نحو الكليات ، هو موضوع الخلافة التي أعلمها الله تعالى للملائكة ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ ..

.. والعبارة القرآنية ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ تبين لنا كشفَ غطاء غيب الزمن المستقبل أمام الملائكة ، حينما رأت أصحاب المسميات التي أعلمها الله تعالى لآدم عليه السلام ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ** ﴾ ، فما سيكون من أشياء ، ومن تفاعلٍ للبشر مع هذه الأشياء ، هو غيبٌ لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولو لم يرفع الله تعالى عن الملائكة غطاء غيب الزمن المستقبل ، لما رأت ذلك ..

ودليلٌ آخر على أنّ أمانة التكليف التي عُرضت وحملها الإنسان (وكذلك خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض) ، هي امتلاك القدرة على التفاعل مع الأسباب (الجزئيات) ، أنّ الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام بعد تسويته جسداً كاملاً حياً (نفس + جسد) ، وبعد نفخ الصلة والقربى من الله تعالى (الروح) فيه ، وليس قبل ذلك ..

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩]

.. فَحَمَلُ الأمانة المعروضة أدّى إلى الخلافة ، والخلافة والامتحان في حمل الأمانة بدأ بعد هبوط النفس البشريّة إلى عالم المادّة ، وبعد الدخول في الجسد ..
.. والأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ، والذي هو أمرٌ لهم بالسجود بعد نفخ الروح فيه (في آدم) ، كان قبل معصية آدم عليه السلام ..
وبالتالي قبل خطيئته التي هبط بها وخرج بها من الجنة ..

فأولُ امتحان لخليفة الله تعالى في الأرض ، أختبر له آدم عليه السلام ، في جنّة الاختبار .. ونهَى اللهُ تعالى لآدم عليه السلام ولزوجه بعدم الأكل من الشجرة التي حدّدها لهما ، هو في الحقيقة امتحانٌ في ساحة المادّة والأسباب (عالم الجزئيات) ..
والقول بأنّ الله تعالى جعل الإنسان خليفةً له في عالم الأسباب عبر عطاء الربوبيّة له ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ بتمكينه من السيطرة على الأسباب المحيطة به ، وجعله قوَّاماً عليها ، ودفعها باتجاه مراده ، هذا القول لا يعني أبداً غياب قِيوميّة الله تعالى في الأرض .. أبداً .. فما أعطاه الله تعالى للإنسان في إطار هذه الخلافة هو التصرّف بالأسباب المحيطة بالإنسان تصرّفاً مستقلاً وفق ما يريد الإنسان ، بمعنى الاستفادة من النواميس الماديّة والتصرّف بها ودفعها باتجاه مراد الإنسان ، وهذا ما لم يعطه الله تعالى لأيِّ مخلوقٍ آخر ، كما بيّنا ..

وهذه الكلمة ﴿ خَلِيفَةٌ ﴾ ، وردت مرّةً أخرى في كتاب الله تعالى لتصف ما أعطاه الله تعالى لداود عليه السلام من صلاحية في التصرّف للحكم بين الناس .. ﴿

يَندَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿ص: ٢٦﴾ .. فقوله تعالى ﴿يَندَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ يصف مسألة يتميّز بها داود عن غيره من البشر ، وهذا ينفي أن تكون كلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ في هذه العبارة القرآنية تعني خلافة الذرية ، فكلُّ البشر (وليس داود لوحده) يخلفون بعضهم فوق هذه الأرض ..

إذا .. كلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ لا يمكن الجزم بأنها لا تعني إلا خلافة الإنسان لنفسه ، بمعنى أحيال يخلف بعضها بعضاً .. فهذه الكلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ تأتي في مرّتي ورودها في القرآن الكريم بصيغة المفرد ، وضمن سياق قرآني يصوّر خصوصيّة لم تكن سابقاً قبل الخلافة المعنوية ، فخطاب الله تعالى للملائكة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ، وخطاب الله تعالى لداود عليه السلام ﴿يَندَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ ، هما خطابان خاصان ليسا موجّهين إلى البشرية جمعاء أو إلى أقوامٍ منها ، وهما خطابان يصوّران لنا عطاءً من الله تعالى للتصرف بما يعود التصرف به إلى الله تعالى ، ولكن دون يُلغى ذلك قيومية الله تعالى .. فكلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ مشتقة من الجذر اللغوي (خ ، ل ، ف) ، وفي ذلك بيانٌ أن هذه الخلافة هي خلفَ قيومية الله تعالى في هذه الأرض ، وليست على حسابها ..

وفي هذه النقطة علينا أن نتميّز بين دلالات كلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ من جهة ، تلك الكلمة التي لا ترد في كتاب الله تعالى إلا في هذين الموضعين ، وبين دلالات كلمتي ﴿خَلِيفٍ﴾ ، ﴿خُلَفَاءَ﴾ [، من جهةٍ أُخرى ، واللّتين تردان في كتاب الله تعالى

بصيغة الجمع ضمن سياق قرآني موجهة للبشرية ولأقوام منها ، ليصور خلافة الأجيال لبعضها بعضاً ، وذلك عبر دلالات صريحة ، تختلف تماماً عن الدلالات الخيطة بكلمتي ﴿ خَلِيفَةٌ ﴾ في النصين القرآنيين الحاملين لها ..

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٦٥]
 ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۗ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادْنَا فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۗ فَأَذْكُرُوا لَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩]

﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَا فِي الْأَرْضِ تَوَّخُذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۗ فَأَذْكُرُوا لَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٤]

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٤]

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَعْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۗ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴾ [يونس : ٧٣]
 ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢]

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ۗ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۗ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۗ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [فاطر : ٣٩]

.. ولو فرضنا - جدلاً - أن كلمة ﴿ خَلِيفَةٌ ﴾ في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ تعني خلافة الإنسان للإنسان ، فلماذا - إذاً - قالت الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ مقارنة ذلك بتسبيحها لله تعالى وتقديسها له ﴿ وَخَنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ؟ .. ولماذا علم الله تعالى آدمَ الأسماءَ كلها وعجزت الملائكة عن الإنباء بهذه الأسماء ؟ .. ولماذا أمرت الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام بعد نفخ الروح فيه ؟ .. ولماذا أُحْتِصَّ الإنسانُ من بين جميع المخلوقات في هذا الكون بالإرادة والمشية معاً ؟ .. كل ذلك يدل على أن الإنسان أُعطي صلاحية التصرف بالأسباب والقدرة على دفعها باتجاه مراده ، ضمن عطاءٍ خاصٍّ يميّزه عن غيره من المخلوقات ، هو عطاء الربوبية الذي جعل الإنسان فيه خليفةً لله تعالى في هذه الأرض ..

.. والجنة التي أختبر فيها آدم وزوجه ، ليست جنة الثواب التي يدخلها الصالحون في الآخرة ، وذلك للأسباب التالية :

- ١ - آدم عليه السلام في جنة الاختبار هذه ، لحقه الغرور بقول إبليس (الشيطان) : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّكِدُمْ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ [طه : ١٢٠] .. وبالتالي لا خلد في هذه الجنة .. بينما جنة الآخرة هي جنة الخلد كما يؤكّد القرآن الكريم ..
- ٢ - جنة الخلد في الآخرة من دخلها لا يخرج منها ، كما يؤكّد القرآن الكريم : ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : ٤٨] .. بينما جنة اختبار آدم عليه السلام وزوجه ، تمّ خروج آدم وزوجه منها ..
- ٣ - جنة الثواب في الآخرة لا يتمّ الدخول إليها إلا كجزاءٍ لعملٍ قام به الداخل إليها ، كما يؤكّد القرآن الكريم : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [

النحل : ٣٢] .. ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف :
٧٢] .. بينما نرى أن آدم عليه السلام وزوجه دخلا جنة الاختبار قبل قيامهما بأي
عمل ..

٤ - سنرى - إن شاء الله تعالى - في الفصل الرابع ، أن جنة الآخرة ، لم
تُخلق بعد ، خلقاً مادياً حسيّاً ، وهذا ينفي أن تكون جنة الاختبار (التي دخلها آدم
عليه السلام وزوجه) هي ذاتها جنة الآخرة ..
.. ودليل آخر على أن ساحة الخلافة وساحة الأمانة المعروضة ، هي ساحة
المادة والأسباب ، أن هبوط آدم وزوجه من جنة الاختبار ، هو هبوط في الهيئة
والخلقة (في ماهية الجانب الجسدي) .. فآدم وزوجه قبل الأكل من الشجرة التي
نهاهما الله تعالى عنها ، كانا لا تبدو لهما سوءاتهما ، وبدت لهما سوءاتهما بعد الأكل
من تلك الشجرة ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ [الأعراف : ٢٢] ..
فساحة الاختبار (الجنة التي أمتحن فيها آدم وزوجه) مادية ، وعنصر الامتحان (
الشجرة) ماديّ ، والنتيجة (الهبوط في ماهية الخلق وصفات الجسد) مادية ..
.. فنتيجة لمعصية آدم عليه السلام وزوجه في جنة الاختبار ، حيث ذاقا الشجرة
التي نهاهما ربهما عنها .. نتيجة لذلك ، تغيرت الماهية الجسدية لهما ، فبدت لهما
سوءاتهما ..

﴿ فَذَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ ۖ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۗ ﴾ [الأعراف : ٢٢]

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۗ
وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۗ ﴾ [طه : ١٢١]

.. وفي العبارة القرآنية ﴿ فَذَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ ، نرى أن كلمة ﴿ فَذَلَّلَهُمَا ﴾
هي من الجذر اللغوي (د ، ل ، و) ، وليس من الجذر (د ، ل ، ل) ، وهذا

يُوكِّدُ صِحَّةَ ما نذهبُ إليه في وصفِ ماهيةِ الهبوطِ الذي تمَّ لِآدَمَ عليه السلامِ وزوجهِ .. فالدلالاتُ المجرّدةُ للجذرِ اللغوي (د ، ل ، و) في القرآنِ الكريمِ تحملُ معنى الهبوطِ ، سواءً كان ذلك في الجانبِ المادّي أم المعنوي :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا

فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٨]

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ^ط قَالَ يَبِئْسَ رِجْلٌ هَذَا غُلْمٌ^ع

وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً^ع وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف : ١٩]

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا

أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ٨ - ١٠]

.. فبواسطة الغرور ﴿ بَغْرُورٍ^ع ﴾ ، هبط الشيطانُ بِآدَمَ عليه السلامِ وزوجهِ إلى

المعصية ﴿ فَدَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ^ع ﴾ ، وبالتالي ذاقا الشجرةَ وهبطا كقيمةِ جسديّةٍ .. هذا

ما نقرؤه من كَوْنِ كلمةِ ﴿ فَدَلَّلَهُمَا ﴾ المتفرّعة من الجذر اللغوي (د ، ل ، و) ،

في الآيةِ الكريمةِ : ﴿ فَدَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ^ع فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا

وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ^ط ﴾ [الأعراف : ٢٢]

.. وهكذا .. لو لم يعص آدمُ عليه السلامِ وزوجهُ أمرَ الله تعالى ، لما تغيّرت

الماهيةُ الجسديّةُ له ولزوجه ، ولما هبطت عن قيمتها التي كانت عليها ، بمعنى لما بدت

لهما سوءاتهما ..

.. ولمعرفة معنى هبوط القيمةِ الجسديّةِ لِآدَمَ وزوجه - نتيجة هذه المعصية -

وبالتالي لمعرفة معنى الهبوطِ الجسدي لبني آدم في حياتهم الدنيا ، لنقارن بين إنسانٍ لا

يغتسل ولا يقلم أظافره ولا يخلق شعرة ولا يقوم بأيّ نوعٍ من أنواعِ النظافة ..

لنقارنه مع حيوانٍ ما ((لا يقوم بطبيعة الحال بكلّ هذه الأعمال لأنّ ماهية جسده

ليست بحاجة إلى كل ذلك)) .. سنجد في هذه المقارنة أن جسد الإنسان أكثر هبوطاً من غيره ..

.. إذاً هذا الجسد الإنساني الهابط (حيث الأمراض التي تصيب الجسد الإنساني أضعاف الأمراض التي تصيب أي حيوان) ، وهذه الأعضاء التناسلية بماهيتها الدنيوية ، إنما نشأت نتيجة تلك المعصية .. وبالتالي فإن أكمل جسد بشري خلقه الله تعالى هو جسد آدم عليه السلام (قبل المعصية والهبوط) ..

.. وهذه المعصية وهذا الهبوط ، نتيجته الخروج من جنة الاختبار تلك .. ونتيجته التوالد من خلال الأعضاء التناسلية التي ظهرت نتيجة تلك المعصية فأكمل جسد بشري خلقه الله تعالى (جسد آدم قبل المعصية) لم يأت من خلال توالد عبر أعضاء نتجت عن تلك الخطيئة ، إنما كان نتيجة خلق الله تعالى له مباشرة من التراب ..

.. وهذه السنّة الإلهية ، وهذه الفلسفة القرآنية المطلقة ، ناموس ثابت لا يتغير ولا يتبدل ﴿ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر : ٤٣] .. فالكمال الجسدي لجسد آدم عليه السلام (قبل المعصية) ، وهبوط القيمة الجسدية له - ولذريته - نتيجة تلك المعصية .. هذا الناموس الإلهي ، نقرؤه في ماهية خلق جسد عيسى عليه السلام .. حيث هذا الجسد وعاءً لنفس تتميز عن باقي الأنفس البشرية بأنها وُلدت مليئة بالروح ..

﴿ يَتَأَهَّلَ الْكَتَبُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١]

.. فقولته تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ ، يُبين لنا أن نفس عيسى عليه السلام مليئة بالروح منذ ولادتها ، وهذه صفة تتميز بها نفس عيسى عليه السلام عن باقي البشر

دون استثناء .. ولذلك وُلد عليه السلام نبياً ، وآتاه الله تعالى الكتاب في ذات اللحظة التي نُفِخَ رُوحُه في مريم عليها السلام ..

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۗ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهَدِ صَبِيًّا ۗ ﴾ قَالَ إِنْ

عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِى الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿ [مريم : ٢٩ - ٣٠]

.. هذا الكمال النفسى ، يقتضى - حسب الناموس الإلهي - جسداً مختلفاً عن الأجساد التي تُولد نتيجة أعضاء تناسلية ، ظهرت نتيجة معصية أبينا آدم عليه السلام في الجنة ..

.. ولذلك فجسدُ عيسى عليه السلام لم يُخلق من اجتماع نطفةٍ مع بويضة كباقي البشر .. وهو في ذلك كمثلِ خلقِ جسدِ آدمَ عليه السلام ..

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۗ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ ﴿ [آل عمران : ٥٩]

ومريم عليها السلام لم تحمل بعيسى عليه السلام كباقي الإناث ، فمدّة الحمل لم تتجاوز فترةً محدودة ، وفي تنالي فاء التعقيب في النصّ القرآني التالي ، إضافة إلى البيان الإلهي أنّ خلق جسد عيسى عليه السلام كمثلِ خلقِ جسدِ آدمَ عليه السلام .. في ذلك أكبر برهان على صحّة ما نذهب إليه ..

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِء مَكَانًا قَصِيًّا ۗ ﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ

النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّوْسِيًّا ۗ ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا

تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبِّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿ [مريم : ٢٢ - ٢٤]

وحق مريم عليها السلام ، كانت لها خصوصيتها التي تميّزها عن باقي الإناث ، فقولته تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ الذي يتوسّط تصويرَ الله تعالى لقول أمها حين وضعها : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ

وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۗ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ [آل عمران : ٣٦] .. هذا القول : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ ، إضافة إلى قول الملائكة لها : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] ، يُؤكّد تميّزها عن باقي النساء ، ويؤكّد طهارتها - كأنتى - ويؤكّد أنّها لا تحيظ كباقي النساء ((حيث الحيض نقيض الطهارة ، وهي طاهرة دائماً)) .. وبالتالي يُؤكّد - إضافة لما بيّنا - أنّها ليست أكثر من حامل لعيسى عليه السلام ساعات محدودة ..

وحتى جسدها عليها السلام ، فقد أنبته الله تعالى نباتاً حسناً من خلال رزق خاصّ رزقها إياه الله تعالى ، وكان ذلك نتيجة أن تقبلها الله تعالى قبولاً حسناً ، حيث أعادها وذريتها من الشيطان الرجيم ..

.. فكونُ الله تعالى أعادها وذريتها من الشيطان الرجيم ، وهياها لتحمل جسداً يحمل نفساً مليئةً بالروح (عيسى عليه السلام) ، اقتضى - حسب الناموس الإلهي - أن يُنبئها نباتاً حسناً ، وأن يُميّزها - عليها السلام - عن باقي نساء البشر ، بماهيّة جسديّة ونفسية ..

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۗ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۗ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۗ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا ۗ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٦ - ٣٧]

.. فالرزق الذي رزقها إياه الله تعالى ، والذي له ماهيته المختلفة عن رزق الدنيا الذي يأكلُ منه أفرادُ جيلها ، له تعلقه بكونها متميّزة عن باقي النساء (كما رأينا) ،

وبكونها مهيأةً لحمل عيسى عليه السلام ، كجسد - نعني جسد عيسى عليه السلام - خلقه الله تعالى من التراب دون آليّة جنسيّة ودون اجتماع النطفة مع البويضة ، وكنفس - نعني نفس عيسى عليه السلام - مليئة بالروح ، آتاها الله تعالى الكتاب في ذات اللحظة التي نُفِخَ فيها روح عيسى في مريم عليهما السلام ..

.. ومما يُشيرُ إلى أنّ الرزقَ الذي رزقها إياه الله تعالى ، هو تهيئةً لحمل عيسى عليه السلام ، وأنها كانت - قبل ولادة عيسى عليه السلام - لا تأكل إلاّ من ذلك الرزق ، أنّها بعد أن جاءها المخاض ، وفي الوقت الذي نادها^(*) عيسى عليه السلام من تحتها ، قال لها : ﴿ فِكْلِي وَأَشْرِي وَقَرِي عَيْنًا ۗ ﴾ :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۗ ﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۗ ﴿٣٣﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۗ ﴿٣٤﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطْبًا جَنِيًّا ۗ ﴿٣٥﴾ فِكْلِي وَأَشْرِي وَقَرِي عَيْنًا ۗ ﴿٣٦﴾ فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۗ ﴿٣٧﴾ [مريم : ٢٢ - ٢٦]

(*) - بينا في النظرية السادسة (سُلم الخلاص) وفي كتاب : المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) أنّ الذي نادى مريم عليها السلام من تحتها هو عيسى عليه السلام ، وذلك بأكثر من معيار .. من هذه المعايير أنّ مجموع الكلمات التي قيلت لها من تحتها هو (٣٣) كلمة ، وهذا يُقابل عدد سني لبث عيسى عليه السلام قبل أن يرفعه الله تعالى إليه ..

﴿ أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۗ ﴾ ﴿٣٤﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطْبًا جَنِيًّا ۗ ﴿٣٥﴾ فِكْلِي وَأَشْرِي وَقَرِي عَيْنًا ۗ ﴿٣٦﴾ فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۗ ﴿٣٧﴾ [مريم : ٢٤ - ٢٦] = ٣٣ كلمة ..

.. فأكلها لطعامٍ يختلف عن الرزق الذي يأتيها من عند الله تعالى ((كتهيئة لحم عيسى عليه السلام)) هذا الطعام المختلف عن الرزق الذي آتاه إياه الله تعالى : ﴿ وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۗ فَكُلْ وَاشْرَبْ وَقَرِّ عَيْنًا ۗ ﴾ ، يُساعد في خروج عيسى عليه السلام من فرجها .. فمهمتها التي هيئت لها ، والتي لها تعلّقها بالرزق الذي يأتيها من عند الله تعالى ، قد انتهت عند المخاض حيث ولادة عيسى عليه السلام ..

.. ومريم عليها السلام تُفخ فيها من الروح (بمعنى الصلة والمدد والقربى من الله تعالى) كونها أحصنت فرجها ..

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩١]

.. إن كلمة ﴿ فِيهَا ﴾ في قوله تعالى ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ تعود إلى التي أحصنت فرجها ، وبالتالي تُؤكّد أنّ الروح - المعني هنا - تُفخ في نفس مريم عليها السلام ، بمعنى أنّ الله تعالى أعطاه الصلة والمدد والقربى منه حلّ وعلا كونها أحصنت فرجها .. وهذا الروح الذي تُفخ في نفس مريم عليها السلام ، هو أمرٌ آخر غير الروح الذي تُفخ في فرجها والذي يتعلّق بعيسى عليه السلام ..

.. بينما في قوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٢] .. فإنّ نفخ الروح - هنا - يعني نفخ عيسى عليه السلام (كنفس مليئة بالروح) في فرج مريم عليها السلام .. فكلمة ﴿ فِيهِ ﴾ في قوله تعالى ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ تُؤكّد أنّ النفخ في فرج مريم عليها السلام ، وليس في ذاتها ، كما هو حال نفخ الروح في الآية السابقة ..

وما نراه أنّ اسم مريم يرد صراحةً في العبارة القرآنيّة المصوّرة لنفخ عيسى في فرجها : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا أَنْ تُحْبِسَ وَكَانَ مِنْ الْقَنِيَتِينَ ﴾ [التحریم : ١٢] .. فهذه القصّة لن تتكرّر ولا بأيّ شكل ، فلا يمكن لأنثى أن تلد دون رجل إلاّ مريم عليها السلام ، ولذلك نرى أنّ الاسم ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ﴾ يتصدّر هذه العبارة ..

بينما لا نرى ورود اسم مريم عليها السلام بشكلٍ صريحٍ في العبارة المصوّرة لنفخ الروح في ذاتها ، بمعنى إعطائها من الصلة والمدد الإلهي (الروح) كونها أحصنت فرجها : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩١]

فلهذه الحالة إسقاطات نسبيّة في كلّ زمانٍ ومكان ، فكلُّ طفلةٍ بريئةٍ تُحصن فرجها ، تحصل على مدد الله تعالى وقربه ، وتزداد كميّة الروح فيها ، بنسبة تتناسب ودرجة الإحصان والخلاص والنقاء التي وصلت إليها صحيحٌ أنّه لن تصل أنثى - في التاريخ - إلى الدرجة التي وصلت إليها مريم عليها السلام ، ولكن هناك إسقاطات نسبيّة لهذه الحالة تتكرّر في كلّ زمانٍ ومكان ، ولذلك نرى العبارة القرآنيّة المصوّرة لهذه الحالة غير حاوية على اسم مريم عليها السلام كما هو الحال في العبارة السابقة ..

ونرى حكمةً عظيمةً في كون خلق جسد عيسى عليه السلام من التراب مباشرة ، دون نطفةٍ وبويضةٍ كباقي البشر ، وذلك من عدّة منازير :

١ - نفس عيسى عليه السلام الممتلئة بالروح والتي لا تعرف الخطيئة ، والتي تتميز - بذلك - عن أنفس جميع البشر ، لا بدّها لها من جسدٍ (وعاءٍ) خلق دون أعضاءٍ نتجت عن الخطيئة ، ولذلك كان جسد عيسى عليه السلام دون نطفةٍ وبويضةٍ ، ودون آليّةٍ جنسيّةٍ ناتجةٍ عن الخطيئة الأولى ..

٢ - إن امتلاء النفس بالروح يعني أنها ستترك الجسد الدنيوي الهابط [أجسادنا التي تتوالد من أعضاء نتجت عن الخطيئة الأولى] وتخرج إلى الله تعالى ، كما حصل في معراج النبي ﷺ ، حيث عرج ﷺ إلى الله تعالى حينما امتلأت نفسه (وقت العروج) روحاً .. ونفس عيسى المليئة بالروح دائماً ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ لا بد لها من جسدٍ مميزٍ مختلفٍ عن أجسادنا حتى تبقى مستقرّةً في عالم الدنيا ، وإلاّ فستترك جسدها وتخرج إلى الله تعالى .. لذلك كان جسد عيسى عليه السلام بخصوصيته التي بيّنها لنا القرآن الكريم ..

٣ - جسد عيسى عليه السلام بهذه الخصوصية المميزة عن أجساد باقي البشر ، ضرورة لا بد منها لمعرفة هويته عليه السلام في نزوله الثاني ، ففي نزوله الثاني يتمّ التعرف عليه عبر خصوصية جسده المختلفة ، وبناء على ذلك يؤمن به كلُّ أهل الكتاب في نزوله الثاني وقبل موته ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء : ١٥٩] .. وقد بيّنا ذلك بشكلٍ جليٍّ في كتاب المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ..

.. إذاً .. ناموس الله تعالى لا يتبدّل ولا يتغيّر ، فبعد خطيئة آدم عليه السلام هبط جسده إلى ماهية أدنى ممّا كان عليه ، وبعد أن تاب الله تعالى عليه واجتباها ، بعد ذلك أتته النبوة ..

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ هُمَا سَوْءَئُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه : ١٢١ - ١٢٢] .. فالنبوة لا تكون إلاّ في دار التكليف والامتحان ، وهي دار خلافة الإنسان لله تعالى على هذه الأرض ..

.. وهكذا .. فنتيجةً للامتحان الأوّل في حنة الاختبار الماديّة ، يتمّ هبوط جميع الأنفس البشريّة إلى عالم الامتحان (عالم الجزئيات) في أجسادٍ بشريّةٍ أدنى خلقاً من

ماهية جسد آدم وزوجه قبل هبوطهما .. فوجٌ يدخل دنيا الامتحان بالميلاد ، وفوجٌ يخرج منها بالموت ، وهكذا في كل لحظة حتى قيام الساعة ..

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨]

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى

فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ [طه : ١٢٣ - ١٢٤]

.. فعمر الإنسان هو في الحقيقة فترة امتحانه لحمل الأمانة التي اختار حملها في عالم الأنفس ، وهو في الحقيقة فترة خلافته لله تعالى في الأرض .. فلو لم يختتر - الإنسان - حمل الأمانة ، لما كان خليفة لله تعالى في هذه الأرض ، وبالتالي لما وُلد في هذه الدنيا في جسد حيٍّ .. من هنا نرى أن وجودنا في هذا العالم المادي المحسوس ، لنا فيه وجهٌ من أوجه الاختيار ..

.. والنفس البشرية حينما تعلم شيئاً ما من جزئيات هذا العالم ، لا بد لها من تصوّر هذا الشيء زماناً ومكاناً .. وفور نزول هذه النفس إلى عالم الدنيا تكون غير مالكة للتصوّر المكاني والزمني للأشياء ، ومع الزمن تُكوّن ألياًها لعلم الأشياء ، عن طريق تكامل إدراكها لتصوّر الإطار الزمني والمكاني المحيط بالأشياء .. هذه الحقيقة نراها واضحة في الصورة القرآنية التالية ..

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨]

.. وكنا قد بينا أن وَضَعَ اللهُ تعالى لكلمة ﴿ شَيْئًا ﴾ دون كلمة (أمراً) في

هذه الآية الكريمة : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ،

يصفُ الإنسانَ حينما يخرج من بطن أمه بأنه لم يكن - حين ذلك - يعلم أيَّ شيءٍ من جزئيات عالم الحس والمشية ، تلك الجزئيات التي يُطلق عليها اسمُ الأشياء ، حيث تنتمي إلى عالم الخلق ..

بينما الفطرة النقية الناتجة عن نفخ الروح في كلِّ مولود ، فإنها غير مشمولة بكلمة ﴿ شَيْئًا ﴾ ، كونها لا تنتمي إلى عالم الأشياء ، أي لا تنتمي إلى عالم الخلق .. فهي تنتمي إلى عالم الأمر ، كما يُبين لنا اللهُ تعالى ..

﴿ وَدَسَّأْتُنَاكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِّ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا

قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥]

.. ولذلك نرى أن النفسَ - في الحياة الدنيا - لا يمكنها الوقوف على حقيقة الأمور المحرّدة عن المادّة ، ولا تصوّرها إلّا بعد أن تُلبسها ثوبَ المادّة والمكان والزمان .. فهل يمكننا أن نتصوّر أيّ عدد كحقيقة مجردة ؟ .. لا يمكننا ذلك ، وكلُّ تصوّراتنا له أن نتصوّر مجموعةً من الأشياء المادّية ، عدد واحدتها يساوي هذا العدد ..

.. فالحقائق التي لا تنتمي إلى هذا العالم المادّي ، لا يمكننا الوقوف على حقيقتها وقوفاً كاملاً ، ولا تصوّرها تصوّراً حقيقياً ، وذلك في عالم الدنيا هذه ، لأنّ أنفسنا - في الحياة الدنيا - تصل إلى الكليات عن طريق إدراك الجزئيات وتعقلها .. والحقائق التي تنتمي إلى عالم الأمر ، وإلى كلِّ ما وراء عالم المادّة والمكان والزمان ، لا تتكوّن أصلاً من جزئيات مادّية ..

.. إنّ النفس البشرية - في الحياة الدنيا - تملك بصراً (معنوياً) ترى من خلاله الكليات التي تنتمي إلى عالم الأمر ، والتي نستشفّها من الجزئيات التي نخضعها لحواسنا .. ولذلك فالذي لا يعقل الكليات نتيجة إحساسه وإدراكه للجزئيات ، هو أعمى البصيرة ..

﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
أَوْلِيَاءَ يُضَعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾
[هود : ٢٠]

.. إذا عَبَّرَ الأبصار (الجانب المعنوي ، وليس المادّي المرتبط بالآلية العينية)
تُدرك الحقائق ما وراء هذه الجزئيات ... ولما كان الله تعالى فوق هذه الحقائق ، وإليه
يعود عالمي الخلق والأمر ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف
: ٥٤] .. فإنَّ هذه الأبصار لا تستطيع إدراكه جلّ وعلا ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ
وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ..

.. إنّنا نرى أنّ هذه الصورة القرآنية لم تأت على الشكل (لا تدركونه
بأبصاركم وهو يدرككم ببصره) ، لأنَّ الله تعالى ليس كالكليات التي وراء هذا
العالم المادّي ، إنّما هو فوق الكليات ، وإليه تعود هذه الكليات .. ولذلك حتى هذه
الأبصار التي تُدرك الكليات لا تدركه جلّ وعلا ، وهو يُدرك ليس وجودنا فحسب
، وإنّما يُدرك - أيضاً - الأبصار التي تُدرك من خلالها الكليات ، لذلك نرى أنّ
الصورة القرآنية هي : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ ..

.. ولما كان إدراك النفس البشريّة - في الحياة الدنيا - للكليات أسير إدراك
هذه النفس للجزئيات ، وأسير العقل في الانتقال من هذه الجزئيات إلى الكليات ،
فإنَّ كلّ الجزئيات المادّية في هذا الكون ، لا تكفي أن يكون إدراكها - مهما كبر
العقل والتصور - مقدّمة لإدراك ما فوق الكليات (الله تعالى) ، ولرؤيته جلّ وعلا
.. هذه الحقيقة بيّنها الله تعالى بياناً جلياً لمن أراد معرفتها ..

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَنْ
تَرِنِي وَلَٰكِنِ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ

لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ
وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ [الأعراف : ١٤٣]

.. واضح أن موسى عليه السلام طلب (عبر صفة الربوبية التي تتعلق بتسخير
الأسباب المادية للبشر) طلب أن يجعله الله تعالى متمكناً من رؤيته جلّ وعلا .. فقوله
﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ يؤكد ذلك .. فموسى عليه السلام (نفس + جسد)
يطلب من ربه جلّ وعلا أيّ آليّة تمكّنه من رؤيته ..

.. ويأتي الجواب من الله تعالى واضحاً جلياً ﴿ قَالَ لَنْ تَرَنِي ﴾ ، فلا تُوجد أيّ
آليّة في العالم الذي تُمتحن فيه تُمكننا من رؤية الله تعالى .. فكلّ الجزئيات التي
نستطيع إدراكها في هذا العالم ، أقلّ من أن تكون مقدّمة لإدراك خالقها ولرؤيته جلّ
وعلا ..

وكلّ آليات الرؤيا في هذا العالم المادّي ، هي في النهاية إحاطة أبصارنا بالمرئي ،
أي خضوع المرئي لقانون المكان ، وبالتالي الزمان ، خضوعاً تُحيط به أبصارنا ..
وتعالى الله علواً كبيراً من أن تُحيط به أيّ آليّة بصرية من آليات رؤيتنا في هذه الدنيا
..

.. فعند العبارة القرآنيّة ﴿ قَالَ لَنْ تَرَنِي ﴾ تمتّ الإجابة على سؤال موسى عليه
السلام .. فالرؤية غير ممكنة - في هذا العالم - مهما كانت الآليّة التي من الممكن أن
يتمتّع بها موسى عليه السلام أو غيره ..

فقول موسى عليه السلام ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ يعني - كما قلنا -
اجعلني ولو بأيّ آليّة أنظر إليك ، وبالتالي فجواب الله تعالى ﴿ لَنْ تَرَنِي ﴾ على
سؤال موسى عليه السلام ، يعني لن تراني ولا بأيّ آليّة ماديّة من الآليات الموجودة في
عالم المادّة الذي تُمتحن فيه ..

وقوله تعالى ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقْرَارَ مَكَانِهِ فَسَوْفَ تَرَنِّي﴾ ،

هو استدراكٌ ، يتصل بما قبله على سبيل توضيح وتبيين سبب عدم رؤية الله تعالى في الدنيا ..

.. فاختيار الجبل لتبيين عدم إمكانية الرؤية ، ليس اختياراً عشوائياً ، وجعل الجبل دكاً حينما تجلّى الله تعالى له ، ليس لأنه رأى الله تعالى ، فالجبل لا يرى الله تعالى ، ولا غير الله تعالى ، لأنه جمادٌ .. والزعم بأن الله تعالى خلق في هذا الجبل حياة ، ورؤية متعلقة بذات الله تعالى ، ثم جعله دكاً بعد الرؤية ، هو زعمٌ لا برهان عليه ، وهو جهلٌ مُسقٍ الصنع كـمقدمةٍ لنتيجةٍ يُسقطها صريح البيان القرآني ..

.. الله تعالى يقول لنا من خلال هذه الصورة القرآنية .. إن الطاقة المُودعة في جسم هذا الجبل ، وفي أيّ جسمٍ مادّيٍّ كجسم موسى عليه السلام ، والتي تدور داخل حيز المكان الذي يشغله هذا الجسم المادّي ، والتي تُعطي الجسم المادّيّ حيثيات وجوده في كل لحظة بقوة الله تعالى وأمره كما رأينا في الفصل السابق .. هذه الطاقة تتلاشى أمام نور الله تعالى إذا تجلّى لهذا الجسم المادّي .. فرؤية الله تعالى تعني تجلّي الله تعالى أمام من يُريد هذه الرؤية ، ولكن من أين لمادة جسمه أن تتحمّل النور الإلهي العظيم ؟ ..

وكيف من الممكن لعقل أن يتصوّر إمكانية رؤية الله تعالى في عالم الدنيا ، ورؤيتنا للأشياء في عالم الدنيا لا تكون إلا بإحاطة أبصارنا بالمرئي؟! .. أي بخضوع المرئي لقوانين المكان والزمان .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ..

.. من هنا نقول .. إنّ قول بعضهم بأنّ الله تعالى علّق رؤيته على شيءٍ ممكن الوقوع ، هو استقرار الجبل مكانه ، هو قولٌ مردودٌ بكلّ المعايير :

١ - الله تعالى لم يقل (لن تراني حتى يستقرّ الجبل مكانه) .. وحتى لو فرضنا جدلاً أنّ الله تعالى قال ذلك ، فالرؤية - في الدنيا - غير ممكنة ، لأنّ الجبل لم يستقرّ مكانه ، كما يؤكّد الله تعالى في الآية ذاتها ..

٢ - الاستدراك في الصورة القرآنية ﴿وَلَيْكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي^ع فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا^ع﴾ ، يؤكد الانتقال إلى قضية أخرى ، تُبين السبب في عدم إمكانية الرؤية .. فتجلى الله تعالى للجبل ، وما ترتب عليه من زوال ، ليس من أجل أن يراه الجبل ، بل من أجل أن يقول لنا ، إنَّ الجسم المادّي كأجسامكم وكآلياتكم للرؤية ، لا يتحمّل نورَ الله تعالى إذا تجلّى له من أجل الرؤية ، أو من أجل غير الرؤية .. ولذلك نرى أن موسى عليه السلام خرّ صعقاً نتيجة إدراكه هذه الحقيقة ..

وكما رأينا بأن موسى عليه السلام طلب (عبر صفة الربوبية التي تتعلّق بتسخير الأسباب المادّية للبشر) طلب أن يجعله الله تعالى متمكناً من رؤيته جلّ وعلا : ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ^ع﴾ ، نرى أن التجلّي كان - أيضاً - عبر صفة الربوبية : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ .. وهذا يؤكّد صحّة ما نذهب إليه في تفسيرنا لهذه الآية الكريمة ، من أن صفة الربوبية بما تعنيه من قوامة على كل الأسباب والجزئيات في هذا العالم ، والتي منها الطاقة المودعة في جسم هذا الجبل ، هذه الصفة حينما تتجلّى على كائنٍ حسيّ كالجبل لا بدّ أن يزول من مكانه ..

وزعمهم بأن سؤال موسى عليه السلام لكي يرى الله تعالى ، هو دليل على إمكانية الرؤية ، لأنّه - حسب ما يزعمون - لو كانت الرؤية ممتنعة لما سأها موسى عليه السلام ، وأنّه - حسب ما يزعمون - إذا قلنا إنّ موسى عليه السلام لم يكن عالماً بإمكانية عدم الرؤية ، فإنّ ذلك انتقاصٌ منه ومن نبوّته .. هذا الزعم مردود ، وذلك للأسباب التالية :

١ - قول موسى عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ^ع﴾ ، هو إقرارٌ منه عليه السلام ، بأنّه لا يستطيع رؤية الله تعالى بآليته العينية التي ينظر من خلالها إلى هذا العالم ، وهو يطلب أيّ آليّة أخرى ليرى الله تعالى بها .. فهو يقول ربّ اجعلني أقدر

على أن أنظر إليك وأراك ، أي أريد أي آية أخرى للنظر إليك ولرؤيتك ، فموسى عليه السلام لم يكن جاهلاً بأن الآلية العينية لا تمكّنه من رؤية الله تعالى ..

٢ - وأين المشكلة في أن يطلب نبي رسول كموسى عليه السلام طلباً غير ممكن !!!؟ .. ألم يطلب نوح عليه السلام من الله تعالى طلباً غير ممكن !!!؟ ..

﴿ وَتَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَيْتُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٥ - ٤٧]

.. أليس قوله تعالى ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَيْتُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ دليلاً على أن نوحاً عليه السلام سأل سؤالاً عن غير علم ؟ .. وأليس قول نوح عليه السلام ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ هو إقرار منه عليه السلام أنه طلب من الله ما هو غير ممكن ؟ .. وأنه سيصبح من الخاسرين إن لم يغفر الله تعالى له هذه الخطيئة ؟ ..

٣ - موسى عليه السلام بعد أن أفاق من الصعقة ماذا قال ؟ : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .. إن قوله : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ هو تزييه لله تعالى عما تقدّم ذكره من طلبه رؤية الله تعالى ، لأن ذلك يقتضي - كما أيقن موسى بعد أن دُكّ الجبل - خضوع الله تعالى لقوانين المكان والزمان ، والله تعالى متزه عن ذلك .. فنفي رؤيتنا لله تعالى في عالم المادة والحسّ ، هو تزييه له جلّ وعلا ، لأنّ الزعم بإمكانية الرؤية يلحق النقائص والنقائص

بالذات الإلهية ، والله تعالى متره عن هذه النقائص والنقائص .. هذا ما تصوّره لنا الكلمة الأولى التي قالها موسى عليه السلام ﴿سُبْحٰنَكَ﴾ ، بعد أن أفاق ..

٤ - قول موسى عليه السلام ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، تأكيداً على أنه بطلبه رؤية الله تعالى قد طلب طلباً - فيما لو كان ممكناً - يُلحق النقائص والنقائص بالذات الإلهية ، وبالتالي فموسى عليه السلام طلب من الله تعالى قبول توبته نتيجة طلبه هذا ، ويؤكد أنه أصبح أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ بأن رؤية الله تعالى في هذا العالم المادّي المحسوس غير ممكنة ، ولا بأيّ آليّة ، لأنّ كلّ الآليّات المادّيّة لا تصلح لأن تكون مقدّمةً لإدراك ما فوق الكليّات ، ولرؤيته جلّ وعلا ..

.. إذاً رؤية الله تعالى في الدنيا مستحيلة .. أمّا بالنسبة لرؤية الله تعالى في الآخرة ، فقد تمّ الاختلاف فيها بين ناف لها ، محتجاً بكلمة ﴿لَنْ﴾ في قوله تعالى ﴿قَالَ لَنْ تَرٰنِي﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وبين مؤكّد لوقوعها محتجاً بالنصّين التاليين :

﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّٰضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَٰظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢ - ٢٣]

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحٰجِبُونَ﴾ [المطففين : ١٥]

.. ولنقف عند الرأي الأوّل الذي ينفي هذه الرؤية في الآخرة ، معتبراً كلمة ﴿لَنْ﴾ في قوله تعالى ﴿قَالَ لَنْ تَرٰنِي﴾ [الأعراف : ١٤٣] تفيد التأييد الذي يشمل الآخرة ..

.. إن قولهم هذا لا يُعدّ دليلاً ، فقد وردت هذه الكلمة ﴿لَنْ﴾ في كتاب الله تعالى دون أن تفيد نفي المسألة المتعلقة بها في الآخرة ..

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة : ٩٤ - ٩٥]

فكلمة ﴿ وَلَنْ ﴾ في العبارة القرآنية ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا ﴾ تؤكد عدم تمني المعنيين للموت في الحياة الدنيا ، وهذا لا يقتضي استمرار ذلك في الآخرة .. ففي الآخرة يتمنون الموت ، بل يطلبونه ..

﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبَلِّسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ﴿٧٧﴾ [الزخرف : ٧٤ - ٧٧]

.. إذا .. الاحتجاج بكلمة ﴿ لَنْ ﴾ في قوله تعالى ﴿ قَالَ لَنْ تَرِنِّي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] على عدم رؤية الله تعالى في الآخرة ، ليس برهاناً يمكن اعتباره دليلاً على ما يذهبون إليه ..

أما بالنسبة للذين ذهبوا إلى أن رؤية الله تعالى في الآخرة واقعة بالنسبة للمؤمنين ، محتجين بقوله تعالى ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ، فقد قالوا : قوله تعالى ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ نصٌّ صريحٌ بوقوع رؤية الله تعالى في الآخرة ..

إن احتجاجهم هذا ليس سليماً .. ولإدراك ذلك ، لا بد أن نبين النقاط التالية :
١ - قوله تعالى ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ نرى فيه اقتران النظر بحرف إلى ، وهذا مقدّمة للرؤية وليس اسماً لها ، وهذا يماثل نظر القلب إلى المعرفة .. وهذا الوجه من المعنى نراه جلياً في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ﴾ وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ [الأعراف : ١٩٨] ، ففي هذه الآية الكريمة نرى وقوع النظر دون وقوع الرؤية .. فالرؤية غاية النظر ، والنظر لا يقتضي حتمية وقوع الرؤية ..

٢ - نرى أنه تم تقديم الجار والمجرور على كلمة « نَاطِرَةٌ » ، فالله تعالى لم يقل : (ناظرة إلى ربها) ، إنما يقول « **إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ** » ، فهذا التقديم يبين لنا اختصاص النظر وحصره ، بأن الوجوه - في تلك الحالة - لا تنظر إلى غير ربها .. ومثال ذلك قوله تعالى في السورة ذاتها « **إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ** » [القيامة : ١٢] ، وقوله تعالى أيضاً في السورة ذاتها « **إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ** » [القيامة : ٣٠] .. إذاً .. النظر المعني في قوله تعالى هو مسألة مختلفة عن الرؤية .. فقوله تعالى « **إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ** » ، يبين لنا حصر نظر الوجوه المعنوية إلى ربها دون غيره ، مع أنها ترى غير الله تعالى ..

٣ - صحيح أن النظر الوارد بمعنى الانتظار لم يقترن في كتاب الله تعالى بحرف إلى ، إلا أنه لا يمكن الجزم بأن كلمة « نَاطِرَةٌ » في قوله تعالى « **إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ** » لا يمكنها أن تحمل معنى الانتظار ، فقوله تعالى الذي يصور لنا حقيقة كلمات ملكة سبأ « **وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** » [النمل : ٣٥] ، واضح وجلي فيه أن كلمة « **فَنَاطِرَةٌ** » تحمل معنى الانتظار ، وكذلك كلمة « **فَنَظِرَةٌ** » في قوله تعالى « **وَإِنْ كَانِ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ** » [البقرة : ٢٨٠] .. إذاً .. لا يمكن الجزم بأن قوله تعالى « **إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ** » دليل قاطع على رؤية الله تعالى في الآخرة ..

٤ - قوله تعالى « **إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ** » نرى فيه صفة الربوبية المضافة إلى ضمير متعلق بالوجوه وحتى في الآية الكريمة التي طلب فيها موسى عليه السلام أن يعطيه ربه جلّ وعلا أي آية لرؤيته ، نرى ورود صفة الربوبية أيضاً : « **قَالَ رَبِّ ارِنِّي أَنْظُرْ إِلَيْكَ** » ، « **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ** » .. وصفة الربوبية تتعلق

بتسخير الأسباب للمسخر له تلك الأسباب .. وهذا يقوي ما عرضناه في النقاط السابقة ..

.. ومنهم من احتج بقوله تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] على رؤية الله تعالى في الآخرة ، فقالوا هذا نص صريح يبين عدم رؤية المعنيين لله تعالى ، وبالتالي رؤية الآخرين (أهل الجنة) لله تعالى ، وإلا لما كان للتخصيص فائدة ..

وهنا أيضاً لا يمكن اعتبار دلالات هذه الآية الكريمة مقدّمة للجزم برؤية الله تعالى في الآخرة ، فالحجب هو المنع ، ولا يوجد في الآية الكريمة ما يؤكد أو ينفي أو يشير إلى أن هذا الحجب هو عن الرؤية ، فالحجب يُحتمل في الكثير من المسائل ، كالرحمة والقربى والعطاء

وما يقوي تعلق الحجب بالمسائل الأخرى غير الرؤية ، هو التعلق بصفة الربوبية ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ المضافة إلى ضمير متعلق بالمعنيين ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ ، وصفة الربوبية تتعلّق بها أمور تسخير الأسباب للمسخر له تلك الأسباب .. وهذا ما رأيناه أيضاً في قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، وما رأيناه أيضاً في قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ ارْنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ [في قصة موسى عليه السلام كما رأينا .. فليس من العبث أن ترد صيغة الربوبية في هذه النصوص جميعها ..

أمّا الاحتجاج بالروايات على مسألة من كبريات مسائل العقيدة كهذه المسألة ، دون أيّ دليلٍ جليّ في كتاب الله تعالى ، فهذا ليس من العلم الحقّ في شيء ، وهذا خروجٌ على أمر الله تعالى ، حيث يأمرنا الله تعالى ألاّ نرفع أيّ نصّ خارجٍ دفتي كتاب الله تعالى إلى مستوى الإيمان الكامل الذي نؤمن به بكتاب الله تعالى ..

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ

يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٦]

ونحن لا يمكننا أن نفرض تصوراتنا في عالم الدنيا على نواميس الآخرة ، فأجسادنا في الآخرة مختلفة تماماً عنها في الدنيا ، ونواميس أرض الآخرة وسماواتها مختلفة تماماً عن أرض الدنيا وسماواتها .. حتى نعيم الآخرة وما سيلقاه أهل الجنة في الجنة لا نستطيع الوقوف على حقيقته ..

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [

السجدة : ١٧]

.. كيف إذاً يمكننا الوقوف على حقيقة مسألة كبيرة جداً ، كرؤية الله تعالى في

الآخرة !!!؟ ..

.. وهذه المعادلة التي تربط وجود النفس البشرية في جسدها ، مع تعلق

إدراكها الحسي ورؤيتها للكليات ، بما تقتضيه قوانين المادة التي ينتمي إليها الجسد ،

هي سنة من سنن الله تعالى التي لا تبدل ولا تتغير .. والقرآن الكريم يلقي الضوء

عليها من خلال قصة الإسراء التي حدثت مع النبي ﷺ ..

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء

: ١]

.. إن الإسراء بالنبي ﷺ - نفساً وجسداً - من المسجد الحرام إلى المسجد

الأقصى ، هو عملية حدثت ضمن قوانين المادة والمكان والزمان التي تحكم أجسادنا

.. والنبي ﷺ في هذه الرحلة لم يتخل عن بشريته ، فجسده لم يستثن من هذه العملية

، ولذلك فعدم التخلّي عن هذا الجسد المادي وبالتالي عن قوانين العالم المادي الذي

ينتمي إليه الجسد ، جعل من رؤية النبي ﷺ لبعض آيات الله تعالى - في هذه الرحلة

— بحاجة إلى آلية تُريه هذه الآيات .. فهو بطبيعته البشرية لا يستطيع رؤية هذه الآيات بذاته ..

والقرآن الكريم يبيّن لنا هذه الحقيقة .. فقله تعالى ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأْتَنَّا﴾

يؤكد أنّ النبي ﷺ بآلياته المادّية للرؤية ، لا يستطيع أن يرى بذاته هذه الآيات ..
.. بينما في المعراج الروحي (حيث امتلأت نفسه ﷺ روحاً) ، وحيث التخلّي عن الجسد وعلائقه المادّية ، والدخول في مرحلة ملائكيّة ، نرى أنّ النبي ﷺ — في هذه الرحلة — يرى الآيات بذاته ، وأنّه ليس بحاجة لآلية رؤية كما هو الحال في الإسراء ..

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ
أَهْوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾
وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾
فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا
يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾
إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ
آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ [النجم : ١ - ١٨]

.. فدنو جبريل عليه السلام وتدلّيه إلى أفق الملائكيّة الأقرب إلى البشرية ﴿ثُمَّ

دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ، وسموّ نفس الرسول ﷺ إلى المستوى الروحي الموازي للملائكيّة ،
جعل من جبريل عليه السلام ومن محمّد ﷺ على قرب (روحي) لم يفصل بينهما
إلا حقيقتيهما ، بل أصبحا أقرب إلى بعضهما حتى من هذا القرب ، لتداخل الروح
بينهما ، وهذا ما نقرّوه في قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ ..

.. وفي تلك الحالة حصل الوحي المباشر من الله تعالى إلى رسوله ﷺ ﴿ فَأَوْحَىٰ ۚ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ ، فالرسول ﷺ بعروجه الروحيّ هذا سما إلى درجة استقبال الوحي المباشر من الله تعالى دون رسولٍ وسيطٍ (دون جبريل عليه السلام) ... وفي تلك الحالة الروحيّة التي تكرّرت مرّة أخرى ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، استطاع الرسول ﷺ أن يرى بذاته (دون أيّ آليّة مُساعدة كما كان في الإسراء) من آيات ربّه الكُبرى ..

.. فالفارق بين ما تصفه العبارة القرآنيّة ﴿ لِئُرِيَهُمْ مِنْ ءَايَاتِنَا ﴾ في حادثة الإسراء التي كان الجسدُ جزءاً منها ، حيث الرؤية بحاجة لآليّة مُساعدة ، وبين ما تصفه العبارة القرآنيّة ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ في مسألة المعراج الروحي ، حيث الرؤية ذاتيّة ولا حاجة لآليّة مُساعدة .. هذا الفارق بين الحالتين يعود إلى الفارق بين ماهيّة العالم الذي تُسجن أنفسنا فيه عبر الجسد ، وبين ماهيّة العالم غير المادّي الذي تمّ فيه المعراج الروحي ..

ولا خلاف أن الإسراء وقع نفساً وجسداً ، فالآية الكريمة :

﴿ سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَدَرْنَا حَوْلَهُ لِيُرِيَهُمْ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١]

نرى فيها أن بداية رحلة الإسراء ﴿ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ونهايتها ﴿ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ هما مكانان حسيّان مادّيّان على وجه الأرض ، إضافة إلى احتياجه ﷺ لآليّة مُساعدة على الرؤية ﴿ لِئُرِيَهُمْ مِنْ ءَايَاتِنَا ﴾ كما بيّنا ، وهذا دليلٌ على وقوع الإسراء نفساً وجسداً ..

أما احتجاج بعضهم بكلمة ﴿بِعَبْدِهِ﴾ على الإسراء الجسدي ، فهو احتجاج ليس سليماً ، مع أن الإسراء حصل بالجسد والنفس كما بيّنا ، لأنّ صفة العبوديّة وردت في كتاب الله تعالى أيضاً للملائكة الذين هم ليسوا أجساداً كالبشر ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف : ١٩]

أما المعراج فهو مسألة أخرى لا يمكن أن تكون بالجسد كما قلنا ، فهناك ناموسٌ إلهيٌّ نراه في قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤] ، فالعروج إلى الله تعالى مسألةٌ روحيةٌ ، وليست جسديّة ولا بأيّ شكلٍ من الأشكال ، ولذلك فالروح الأمين عليه السلام التحم بنفس النبي ﷺ بعدما امتلأت روحاً ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ ، وفي هذه الحالة التي سمت نفسه ﷺ إلى هذه الدرجة تلقى ﷺ الوحي مباشرةً من الله تعالى دون وساطة جبريل عليه السلام ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ ..

ولإدراك حقيقة هذا الناموس الإلهي ما علينا إلا أن ننظر إلى سيرة عيسى عليه السلام كنفسٍ مُلئت روحاً مائة بالمائة منذ ولادته ، وبقي على ذلك حتى رفعه الله تعالى إليه .. فعيسى عليه السلام كان كلُّ ما ينطق به إنجيلاً ، والروح الأمين حينما وضعه في أمّه مريم عليها السلام روحاً كاملة ، لم يتزل عليه ، لأنّ حياته كانت مماثلةً لحالة المعراج التي وقعت مع النبي ﷺ .. من هنا كان الإنجيل هو ما نطق به عيسى عليه السلام كنفسٍ مليئة مائة بالمائة روحاً مدى حياته ..

.. إنّ سّنة الله تعالى التي تحكم جزئيات عالم الخلق المحسوس (عالم المادّة والمكان والزمان) ، تتجلّى في إعطاء الله تعالى للإنسان الخلافة في الأرض ، عبر تفويض الله تعالى للإنسان على جزئيات عالم المادّة .. وإنّ سّنة الله تعالى في صفات

عالم الأمر تتجلى في الوجه الروحي للعبادة التي يُريدها الله تعالى من عالمي الإنس والجنّ ، ككائنات مكلفة ..

إذاً خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض ، عبارة عن حدّي المعادلة التالية :

تفويض من الله تعالى للإنسان على الأسباب في عالم المادّة	+	عبادة الله تعالى	=	الخلافة
---	---	------------------	---	---------

.. وفي الحدّ الأوّل من هذه المعادلة (عبادة الله تعالى) يتساوى عالما الإنس

والجنّ .. ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦]

.. بينما ينفرد الإنسان في ملك الحدّ الثاني من هذه المعادلة ، حيث أختصّ دون

غيره - كما رأينا - بملك المشيئة ، ضمن إطار مشيئة الله تعالى ..

وهكذا .. لعبادة الله تعالى من قِبَل الكائنات المكلفة وجهان :

١ - عبادة مجردة عن عالم المادّة ، وعن إدراك الجزئيات ، وفي هذه العبادة

يتساوى عالما الإنس والجنّ ، حيث تُدرَك الكليات بما يتعلّق بألوهيته جلّ وعلا ، بعيداً عن مقدّمات جزئيات عالم المادّة ..

٢ - عبادة ضمن إطار عالم المادّة والمكان والزمان ، عبر شعائر حسّية ماديّة ،

وأحكام تتعلّق بماهيّة هذا العالم المادّي ، واختبارٍ لخلافة الإنسان في عالم الجزئيات ..

فاستخدام العقل في الانتقال من إدراك الجزئيات إلى إدراك الكليات الإيمانيّة ،

والانصياع - ضمن إطار هذا العالم المادّي - للأحكام والشعائر ، والعمل بجزئيات

المادّة ضمن الإطار الذي يريده الله تعالى ، هو ما يُميّز هذه العبادة ، التي يتميّز بها

عالم الإنس عن عالم الجنّ ..

وعالم الجن هو - كما يؤكد القرآن الكريم - عالم ناري، له قوانينه الخاصة به، والمغايرة لقوانين عالمنا المادي الكثيف.. ولذلك فساحة عمل أفراد هذا العالم غير ساحة المادة الكثيفة التي تنتمي إليها أجسادنا..
.. هذه السنة التي تميّز ماهية عالم الجن وساحة عملهم، يؤكدها القرآن الكريم عبر استثناء هذه السنة أعطي لسليمان عليه السلام، مع مجموعة من الاستثناءات:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص : ٣٤ - ٣٩]

فما بين طلب سليمان عليه السلام لملك لا ينبغي لأحد من بعده، وبين إجابة الله تعالى لهذا الطلب إجابة مباشرة تالية لطلبه ومربوطة مع الطلب بفاء الترتيب والمباشرة، دليل على أن إجابة طلب سليمان عليه السلام معجزة خارقة للنواميس التي تتصف بها المسائل مواضع الإجابة على طلبه..

﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ ..

.. وما بين إلقاء الجسد على كرسي سليمان ﴿ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ ، وبين تسخير الريح والشياطين له ، علاقة وثيقة ، تتمثل بماهية التسخير وماهية التجسيد المادي .. فتسخير الريح وجريانها بأمر سليمان عليه السلام ، وتسخير بعض أفراد عالم الجن للعمل بين يديه لتحقيق ما يشاء ، هو - في النهاية - حرق للنواميس

المتعلقة بماهية هذه المسائل ، وتسخيرٌ وتجسيدٌ مادّيٌّ لأشياء لا تُسخرُ - بالحيثية التي سُخرت بها - ولا تتجسد في حقيقتها ..

وهكذا .. فتشكّل الجنُّ بأجساد تعمل بين يديّ سليمان عليه السلام ، في ملكه ، وضمن إطار مشيئته ، هو في الحقيقة إلقاءً تجسديّ على ملكه ، وامتحان له ، وهو ما يمكننا أن نستشفّه من الصورة القرآنية : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ ..

.. فَطَلَبُ سليمان عليه السلام للملك الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعده ، والذي يتمُّ فيه خرق نواميس عالم الجنِّ ، له تعلقه بامتحانه وبإلقاء التجسيد المادّي (لمن لا يتجسد بماهيته) على ملكه (كرسيّه) ..

.. ولذلك نرى أن جميع الأعمال التي قام بها الجنُّ في عالمنا المادّي ، والتي صورها لنا القرآن الكريم ، والخرقة للماهية النارية التي خلُق منها الجنُّ ، هي أعمالٌ حصلت حصراً في عهد سليمان عليه السلام ، وبعد أن سخر الله تعالى له بعض أفراد عالم الجنِّ للعمل بين يديه ، كمعجزة خارقة للناموس ، من خلال ملكٍ لا ينبغي لأحدٍ من بعده ..

﴿ وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل

: ١٧]

﴿ قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ^ط وَإِنِّي عَلَيْهِ

لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل : ٣٩]

﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ^ط ﴾ [سبأ : ١٢]

﴿ فَلَمَّا حَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ

الْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤]

﴿ وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخِرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ [ص :

[٣٧ - ٣٨]

.. وفي الصورة القرآنية ﴿ وَمَنْ أَلْجَىٰ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ دليل آخر على أنّ ما أُعطي لسليمان عليه السلام هو استثناء .. فهذا الاستثناء من الله تعالى لسليمان لا يكون إلاّ بإذن الله تعالى ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ ، لأنّه خارقٌ للناموس ، وهذا يُماثل الاستثناء الذي أُعطي لعيسى عليه السلام في مسألة إحياء الموتى والذي أتى مقترناً - أيضاً - بإذن الله تعالى ..

﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ [

المائدة : ١١٠]

﴿ وَإِذْ تَخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ [المائدة : ١١٠]

.. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو .. ضمن إطار هذا الاستثناء ، وخلال عمل الجنّ بين يديّ سليمان عليه السلام في هذا العالم المادّي الكثيف ، هل أصبح الجنّ يملك مشيئةً ، كما هو الحال عند الإنسان ؟ .. إنّ تسخير طاقة عالم الجنّ بين يديّ سليمان عليه السلام ، تسخييراً تتجسّد فيه هذه الطاقة للعمل بين يديه ، لا يعني أبداً أنّ ذوات الجنّ التي عملت بين يديه ضمن إطار هذا التجسيد ، قد أصبحت تملك المشيئة كما يملكها الإنسان .. ليس لأنّ تجسيد هذه الطاقة استثناءً فحسب ، وإنّما لأنّ هذا التجسيد ليس صادراً عن طبيعة الماهية التي خُلِقَ منها الجنّ ، ولأنّه في عالم الجنّ لا تُوجد الثنائية بين النفس والجسد (وبالتالي بين الإرادة والمشيئة) التي تُوجد عند الإنسان ، ولأنّ العمل الذي قام به الجنّ - ضمن إطار هذا الاستثناء - هو بين يديّ سليمان حصراً وإذن الله تعالى ..

﴿ وَمَنْ أَلْجَىٰ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ وَمَنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُنْذِقُهُ

مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٣٨﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ

وَقُدُورٍ رَأْسِيَّتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ [سبأ : ١٢ - ١٣]

.. فقله تعالى ﴿ وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾^ط يبين لنا أن هذا الاستثناء يشمل جزءاً من أفراد عالم الجن ﴿ وَمِنَ الْجِنَّ ﴾ .. فالمسألة ليست مسألة ناموسٍ يخضع له عالم الجن ، إنما هي استثناءٌ يندرج تحته جزءٌ من عالم الجن ، وحصراً بين يدي سليمان ﴿ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، وبإذن الله تعالى ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ ..
وفي الصورة القرآنية ﴿ وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾^ط وَمَنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ [سبأ : ١٢] ، وفي الصورة القرآنية ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] ، وفي الصورة القرآنية ﴿ وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴾^{٧٧} وَعَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ [ص : ٣٧ - ٣٨] .. نرى أن الجن الكافرين هم الذين كانوا مسخرين بين يدي سليمان عليه السلام ، وبالتالي استثناء الجن المؤمنين من هذا التسخير ..

.. وعدم امتلاك الجن المسخر بين يدي سليمان عليه السلام للمشيئة ، حقيقة نراها مؤكدة في العبارة القرآنية ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَأْسِيَّتٍ ﴾^{٧٨} .. فالعمل الذي قام به هؤلاء الجن ، هو ضمن إطار مشيئة سليمان عليه السلام حصراً ، أي أن الجن في عملهم الذي قاموا به ، كانوا خارج إطار إرادتهم ، وبالتالي لا مشيئة لهم في ذلك ، وما يؤكد ذلك هو العبارة القرآنية ﴿ وَمَنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ ..

.. وورود العبارة القرآنيّة ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾ بهذه الصيغة ، هو تأكيدٌ على هذه الحقيقة ، فلو أتت هذه العبارة على الشكل (يعملون له ما يريد) ، لتسرّب احتمال انتماء العمل الذي قاموا به إلى دفعهم للأسباب دفعاً من ذاتهم ، باتجاه تحقيق مُراد سليمان عليه السلام .. ولكنّ ورود هذه العبارة القرآنيّة بصيغة المشيئة المنسوبة إلى سليمان عليه السلام ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾ يؤكّد أنّ تسخير الجنّ للعمل بين يدي سليمان ، لا يختلف عن تسخير الأسباب بين يديه ، وبالتالي فكلّ ما عمله الجنّ بين يديّ سليمان عليه السلام ، هو في النهاية ضمن إطار مشيئته ..

.. وهذا التسخير هو - في الحقيقة - تمكينٌ من الله تعالى لسليمان عليه السلام ، كي يستفيد من الماهية الناريّة التي خلّق منها الجنّ ، وذلك في إطار عالمنا المادّي الكثيف .. وبالتالي فهذه الاستفادة سقّفٌ يتعلّق بسقّف الصفات التي تتّصف بها الماهية الناريّة ..

.. وقد بيّن القرآن الكريم حقيقة هذا السقّف ، في العرض الذي قدّمه عفريتٌ من الجنّ من أجل الإتيان بعرش ملكة سبأ ، وذلك عبر مقارنة ما بين صفات الماهية الناريّة ، وما بين علم الكتاب الذي هو فوق قوانين عالمنا المادّي ، وفوق قوانين الماهية الناريّة التي خلّق منها الجنّ ..

﴿ قَالَ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴿٤٠﴾ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ءَأَشْكُرُ لِرَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [النمل : ٣٨ - ٤٠]

إنَّ سقف الطاقة التي يستطيع من خلالها هذا العفريت من الجنّ أن يأتي بعرش ملكة سبأ ، هو ضمن فترة زمنية لا تتعدى قيام سليمان عليه السلام من مقامه .. ولا شكّ أنّ هذه القدرة المتعلقة بماهيّة خلق عالم الجنّ ، والمسخرّة - بإذن الله تعالى - بين يديّ سليمان وبمشيئته ، هي قدرة مذهلة ، مقارنةً مع قدرتنا البشريّة ، ومع حيثيّات تفاعلنا مع الأسباب ..

.. والعرض الآخر المُقدّم من قِبَل الذي عنده علمٌ من الكتاب ، هو عرضٌ للإتيان بعرش ملكة سبأ ، دون زمن ، أو خلال فترة لا تتعدى ارتداد الطرف ، وهذا يتبع لحقيقة علم الكتاب الذي هو علمٌ مستمدٌّ من الله تعالى ، وبالتالي فإنّ مجيء عرش ملكة سبأ - خلال هذا العرض - يتعلّق بقوة الله تعالى وعلمه ..

ولذلك نرى أنّ الله تعالى لم يُبيّن لنا (في ظاهر النصّ القرآني) إلى أيّ عالمٍ ينتمي هذا الذي عنده علمٌ من الكتاب ، ولم يُبيّن لنا من هو ، فمهما كان ومهما كان العالم الذي ينتمي إليه ، فإنّ العرض الذي قدّمه يعتمد على علم الكتاب ، ولا يعتمد على ماهيّة العالم الذي ينتمي إليه .. بينما في العرض الأوّل بيّن الله تعالى لنا أنّ مُقدّمه عفريتٌ من الجنّ ، لأنّه عرضٌ يعتمد على صفات الطاقة الناريّة التي خُلِق منها عالم الجنّ ، والمسخرّة بين يديّ سليمان عليه السلام ، وبمشيئته ..

ولمّا كان الجنّ المسخرّون بين يديّ سليمان عليه السلام - كما رأينا - الجنّ الكافرين ، ولمّا كان الجنّ الكافرون لا يملكون علم الكتاب ، وإلّا لما كانوا كافرين .. فإنّنا نستنتج أنّ الذي عنده علمٌ من الكتاب لا ينتمي إلى عالم الجنّ ..

وقد رأينا في النظرية الخامسة (إحدى الكُبرى) ، التوازن التامّ بين عرض العفريت من الجنّ ، وبين عرض الذي عنده علمٌ من الكتاب .. فكلُّ قَدَمِ سَقْفِ ما عنده ، وكامل استطاعته ، لذلك رأينا أنّ القيمة العددية [] حسب الأجدية القرآنية التي رأيناها في النظرية الخامسة (إحدى الكُبرى) [] للنصين القرآنيين المصوّرين لهذين العرضين متساوية تماماً ..

﴿ قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنَّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ^ط وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ = ٣٣٤

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ^ع ﴾ = ٣٣٤

ورأينا أيضاً أن الآية الكريمة التي تحوي العرض الثاني ، والذي من خلاله تمّ الإتيان بعرش ملكة سبأ ، تُصوّر مسألة كاملة ، وبالتالي متعلّقة بمعجزة إحدى الكُبر (معجزة العدد ١٩) ، أي أن مجموع القيم العددية لحروفها (حسب الأبجدية القرآنية المكتشفة) من المضاعفات التامة للعدد (١٩) ..

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ^ع فَلَمَّا رآه مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ^ط وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ^ط وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ = ٩٨٨

$$٥٢ \times ١٩ = ٩٨٨$$

.. وعلى الرغم من تسخير الجنّ في عالمنا - بإذن الله تعالى - بين يديّ سليمان عليه السلام ، فإنّ هذه الكائنات المسخّرة في هذا العالم لم تُدرِك الجزئيات إدراكاً سليماً يتجاوز الظاهر المادّي ، بدليل أنّها لم تعلم بموت سليمان عليه السلام إلاّ بعد أن أكلت دابة الأرض منسأته .. وفي هذا دليلٌ آخر على أنّ الجنّ لم يملك مشيئة حتى ضمن إطار تسخيره في عالمنا المادّي ..

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَهَمَهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ
مِنْسَاتَهُ^ط فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ
الْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤]

.. وهناك خصوصية أخرى أُعطيت لداود عليه السلام ، وهي تسخير الجبال
يُسَبِّحُنَ معه والطير ..

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء :
٧٩]

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا^ط يَنْجِبَالُ أُوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ^ط وَالنَّا لَهُ الْخَدِيدَ
﴿ [سبأ : ١٠]

﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ^ط إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا
سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً^ط كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ
﴿ [ص : ١٧ - ١٩]

.. وداود عليه السلام عَلَّمَ منطق الطير ، وسليمان عليه السلام الذي ورث أباه
(داود) عَلَّمَ هذا المنطق ..

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ^ط وَقَالَ يَتْلِفَهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ^ط إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦]

.. ولكن هذه الخصوصية - تسخير الجبال للتسبيح مع داود ، وتعليم منطق
الطير - تختلف تماماً عن تجسّد بعض أفراد الجنّ للعمل بين يديّ سليمان عليه السلام
.. ففي حين أنّ تجسّد بعض أفراد الجنّ هو خرقٌ لناмос ماهية عالم الجنّ كما رأينا
، فإنّ تسخير الجبال للتسبيح مع داود عليه السلام وتعلّم منطق الطير ، ليس خرقاً
لناмос هذه الأشياء ، وإنّما خرقٌ للحجاب الذي فصلنا - ونحن في هذا العالم -
عن حقيقة الأشياء التي لا نستطيع إدراكها ..

فالجبال - شأنها شأن أي شيء - تُسبِّح بحمد الله تعالى .. هذا هو الناموس ،
ولكننا لا نفقه هذا التسبيح ..

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤]
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَوَّفَتْ كُلُّ قَدَّةٍ
عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور : ٤١]

.. والطيور وكل دابة في الأرض أمم أمثالنا ، وبالتالي يوجد بين أفراد كل أمم
منها منطقها الخاص بها ، ولكننا لا ندرك هذا المنطق ..

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام : ٣٨]

.. وهكذا نرى أن الخصوصية في تسبيح الجبال مع داود عليه السلام ، وتعلم
منطق الطير ، ليست حرقاً لنواميس الأشياء ، إنما حرقاً للحجاب الذي يحجزنا عن
إدراك الحقائق التي لا نستطيع إدراكها ونحن في عالم الدنيا ..

وفي هذا التسخير بين يدي داود وسليمان عليهما السلام - إضافة إلى أنهما
مكلفان ضمن إطار الخلافة ، وأن الأسباب مسخرة بين أيديهما كأبي إنسان - دليل
على أن الله تعالى آتاهما من المفاتيح ما يمكنهما - من خلالها - من الدخول إلى
إدراك الجزئيات التي تؤدي - فيما لو تم الاستثمار الكامل لهذه المفاتيح - إلى إدراك
جزئيات كل شيء .. وهذا ما تلخصه العبارة : ﴿ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، في

الآية الكريمة التالية : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ
الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦]

.. هذا الإتيان من كل شيء ، والذي يعني - كما قلنا - وضع مفاتيح إدراك
الجزئيات في هذا العالم المادي المحسوس ، بين يدي من آتاه الله تعالى هذه المفاتيح ،

قد وُضِعَ بين يديّ ملكة سبأ كما يؤكّد القرآن الكريم ، ولكنّ ملكة سبأ لم تهتد إلى استخدام هذه المفاتيح كما اهتدى داود وسليمان عليهما السلام ، بسبب كفرها وصدّها عن سبيل الله تعالى ..

﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٣١﴾
وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٣ - ٢٤]

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [النمل

: ٤٣]

.. وذو القرنين آتاه الله تعالى - أيضاً - من كلّ شيء سبباً يتوصّل من خلاله إلى هذا الشيء ، واستخدم هذه الأسباب استخداماً سليماً كمفاتيح لاكتشافات جديدة ، فإذا أراد شيئاً سلك سبباً من هذه الأسباب التي آتاه الله تعالى إيّاها للوصول إلى هذا الشيء .. وهكذا .. فالأسباب التي آتاه الله تعالى إيّاها ، هي مقدّمات يسير بها إلى نتائج واكتشافات ، ومن ثمّ تكون هذه النتائج أسباباً ومقدّمات لنتائج جديدة ..

﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾ إِنَّا مَكَّنَا
لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٣﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٣ - ٩٢]

.. وعدم رؤية مفاتيح الأشياء ، وعدم استخدامها ، لا يعني أبداً عدم وجود هذه المفاتيح ، إنّما يعني التقصير في استخدام هذه المفاتيح وفي تدبّرها ..
.. إنّ القرآن الكريم يحمل من المفاتيح ما يجعله تبيّناً لكلّ شيء في هذا الكون :
﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] .. والقرآن الكريم

بما يحمله من أدلة ومفاتيح لتبيان كل شيء في هذا الكون ، يسره الله تعالى بين أيدينا للذكر : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر : ١٧] ..

.. فهل تقصيرنا في تدبر القرآن الكريم ، وفي اكتشاف مفاتيح تبيان كل شيء ، التي يحملها ، وفي استخدام هذه المفاتيح لإدراك حقائق الكون .. هل هذا التقصير (الذي يؤدي إلى عدم رؤية هذه المفاتيح) يعني عدم حمل القرآن الكريم للتبيان الذي يحمله؟! ..

إن المتدبر للقرآن الكريم يرى من هذه المفاتيح حسب درجة تدبره .. وغير المتدبر لا يرى منها شيئاً ، وبحسب القرآن الكريم مجرد نص يحمل أحكاماً فقهية ليس إلا ..

وقد رأينا كيف أن ملكة سبأ لم تهتد إلى استخدام مفاتيح كل شيء التي أوتيت لها ، كما استخدمها داود وسليمان عليهما السلام ، وكما استخدمها ذو القرنين ، وذلك بسبب كفرها وصدّها عن سبيل الله تعالى ..

.. نحن البشر - جميعاً - سخر الله تعالى بين أيدينا الأسباب (ومفاتيحها) ضمن إطار خلافتنا في الأرض نتيجة حملنا للأمانة .. فهل جميع البشر (أفراداً وأماً عبر الزمن) تدبروا القوانين الكونية التي تحكم هذه الأسباب التدبر ذاته ؟ .. وهل جميع البشر استخدموا هذه الأسباب الاستخدام ذاته ؟ .. وحتى الذين تساووا في اكتشاف هذه القوانين وفي استخدامها ، هل جميعهم أدركوا حقيقة المسبب الذي يقف وراء هذه الأسباب ويسخرها بين أيدينا الإدراك ذاته ؟ ..

إن داود وسليمان عليهما السلام اللذين أوتيا من كل شيء ، كونهما نبيين استفادا أكبر استفادة من المفاتيح التي سُخِّرَت بين أيديهما ، وذلك على نقيض من ملكة سبأ ، وبعمق أكبر من استفادة ذي القرنين .. فكلمّا ارتقى الإنسان في خلاصه لله تعالى ، كلما ارتقى أكثر في إدراك حقائق تسخير الأسباب بين يديه ، والعكس بالعكس ..

.. فداود وسليمان عليهما السلام اطلعا على كل أوجه الإدراك ، واحتمالاتها ما بين الكليات والجزئيات ، من أشف المخلوقات إلى أكتفها :

[١] - الاطلاع على الإدراك الإيجابي الخالص للكليات دون إدراك الجزئيات

، من خلال علاقتهما مع الملائكة عبر وحي الله تعالى لهما كونهما نبيين ..

[٢] - الاطلاع على الإدراك السلبي الخالص للكليات دون إدراك الجزئيات

، من خلال تسخير شياطين الجن للعمل بين يدي سليمان عليه السلام ..

[٣] - الاطلاع على الكلية الفطرية للكائنات التي تُدرك الجزئيات دون

إدراك الكليات ، وذلك من خلال تعلمهما منطق الطير ..

[٤] - الاطلاع على الكلية الفطرية للكائنات التي لا تُدرك الجزئيات ولا

الكليات ، من خلال تسبيح الجبال مع داود عليه السلام ..

[٥] - الاطلاع على الكليات التي هي نتيجة لإدراك الجزئيات كونهما من

البشر الذين يُدركون الجزئيات وينطلقون منها بعقولهم - كمقدمات - نحو إدراك الكليات ..

.. وهكذا نرى أنّ تسخير الجن للعمل بين يدي سليمان عليه السلام ، هو

الحلقة التي تُكمل مسألة الاطلاع - للبشر - على أوجه الإدراك المختلفة ،

واحتمالاتها ما بين الجزئيات والكليات .. وهو الحلقة التي تُكمل دوران المسألة من

أشف المخلوقات إلى أكتفها .. وهو الحلقة التي تُكمل الاستفادة الكاملة لداود

وسليمان (مجموع استفادتهما) من مفاتيح كل شيء ، تلك المفاتيح التي آتاها الله

تعالى إيّاها ..

فلو لم يتجسّد شياطين الجن للعمل بين يدي سليمان عليه السلام ، لافتقر عليه

السلام إلى الاطلاع على جانب الإدراك السلبي الخالص للكليات دون إدراك

الجزئيات ، ولافتقر إلى الاطلاع على حلقة تقع بين أشف المخلوقات وأكتفها ، ولما

اكتملت مسألة استفادته من جميع جوانب الإدراك بالنسبة للمفاتيح التي آتاها الله

تعالى إيّاه وداود عليهما السلام ..

إنَّ القصص القرآنيَّة ليست مجرد سرد تاريخيٍّ ، من أجل عِبَرٍ محدَّدة لا تخرج عن إطار إدراكنا المحدود .. إنَّها تفصيلٌ لكلِّ شيءٍ ، وإحاطةٌ للمسائل من بدايتها إلى نهايتها ..

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ
وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١]

.. وهكذا نرى أنَّ وجودنا في هذا العالم المحسوس يختلف عن وجود باقي المخلوقات ، فالعقل الذي نستخدمه في الربط بين إدراكنا للجزئيات وبين إدراكنا للكليات كنتيجة عن إدراك هذه الجزئيات ، يختصُّ به الإنسان فقط من بين جميع المخلوقات .. فجميع مشتقات الجذر (ع ، ق ، ل) في القرآن الكريم ترتبط بالإنسان حصراً ..

ولذلك يصف الله تعالى الذين لا يسمعون نداء الحقِّ ولا يعقلونه ، بأنَّهم كالأنعام ، التي تتفاعل مع الجزئيات فتأكل وتشرب دون أن تُدرك الكليات التي وراء هذه الجزئيات ..

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ [محمد : ١٢]

.. فالعبارة القرآنيَّة ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ لا تعني تحريم التمتع والأكل ، فالمؤمنون يتمتَّعون ويأكلون أيضاً ، إنَّما تعني أنَّ الكافرين يتفاعلون مع الجزئيات كالأنعام ، دون أن يُبصروا ما وراء هذه الجزئيات من كليات تقودهم إلى معرفة المسبَّب الذي يُسخَّر لهم هذه الجزئيات ، وإلى طاعته .. ولذلك يقول الله تعالى عنهم ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ ..

.. فالسمع الروحي للحقّ ، والتعقلّ ، يتبعان للنفس المجردة التي يتميّز في امتلاكها الإنسان عن باقي المخلوقات ، وبالتالي فهما وسيلتان لإدراك الكليات التي تكمن وراء الجزئيات التي نُدرِكها وتتفاعل معها نحن والحيوانات ..

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ۗ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۗ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۗ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾
[الفرقان : ٤٣ - ٤٤]

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠]

.. وهكذا .. لما كان الإنسان هو الكائن الوحيد الذي اختار حمل الأمانة ، وبالتالي الخلافة في عالم الجزئيات ، كان الوحيد الذي أُختصّ بالعقل ..
.. ولما كان الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتّصف بالزوجية التي تجمع النفس المجردة مع الجسد المادّيّ ، فإنه الوحيد - من بين جميع المخلوقات - الذي يملك الزوجية في إدراكه للكليات والجزئيات على حدّ سواء ، والوحيد الذي يملك الإرادة والمشية ..



مركز الذِّكْر

لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

موقع :

الكاتب والمفكر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

عالم الجن و بعض الشبهات

.. عالم الجن حقيقةً أكّدها الله تعالى في الكثير من آيات كتابه الكريم ، عبر نصوصٍ صريحةٍ لا تختمل أيّ تأويلٍ لإنكار هذا العالم ، وعبر إحاطة كاملة بهذه المسألة ، بحيث تُسقط أيّ تأويلٍ فاسدٍ خارج حقيقة دلالات النصوص القرآنية ..

.. ولكنّ بعضهم انحرف عن حقيقة ما يحمله القرآن الكريم من أدلّة ومعانٍ لهذه المسألة ، وفق محورين متعاكسين .. فمنهم من ذهب إلى تصوّر كائنات هذا العالم تصوّراً حسياً ما أنزل الله تعالى به من سلطان ، عبر تلفيق الروايات والأساطير الخاصّة بهذه المسألة .. ومنهم من ذهب إلى إنكار وجود هذا العالم عبر تأويل النصوص القرآنية المصوّرة لهذه المسألة ، تأويلاً مُناقضاً حتى للحدّ الأدنى ممّا يدركه العقل من دلالات هذه النصوص ، كما سنرى - إن شاء الله تعالى - في هذا الفصل ..

.. فستعرّض إلى بعض الشبهات ، فنبينها ، ونبيّن حقيقة ما يحمله القرآن الكريم من أدلّة ومعانٍ تُزيل هذه الشبهات ..

.. وهذا لا يعني أنّنا بردّنا على هذه الشبهات نُدافع عن التصرّوات الخرافيّة ، التي يُقدّمها بعضهم - عن مسألة الجن - على أنّها من منهج الله تعالى معتمدين في ذلك على بعض الروايات والأقاويل .. إنّ كلّ ما لا يحمل له القرآن الكريم تبيّناً ، يُعتبر مسألةً ظنيّة خاضعة للعقل المتدبّر لكتاب الله تعالى ، ولا يُكفّر أو يُلام من لا يعتقد بها ..
وفي ردّنا على هذه الشبهات سننطلق وفق منهجيّة ثابتة تعتمد على الأسس التالية :

[١] - القرآن الكريم كلٌّ لا يتجزأ .. وبالتالي فكلُّ صورة قرآنيّة لأيّ مسألة - كمسألة الجنّ - تُفهم دلالاتها بالنظر إليها من مناظير الصور القرآنيّة الأخرى التي تصوّر الجوانب الأخرى لهذه المسألة ..

[٢] - عدم تجزئة دلالات القرآن الكريم لأيّ مسألة ، ولأيّ كلمة قرآنيّة ، لأنّ تجزئة هذه الدلالات تجعل منها متعارضة ما بين النصوص القرآنيّة ، للمسألة ذاتها ..

[٣] - كلُّ تأويلٍ لأيّ كلمة قرآنيّة يتعارض مع ظاهر دلالاتها ومعانيها ، هو تأويلٌ فاسدٌ .. فالعمق الباطن للكلمة القرآنيّة ((ومجازاتها على مذهب من يعتقد بالمجاز)) لا يتعارض أبداً مع عمقها الظاهر ، بل يتكامل معه ..

[٤] - قواميس اللغة العربيّة ليست حُجّةً على كتاب الله تعالى ، لأنّ هذه القواميس تأخذ المأخذ ذاته بجميع مفردات اللغة العربيّة والتي منها ما هو وضعيّ اصطلاحى من صنع البشر ، وهي بذلك لا تُميّز بين المفردة القرآنيّة كمفردة فطريّة موحاة من الله تعالى ، وبين المفردة الوضعيّة ..

.. ولذلك فإنّ استعمال العرب المجازي للمفردة القرآنيّة - سواءً قبل نزول النصّ القرآنيّ أم بعد نزوله - وفق دلالات تتبع لإدراكهم الحضاريّ في عصرٍ ما ، لا يعني أبداً أنّ هذا الاستعمال أصبح حُجّةً على دلالات هذه الكلمة في كتاب الله تعالى .. إنّ العكس هو الصحيح ، فدلالات الكلمة في القرآن الكريم ، هي الحُجّة والمعيار للدلالات هذه الكلمة في قواميس اللغة العربيّة ..

[٥] - القرآن الكريم بكليّته معيارٌ لمعرفة كون الكلمة القرآنيّة اسم ذات أم اسم صفة ، مع ضرورة تقديم البرهان القرآنيّ في ذلك ..

.. ونحن في تبياننا لهذه الشبهات ، وفي الردّ عليها ، لا نُوجّه كلامنا لفردٍ محدد ، ولا نتقصّ من أيّ كان ، ولا نحملُ للجميع إلاّ المودّة ، فنحن نتفاعل مع المسألة كفكرٍ مجردٍ عن أيّ قيمة شخصيّة ..

.. والذين أثاروا هذه الشبهات أكثر من شخصٍ ، وبأساليب مختلفة .. وردنا على هذه الشبهات هو فكرٌ نقدّم برهانه من كتاب الله تعالى ، ولا نعيّ به أحداً بعينه ، ولا

مانع عندنا من نقده من قبل الآخرين بالحجّة القرآنيّة .. وإتّنا نعتقد أنّه بالحوار والنقد البناء المعتمد على البرهان والعقل والمنطق ، يُنقى الفكر الإسلامي ، وبالتالي يتطوّر ، ويقترّب أكثر من مراد الله تعالى في كتابه الكريم ..

.. ولما كان الذين أثاروا هذه الشبهات أكثر من شخص ، ولهم في المسألة الواحدة أكثر من تصوّر ، فيها من الاختلاف ما قد يصل إلى درجة التناقض ، ولما كان ردّنا يشمل أهم هذه التصورات ومعظمها ، فمن الطبيعي أن يكون ردّنا على بعض الشبهات في مسألة ما ، لا علاقة له بالشبهات التي يطرحها بعضهم الآخر في المسألة ذاتها ..

.. ينطلق مثيرو هذه الشبهات من اعتبار كلمة الجنّ اسم صفة وليست اسم ذاتٍ لجنسٍ محدّدٍ من المخلوقات .. فيستشهدون ببعض قواميس اللغة العربيّة ، على أنّ العرب أطلقوا بعض مشتقّات هذه الكلمة على بعض المسائل ، وذلك كتوظيف لصفة الاختفاء والستر عن النظر ، التي تحمل دلالاتها كلمة الجنّ ومشتقّاتها ..

.. هذا الخلط بين أسماء الذات وأسماء الصفات ، وتوظيف هذا الخلط باتجاهاتٍ ونتائجٍ مُسبقة الصنع ، يؤدّي إلى تحميل الكلمات القرآنيّة والجملة القرآنيّة معاني ودلالات ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، بحيث تُوافق الوجه المراد من هذه الأهواء ..

إنّ الكلمة القرآنيّة التي تُسمّى أيّ مسألةٍ كاسم ذات ، هي في الوقت ذاته اسم صفة لهذه الذات ، وذلك من كَوْنِ هذه الكلمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعاني والدلالات التي يحملها الجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه .. ولكنّ اسم الذات يصف جوهر المسألة من الزاوية التي ينفرد بها صاحب المسألة عن غيره من الذوات الأخرى ..

.. بينما أسماء الصفات تصف جانباً من الجوانب التي تتّصف بها المسألة الموصوفة ، وقد يصف اسم الصفة أكثر من مسألةٍ واحدة .. بينما اسم الذات لا يُسمّى إلاّ المسألة التي هو اسم ذاتٍ لها ..

.. فكلمة ﴿الله﴾ كاسم ذاتٍ لله تعالى ، لا تخرج عن إطار جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ، فهي في الوقت ذاته تصوّر صفة الألوهية التي يتّصف بها الله تعالى .. ولكن هذه الكلمة لا ترتبط إلا بالذات الإلهية ..

.. ولكن أسماء الصفات لله تعالى ، والتي تصف الذات الإلهية ، قد يكون بعضها أسماء صفات لذواتٍ أخرى .. فصفة ﴿المؤمن﴾ - مثلاً - التي تصف الذات الإلهية كما بيّن القرآن الكريم ، هي في الوقت ذاته اسم صفة يتعلّق به البشر ، ويتّصفون به بنسبٍ تتعلّق بدرجات إيمانهم ..

.. عندما نقول ﴿المؤمن﴾ فإننا نعني صفةً يتّصف بها الله تعالى ، ولا يتّصف بها بهذه الصيغة بأل التعريف إلا الله تعالى ، فكلمة ﴿المؤمن﴾ لم ترد في كتاب الله تعالى إلا صفةً لله تعالى .. ولكنها بصيغة النكرة ﴿مؤمن﴾ ترد وصفاً لبعض البشر ، فأيّ إنسان مكلف يتّصف بما يتناسب ودرجة طمأنينته ، ولذلك فمجموع البشر المتّصفين بهذه الصفة ﴿مؤمن﴾ ، تصفهم في كتاب الله تعالى كلمة ﴿المؤمنون﴾ ..

.. فإذا أردنا معرفة حقيقة الكلمة القرآنية ، هل هي اسم ذاتٍ أم اسم صفة ، علينا أن ننظر إلى بيان القرآن الكريم لماهية المسألة التي تصفها هذه الكلمة ، وفق المعيارين التاليين :

[١] - هل يصفها القرآن الكريم وصفاً مرتبطاً بماهيتها التي تميّزها عن غيرها ؟ .. وكذا لها حدودها التي تميّزها عن غيرها ؟ .. وإذا خاطب الله تعالى صاحب هذه المسألة (عبر هذه الكلمة) هل يُخاطبها بأداة النداء ؟ ..

[٢] - هل وصفُ الكلمة القرآنية للموصوف لا يتعارض مع جنس العالم الذي ينتمي إليه ، وذلك من زاوية ماهية الوجود ؟ ..

.. وفي مسألة الجنّ نرى أنّ الكلمات ((الجنّ ، الجانّ ، الجنّة)) متفرّعة عن الجذر (ج ، ن ، ن) ، وبالتالي فإنّ دلالاتها لا تخرج عن الدلالات والمعاني التي يحملها هذا الجذر ... ولنضع هذه الكلمات في المعيارين اللذين ذكرناهما ، لنعرف هل هي أسماء ذاتٍ لجنسٍ محدّدٍ من المخلوقات ، أم أسماء صفاتٍ لبعض البشر كما يذهب مثيرو هذه الشبهات ..

.. إذا كانت هذه الكلمات أسماء صفاتٍ لبعض البشر - كما يزعمون - وبأنّها تعني : المستترين ، والغائبين ، والغرباء ، والناشطين في الخفاء ، والأثرياء ، والقادة ، وأصحاب القوّة والنفوذ والسلطان ، والبشر الذين وُجدوا قبل التاريخ .. فإنّ ذلك يعني أنّها صفاتٌ معنويّةٌ واجتماعيّةٌ لهؤلاء البشر ، أي صفات لا ترتبط بماهيّة الخلق وإنّما ترتبط بإرادتهم ، وبدرجات الخير والشرّ داخل نفوسهم ، وبمجالهم الاجتماعيّة .. فمهايّة الخلق لجميع البشر واحدة ، جميعهم من دمٍ ولحمٍ وعظم ..

.. ولو نظرنا إلى القرآن الكريم لرأينا أنّه يصف بهذه الكلمات ذواتٍ محدّدةً، من زاوية خلقها ومهايّة وجودها ، وليس من زاوية صفاها المعنويّة والاجتماعيّة ..

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴾

[الرحمن : ١٤ - ١٥]

.. فالعبارة القرآنيّة ﴿ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴾ تصف حقيقة كينونة الخلق ومهايّته بالنسبة للجانّ ، كما أنّ العبارة القرآنيّة ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ تصف حقيقة كينونة الخلق ومهايّته بالنسبة للإنسان .. ولا تصف هاتان العبارتان صفاتٍ معنويّةً أو اجتماعيّةً ، ولا بأيّ شكلٍ من الأشكال ، فتكرار كلمة خلق : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ ، ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ ﴾ ، يزيد في تبيان خلقين متمايزين في المهيّة .. ولذلك لا يمكن لكلمة ﴿ الْجَانَّ ﴾ أن تكون اسم صفة معنويّة أو اجتماعيّة لبعض البشر ، وبالتالي هي اسم ذاتٍ لجنسٍ خاصٍّ من المخلوقات ، مخلوقٍ من المهيّة الناريّة ..

.. ولذلك حينما يُخاطب الله تعالى هذين العالمين المستقلين بماهيّة الخلق ، يُخاطبهما بأداة النداء كعالمين لكلّ منهما حدوده الخاصّة من ماهيّة الخلق ..

﴿ يَمَعَشَرِ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ [الأنعام : ١٢٨]

﴿ يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار : ٦]

.. إنّ القرآن الكريم يصف الذوات التي تسمّيها كلمتا الإنسان والجان ، وصفاً يتعلّق بماهيّة خلق كلّ عالمٍ من هذين العالمين المتميّزين تماماً في الخلق ، وببداية الخلق ..

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ

مِنْ نَّارِ السَّمُومِ ﴾ [الحجر : ٢٦ - ٢٧]

فإضافة إلى أنّ الجانّ خلق من ماهيّة متميّزة هي النار ، خلّق قبل الإنسان الذي خلّق من ماهيّة ماديّة أكثر من ماهيّة خلق الجانّ .. والقرآن الكريم لم يصف ماهيّة الخلق من النار إلاّ للجانّ ، ولم يصف ماهيّة الخلق من الصلصال كالفخار إلاّ للإنسان ..

.. قالوا : إنّ العبارة القرآنيّة ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ ، والعبارة القرآنيّة ﴿

مِنْ نَّارِ السَّمُومِ ﴾ ، هما على سبيل الاستعارة .. وأنّ هاتين العبارتين تُفهمان بمعانيهما المجازيّة ، وأنّهما تتحدّثان عن خلق طبيعة الإنسان ، وليس عن خلق جسده .. وإنّ قوله تعالى ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ ﴾ يُفيد أنّ طبيعة الإنسان القديم اختلفت عن طبيعتنا ، فالإنسان القديم ((الجانّ في هذه الصورة القرآنيّة كما يذهبون)) كان حادّ الطبع ملتبس الأفكار مضطرباً في تصرّفاته ..

.. فكلمة ﴿ وَالْجَانَّ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ

السَّمُومِ ﴾ ، أطلقها الله تعالى - حسب زعمهم - على إنسان ما قبل التاريخ ((إنسان

العصور الحجريّة)) وعلى إبليس أيضاً ، فالبشر آنذاك كانوا يختفون في الكهوف ..

.. فالصورة القرآنية ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** ﴾ التي هي على سبيل الاستعارة ، يُفهم منها أنّ الصفة الطبيعية للإنسان في هذه المرحلة ، أعدت بتأثير تعاليم آدم عليه السلام الذي ابتداءً تاريخها ، فالخلق من صلصالٍ يتعلّق بتكوين طبيعة هذا الإنسان الذي يُلبّي صوت السماء ..

.. نقول : عن أيّ مجازٍ يتحدثون ؟ .. فهل المجاز (الذي يتخيّلونه) يُعطي الكلمة القرآنية ذاتها معاني متناقضةً حسب الأهواء المختلفة ؟ .. فإذا كانت كلمة الجنّ في الصورة القرآنية ﴿ **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ** ﴾ تعني إنساناً ما قبل التاريخ ، الذي كان محتفياً في الكهوف ، والأقرب إلى حياة التوحّش ، وذلك قبل أوّل الرسل (آدم) عليه السلام ، حيث تعاليم آدم عليه السلام كانت - كما يقولون - في بداية مرحلة الإنسان الذي يُلبّي صوت السماء .. فهذا يعني - بناءً على قولهم - أنّ الموصوفين بكلمة الجنّ غير مكلفين ، لأنهم متوحّشون من جهة ، ولأنّه لم يُترّل الله تعالى عليهم رسلاً من جهةٍ أخرى ، فأدم هو أوّل الرسل ، وبالتالي فالجانّ سوف لا يُسألون عن ذنوبهم ، وسوف لا يدخلون الجنة ، ولا النار .. إن كان الأمر كذلك ، فكيف نفهم قول الله تعالى : ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ** ﴾ [الرحمن : ٣٩] !!؟ ..

.. فالجانّ سيُسأل يوم القيامة هو ذاته عن ذنبه ، والمذنب (من الإنس كان أم من الجنّ) لا يُسأل إنسٌ غيره عن ذنبه ولا جان .. والجان منه من يدخل الجنة ، وبالتالي فعالم الجنّ عالمٌ مكلفٌ ، وبالتالي أتته رسلٌ من عند الله تعالى ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ [الاسراء : ١٥] ، وبالتالي فتأويلهم لكلمة الجنّ غير سليم .. أمّا أن تُفصّل دلالات مختلفة للكلمة ذاتها حسب الأهواء المسبقة الصنع ، فهذا عين الخروج على منهج التدبّر السليم لكتاب الله تعالى ..

وجعلوا مقابلةً بين الصورتين القرآنتين التاليتين :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعْرَجِينَ ﴾ [الحجر : ٢٤]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ

مِنْ نَّارِ السُّمُورِ ﴾ [الحجر : ٢٦ - ٢٧]

.. فجعلوا الصورة القرآنية : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ﴾ متعلقة بالصورة

القرآنية : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السُّمُورِ ﴾ .. وجعلوا الصورة القرآنية : ﴿

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعْرَجِينَ ﴾ متعلقة بالصورة القرآنية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .. فالجانّ (إنسان ما قبل التاريخ حسب ما يزعمون) -

هنا - هم المستقدمون ، والإنسان - هنا - هم المستأخرون ..

.. ونردّ على ذلك فنقول : لماذا يتمّ تجاهل كلمة ﴿ مِنْكُمْ ﴾ في العبارة القرآنية ﴿

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ﴾ !!!؟ فالمستقدمون الذين تعنيهم الآية الكريمة

مُخَاطَبُونَ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ الْقُرْآنِيَّةِ ، كما هو الحال بالنسبة للمستأخرين ، فهل من

الممكن أن نتصوّر أنّ الله تعالى يُخاطب بالصورة القرآنية ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ

مِنْكُمْ ﴾ بشراً متوحّشين غير مكلفين لا يعقلون ولا يعرفون الله تعالى ولا منهجه !!!؟ ..

ثمّ إنّ ورود كلمة ﴿ الْمُسْتَقْدِمِينَ ﴾ بهذه الصيغة دون كلمة (الأقدمين) ، أو (

الأولين) ، وورود كلمة ﴿ الْمُسْتَعْرَجِينَ ﴾ دون كلمة (الآخرين) ، يزيد في تبيان

ابتعاد تأويلهم عن الدلالات الحقيقيّة للصور القرآنية التي يستشهدون بها على شبهاتهم ..

ويقولون : إنّ كلمة بشر تُستعمل مقابل كلمة إنس ، أي أنّ هذا المخلوق الإنسان

كان بشراً في عصوره الحجرية القديمة ، بمعنى أنّه كان إنساناً هو أقرب إلى حياة التوحّش

منه إلى حياة المدنيّة والتحضّر .. فكلمة إنسان - حسب ما يذهبون - تُعبّر عن المخلوق

(البشر) الذي تطوّرت جميع زوايا حياته اليوميّة ، وأصبح مهذباً وتمدناً يأنس إلى وجود خالقه كما يأنس إلى التعامل مع بني جنسه ..

.. نقول : إذا اعتمدنا تأويلهم لكلمة بشر معياراً لإدراك دلالات هذه الكلمة في

كتاب الله تعالى ، فكيف بنا أن ندرك دلالات الصور القرآنيّة التالية :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ [آل عمران : ٤٧]

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الكهف : ١١٠]

﴿ فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَمَا تَرَيْنَ ۚ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي ۖ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ

صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٦]

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ٣١]

.. كيف يتمّ لباس الكلمات القرآنيّة دلالات ما أنزل الله تعالى بها من سلطان !!!؟

.. وكيف يتمّ تحميل الكلمة القرآنيّة الواحدة معاني متناقضة لا يربطها ببعضها أيّ رابط

.. !!!؟

ويقولون : حينما يأتي وصف القرآن الكريم للخلق من تراب ، فهو يعني الجانب

الجسدي ، بينما حينما يأتي للخلق من حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار فإنه يعني

صفات معنويّة اجتماعيّة تتعلّق بطبيعة الإنسان ، ولا يعني مراحل الخلق الجسديّة ..

.. نقول : إن وصف القرآن الكريم لخلق الإنسان من التراب ، ومن الطين ، ومن

الحمأ المسنون ، ومن الصلصال كالفخار ، هو وصفٌ لمراحل خلق جسد آدم ، بدليل

ذكر هذه المراحل للموقف ذاته .. لننظر إلى الصورتين القرآنيّتين التاليتين :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۗ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ

مِن طِينٍ ﴾ [لأعراف : ١٢]

﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ ۖ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر :

ولننظر إلى الصور القرآنية التالية :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٦]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِمْ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠]

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن : ١٤]

ولننظر إلى الصورتين القرآنتين التاليتين :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمٍ مَسْنُونٍ ﴾

[الحجر : ٢٨]

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ [ص : ٧١]

.. من الواضح وضوح الشمس وسط النهار أن الآيات الكريمة تصوّر الجوانب المختلفة لمراحل خلق جسد آدم عليه السلام ، فمن المعلوم أنّ التراب إذا أضيف إليه الماء أصبح طيناً ، وإذا تُرك الطين حتى تُصبح له رائحة أصبح بحالة الحمأ المسنون ، وإذا ترك حتى يتصلّب أصبح بحالة الصلصال كالفخار ..

.. ويقولون في العبارة القرآنية ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ بأنّ الله تعالى يصف طبيعة البشر من (المستقدمين) ، وبأسلوب الاستعارة أيضاً ، ليخبرنا بأنّ طبيعة البشر في عصوره الحجرية كانت ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ ، أي تشتعل غضباً لأتفه الأسباب ، وتترك آثاراً أليمة تنفذ من سموم الإنسان ، أي من منافذه المعروفة ، وكأته جلّ وعلا من خلال هذه الاستعارة ، قد قال بألفاظ أخرى بأنّ البشر في عصوره الحجرية كان متوحّشاً وبعيداً عن التمدّن والتهديب ..

.. نقول : هذا التأويل يتبيّن سقوطه واضحاً جلياً من سقوط التأويلات التي سبقته .. وإنّ المنهج السليم لإدراك دلالات هذه الصورة القرآنية هو النظر إليها من منظار

الصورة القرآنية ﴿وَحَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ .. فمن الواضح أنّ النار هي ماهية الخلق ، وليست استعارةً أو مجازاً لصفاتٍ معنويةٍ كما يزعمون ..

.. وأول بعضهم الصورة القرآنية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦ - ٢٧] .. فقالوا : إنّ الأثرياء أصحاب النفوذ والسلطان من الناس (الجنّ حسب زعمهم) تجمعهم صفات الطموح والنشاط والجذب ، كما هي صفات النار الطامحة صعوداً ، والجذابة بلوغها وشكلها ودفنها ..

.. ونردّ على ذلك فنقول : كيف يتجاهلون الكلمتين ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الصورة القرآنية ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ ؟ .. فهل الأثرياء وأصحاب النفوذ خلقهم الله تعالى قبل العمامة من الفقراء والمحكومين !!؟ .. أيّ عقلٍ يمكنه أن يتصوّر ذلك ؟ ..

.. وكيف يتمّ تجاهل حقيقة دلالات الكلمتين ﴿خَلَقْنَا﴾ ، ﴿خَلَقْتَهُ﴾ اللتين تبيّنان ماهية الخلق والتكوين ، لا صفاتٍ معنويةٍ كما يذهبون .. إنّ الصفات المعنوية والاجتماعية التي يتحدثون عنها ، ليست ملازمةً للإنسان في كامل حياته .. والله تعالى حينما يقول : ﴿خَلَقْنَا﴾ ، ﴿خَلَقْتَهُ﴾ ، فإنه يعني صفاتٍ ثابتةً مستمرةً على مدار حياة الإنسان ، وعلى مدار حياة الجنّ ، تتعلّق بماهية الخلق التي تُلازم المخلوق ، ولا يستطيع التحرّر من قانونها ..

.. لقد رأينا سابقاً كيف أنّ وصف الجنّ في القرآن الكريم ينسجم تماماً مع الماهية النارية ، كماهية خلق ، وليس كماهية معنوية أو اجتماعية ، وذلك عبر عدم امتلاك الجنّ للمشية .. وأنّ وصف الإنسان (الجسد) في القرآن الكريم ينسجم تماماً مع الماهية المادية الكثيفة كماهية خلق ، وليس كمجرد ماهية معنوية أو اجتماعية ، وذلك عبر امتلاك الإنسان (نفس + جسد) للمشية ..

ورأينا أيضاً أنّ كلمتي الجنّ والإنس تصفان عالمين مستقلّين في ماهية الخلق ، استقلالاً يستمرّ في الآخرة .. وهذا يؤكد أنّ الوصف هو لماهية الخلق ، وليس لصفات معنوية أو اجتماعية ، تتغير من فترة إلى أخرى ..

.. من هذا كله نستطيع أن نجزم بأنّ الكلمات ((الجنّ ، الجنان ، الجنة)) هي أسماء ذات ، ولا يمكن ولا بأيّ وجه من الأوجه أن تكون أسماء صفات لبعض البشر كما زعموا ..

وفي الآية الكريمة التالية .. ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٠] .. قالوا : الله تعالى يُخبر بهذه الآية أنّ الاعتقاد بوجود عالمٍ شبحيٍّ مخلوقٍ يقوم بخوارق الأعمال ولا تراه الأعين هو عقيدة وثنية ، واستدلّوا بالعبارة القرآنية ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ، عبر قرن الله تعالى بين اعتقاد المشركين بوجود ﴿ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾ ، وبين اعتقادهم بوجود الجنّ .. وقالوا إنّ كلمة ﴿ الْجِنَّ ﴾ في هذه الآية الكريمة تصف كائناً شبحياً يزعم بعض البشر وجوده ولذلك أطلقوا عليه اسم الجنّ ..

.. نقول : الله تعالى حينما يُورد كلمة في كتابه الكريم (ككلمة الجنّ مثلاً) ، فهذا يعني أنّها كلمة فطرية تصوّر حقيقة الشيء الذي تعنيه تصويراً مطلقاً ، من منظار علم الله تعالى المطلق بحقيقة هذا الشيء ، ولا تصوّر هذا الشيء من زاوية إدراك البشر له ، أو عدم إدراكهم .. فإذا كانوا يقولون إنّ كلمة ﴿ الْجِنَّ ﴾ هنا تعني كائناً شبحياً يتخيّل وجوده بعض البشر ، فقولهم هذا - في معيار المنهج السليم لإدراك دلالات كتاب الله تعالى - هو اعترافٌ منهم - سواءً أدركوا ذلك أم لم يدركوه - بوجود هذا الكائن الشبحي ..

.. أمّا قولهم إنّ الشرك (المعني هنا) هو الاعتقاد بوجود هذا الكائن الشبحي المسمّى باسم الجنّ ، فهو قولٌ مردودٌ .. فالشرك ليس بالاعتقاد بوجود الكائن الشبحي

(كما يزعمون) ، ولا بعدم وجوده ، إنّما الشرك هو يجعل هذا الكائن (شبحاً كان أم غير ذلك) شريكاً لله تعالى ، سواءً كان يعمل الخوارق أم لم يكن يعملها .. وبالتالي فإنّ استشهادهم بهذه الآية الكريمة على صحّة ما يذهبون إليه ، هو دليلٌ ضدّهم وليس لهم ..
.. ويقولون حينما تأتي كلمة الجنّ مقابلةً لكلمة الإنس ، في كتاب الله تعالى ، فإنّها تعني القادة والزعماء والأثرياء وأصحاب النفوذ من الناس ..

.. ونردّ على ذلك فنقول : ما دام الجنّ مخلوقاً من النار كما يؤكّد الله تعالى ، والإنس من التراب .. فهل أصحاب النفوذ والسلطان والزعماء والأثرياء تتغيّر ماهيتهم في الخلق من النار إلى التراب ، حين يفقدون نفوذهم وسلطانهم وثراءهم !!!؟ .. وهل العامّة تتغيّر ماهية خلقهم من التراب إلى النار ، إن أصبحوا أثرياء وأصحاب نفوذ وسلطان !!!؟ ..

.. وحتى لو طلقنا عقولنا واعتبرنا أنّ خلق الجنّ من النار يعني صفات معنويّة واجتماعيّة كما يؤوّلون ، فهل هذه الصفات ستستمرّ في الآخرة !!!؟ .. فقد بيّن القرآن الكريم لنا أنّ الجنّ سيدخلون الجنّة والنار كجنّ وليس كإنس ..
وبناءً على قولهم ، كيف نفهم الصورتين القرآنيّتين التاليتين اللتين تصفان لنا بعض الإنس والجانّ في الآخرة ..

﴿ فِيهِنَّ قَصِيرَاتٌ الْظُرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن : ٥٦]

﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ

إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن : ٧٢ - ٧٤]

.. إنّ قاصرات الطرف والهور هنّ في الآخرة ، ولا وجود لهنّ في الدنيا .. والطمث الوارد في هاتين الصورتين القرآنيّتين هو حصراً في الآخرة .. وفي الآخرة لا يوجد أصحاب نفوذ وسلطان ، ولا أثرياء ، ولا غرباء ، ولا عامّة .. ولا يوجد ما هو غائب ومستتر : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨] ..

.. وإذا كان الناس هم الفقراء والعامّة ، دون أصحاب النفوذ ، ودون الأثرياء ، فكيف بنا أن ندرك دلالات الصورتين القرآنيتين التاليتين ..

﴿ تَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ [النحل :

[٦٩

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ [الحجرات : ١٣]

فهل العسل الذي يخرج من بطون النحل فيه شفاءً للعامّة من الناس دون الأثرياء وأصحاب النفوذ ؟ !!!.. وهل العامّة دون أصحاب النفوذ هم فقط مخلوقون من ذكرٍ وأنثى ؟ !!!..

لا شكّ أننا حينما نطرح عليهم هذين السؤالين سيقولون : إنّ كلمة الناس هنا تتضمن الجنّ .. وهنا نسألهم السؤال التالي : لو فرضنا - جدلاً - أنّ الأمر كما تقولون (وهو ليس كذلك) ، فكيف تُثيرون بعض الشبهات - كما سنرى - بأنّ ورود كلمة الناس دون الجنّ في بعض الآيات الكريمة هو شبهة تنكرون من خلالها وجود الجنّ كعالمٍ مستقلٍّ ؟ !!!.. وأين هو المعيار والمنطق في فرز دلالات الكلمات ((الناس ، الإنس ، الإنسان)) ؟ .. فمرة تقولون إنّها تعني العامّة والحاضرين دون أصحاب النفوذ ودون الأثرياء ، ومرة تقولون إنّها تعني الجميع !!! ..

.. وإذا كانت كلمتا الإنس والجنّ تشيران إلى فارقٍ في الحالة الاجتماعية بين البشر ، كالسلطة والثراء والنفوذ ، وتشيران إلى الحاضرين والغائبين ، ولا تشيران إلى جنسين مختلفين لكلٍ منهما ماهيته الخاصة به ، فكيف ندرك دلالات الصورتين القرآنيتين التاليتين ؟ ..

﴿ يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءِآيَاتِي

﴾ [الأنعام : ١٣٠]

﴿ يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

فَأَنْفُدُوا لَا تَنْفُدُونَ إِلَّا بِإِذْنِ رَبِّكُمْ ﴾ [الرحمن : ٣٣]

فهل هناك رسلٌ للأثرياء وأصحاب السلطان والنفوذ والحاضرين ، وهناك رسلٌ للعامّة والغائبين !!؟ .. وهل هناك في العلوم الكونيّة وفي قوانين الفضاء علومٌ وقوانين خاصّة بالأثرياء وأصحاب النفوذ والحاضرين ، وعلومٌ وقوانين للعامّة والغائبين !!؟ ..

.. ويقولون في سورة الناس ، يأمرنا الله تعالى بالتعوّد : ﴿ رَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ

النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ ، فلماذا لم ترد الاستعاذة بربّ الجنّ ؟ .. ويقولون إنّ الناس

وحدهم معنيون في هذه السورة ، وكلمة ﴿ الْجَنَّةِ ﴾ في نهاية هذه السورة تعني فئة من

الناس .. أي أنّ الصورة القرآنيّة ﴿ الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِّنَ

الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس : ٥ - ٦] في نهاية هذه السورة تعني أنّ الناس هم الجنّة والناس

، أي : الناس = الجنّة + الناس ..

.. ونردّ على ذلك فنقول : إذا أخذنا معياركم وهو أنّ : الناس = الجنّة + الناس ،

فمن البديهي - بناءً على قولكم - أن يكون معنى كلمة ﴿ النَّاسِ ﴾ في بداية هذه

السورة : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ ، هو : الجنّة +

الناس ، أي - حسب ما تزعمون - يأمر الله تعالى بالتعوّد بربّ الجنّة والناس ، وبملك

الجنّة والناس ، وبإله الجنّة والناس .. فلماذا كلمة الناس في بداية السورة تعني الناس

حصراً (وهي كذلك) ، وفي نهايتها تعني : الجنّة + الناس !!!؟ .. فعلى أيّ ميزان نضع

هذه التصرّوات !!!؟ ..

.. وكيف يطلبون ممّا أن تكون الآيات الكريمة في بداية هذه السورة على الشكل (

قل أعوذ بربّ الجنّة والناس ، ملك الجنّة والناس ، إله الجنّة والناس) حتى يمتنوا علينا

بالاعتراف بوجود عالم الجنّ ، مع العلم أنّ سورة الناس هي دعوة للناس - حصراً -

للتعوّد من وسوسة عالمي الجنّة والناس ، وليست دعوة ليتعوّد عالم الجنّ من عالم الإنس ،

لأنّ عالم الإنس لا يستطيع أن يؤثّر في عالم الجنّ ، الذين لا نراهم أصلاً ..

وقد رأينا - في الفصل الأوّل - كيف أنّ الوسوسة (التي يأمرنا الله تعالى بالتعوّد منها في هذه السورة) لا تأتي في كتاب الله تعالى إلاّ مرتبطة بالشیطان وبالنفس ، لأنّها مسألة معنويّة .. وفي سورة الناس يؤكّد الله تعالى هذه الحقيقة ، فقوله تعالى ﴿ **مِنْ شَرِّ**

الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿١﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٢﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٣﴾

يعني أنّ الوسوسة في صدور الناس تأتي من طريقين ، هما طريق شياطين الجنّة التي تُوسوس في نفس الإنسان معنوياً ، دون أيّ حسّ مادّيّ ، وطريق شياطين الإنس التي توسوس في نفس الإنسان معنوياً ، عن طريق الفتن والنميمة وغير ذلك من الوسوسة ويثيرون فتنةً أُخرى فيقولون .. ما دام الناس وحدهم مع الحجارة ، هم وقود النار ، فكيف يدخلها الجنّ ؟ .. ويعتبرون ذلك دليلاً على عدم وجود عالم الجنّ ..

﴿ **فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ [البقرة : ٢٤]

﴿ **قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ [التحريم : ٦]

ونردّ على ذلك فنقول : لقد بيّنا - في الفصل الأوّل - الحكمة الإلهيّة من استثناء عالم الجنّ من مسألة الوقود .. فالجنّ من النار ، والنار ليست وقوداً ، والوقود هو الذي يتحوّل في النهاية إلى النار .. فكيف يريدون من النار أن تكون وقوداً ؟!!! .. إنّ في هذه المسألة دليلنا على أنّ عالم الجنّ ليس عالماً مادّيّاً حسّيّاً ، كأجساد الناس والحجارة .. ومن قال إنّ بعض أفراد عالم الجنّ لا يدخلون النار !؟ ..

﴿ **قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ** ﴾ [

الأعراف : ٣٨]

﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ** ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

وكيف تُوفّق بين قولهم .. إنّ كلمة الناس في العبارة القرآنيّة ﴿ **وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ تعني البشر حصراً (وهي كذلك) ، وبين قولهم في سورة الناس بأنّ

كلمة الناس تعني الجنّة والناس !!!؟ .. فلو أنّهم يعتمدون منهجاً يسرون عليه - مهما كان هذا المنهج - لما وقع التناقض في أقوالهم ..
.. وفي الصور القرآنيّة التالية :

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨]

﴿ وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾ [فصلت : ٢٥]
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٨]

.. يقولون : إنّ الحرف ﴿ مِنْ ﴾ في الصورة القرآنيّة ﴿ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ هو حرف (من) التفسيرية ، بمعنى أنّ الأمم التي كانت قبلكم مؤلفة من (الجنّ) وهم زعماء تلك الأقوام ، (ومن الإنس) وهم رعايا تلك الأقوام ..
ونردّ على ذلك فنقول : إنّ العبارة القرآنيّة ﴿ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ ، تصوّر لنا نوعي الداخلين في النار ، ولا تصوّر لنا الأمم السابقة كما يقولون ، والآية الكريمة التالية (التي استشهدوا بها) تُبيّن هذه الحقيقة بشكلٍ جليّ ..

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨]

.. وإذا كان معنى العبارة القرآنيّة ﴿ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ أنّ الأمم التي كانت قبلنا مكوّنة من زعماء تلك الأقوام (الجنّ) ، ومن رعايا تلك الأقوام (الإنس) ، كما يقولون ، فإنّ ذلك يقتضي أنّ هذه الأمم السابقة ﴿ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ قد

دخلت بأفرادها دون استثناء في النار ، من زعمائها إلى رعاياها ﴿ أُمِرَ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾ ، وهذا يُناقض حقيقة السنن ، فحتى قوم فرعون وُجد فيهم من يؤمن بالله تعالى .. ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ [غافر: ٢٨] ... وكلامهم يقتضي أيضاً أنّ الصورة القرآنية ﴿ أُمِرَ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴾ حشو لا فائدة منه ، لأنّ كلّ الأمم - في كلّ زمان ومكان وليس فقط الأمم الخالية - مكوّنة من زعماء ورعايا ، وهذا يُناقض حقيقة النصّ القرآني الذي صاغه الله تعالى صياغةً مطلقة ..

.. وفي الصورة القرآنية التالية :

﴿ وَاسْلُمْنَ الرِّيحَ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَاحُهاً شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنَّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٣﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [سبأ: ١٢ - ١٣]

يقولون : إنّ كلمة الجنّ - هنا - تعني الناس الأجانب ، والغرباء عن الوطن ، من باب أنّهم يظلمون في خفاء عن الأعين ، ولا يظهرّون إلّا حين التعامل معهم ، فتطلق كلمة (جنّ) بهذا المعنى مشتقة من جنّ بمعنى اختفى عن الأنظار ..

ويقولون .. أمامنا وسيلة واحدة لمعرفة هؤلاء الأجانب والغرباء عن موطن سليمان عليه السلام ، الذين أطلق الله تعالى عليهم هذه الصفة (الجنّ) .. هذه الوسيلة هي العودة إلى ما أخبر به كاتب سفر أخبار الملوك الأول في الإصحاح الخامس منه ، وهو أحد أسفار العهد القديم ، فموضوع هاتين الآيتين يعود - كما يقولون - إلى بناء هيكل سليمان المشهور ، وكاتب هذا السفر تكلم بإسهاب عن بناء هيكل سليمان ، وعمّن بناه ، وعن مواطن الذين بنوه ..

فاليهود الذين اشتهروا بالمغالاة فيما يروونه وينسبونه إلى تاريخهم ، لم يصدر عن مؤرّخيهم شيئاً من ذكر الجنّ (كعالم شبحي) في بناء هيكل سليمان عليه السلام .. وهكذا .. يستشهدون بعدم ذكر اليهود للجنّ في كتابتهم عن هيكل سليمان عليه السلام ، على عدم وجود الجنّ كعالم ناري لا نراه ، بعد الجزم بأنّ كلمة الجنّ في الصورة القرآنيّة ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۗ ﴾^ط تعني الغرباء الذين بنوا هيكل سليمان عليه السلام ..

نقول : من قال إنّ هذه الصورة القرآنيّة ، وسياق الكلام المحيط بها ، يصرّ لنا ببناء الهيكل المزعوم لسليمان عليه السلام !!!؟ .. وكيف تكون أسفار اليهود معياراً لحدود دلالات النصوص القرآنيّة ، والكلمات القرآنيّة !!!؟ .. وكيف يكون البشرُ الغرباء العاملون بين يدي سليمان في خفاءٍ عن أعين المجتمع !!!؟ ..

.. وكيف يُفسّرون لنا قول الله تعالى عن هؤلاء الجنّ .. ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنَّ أَمْرًا نُّدِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ !!!؟ .. كيف يكون البشرُ مُسخّرين للعمل بين يدي سليمان عليه السلام بأمرٍ مُباشرٍ من الله تعالى ، بحيث يذوقون عذاب السعير من الله تعالى ، في حال الابتعاد عن أمره الخاصّ بهذا التسخير !!!؟ .. وفي الآية الكريمة :

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَىٰ لَأَ تَخَفَ إِنِّي لَا تَخَافُ لَدَى الْمَرْسُلُونَ ﴾ [النمل : ١٠]

يقولون : استعمل الله تعالى كلمة ﴿ جَانٌّ ﴾ في هذه الآية الكريمة للحية البيضاء كحلاء العين ، وقد أتى بكاف التشبيه ، فشبّه العصا وهي تهتزّ كأنّها حية بيضاء تراءت لعيني موسى عليه السلام ، فولّى من خوفه منها ﴿ مُدْبِرًا ﴾ ..

نقول : إنّ استشهادهم بهذه الصورة القرآنيّة يدلّ على فساد تأويلاتهم من أوّلها إلى آخرها .. إنّ قول الله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ ليس تشبيهاً للعصا بالحية

البيضاء كما يقولون ، لأنّ العصا تحوّلت حقيقة وليس تشبيهاً إلى حيّة (ثعبان) ، وقد أدرك هذه الحقيقة سحرة فرعون ، ولذلك آمنوا ..

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٠٧]

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ [طه : ٢٠]

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : ٣٢]

.. فكاف التشبيه في قوله تعالى ﴿ كَانَهَا جَانًّا ﴾ في الصورة القرآنيّة ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا

بَهْتَرُ كَانَهَا جَانًّا ﴾ هو تشبيه للعصا التي تحوّلت حقيقةً إلى ثعبانٍ مُّبِينٍ ، بشيءٍ آخر غير

العصا وغير الثعبان ، وليست تشبيهاً للعصا بالحيّة البيضاء كما يقولون ..

وفي هذه الآيات الكريمة نرى أنّ هذه العصا وُصِفَتْ بِأَنَّهَا ﴿ حَيَّةٌ ﴾ ، ووُصِفَتْ

بِأَنَّهَا ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ .. وفي هذين الوصفين التمايزين العائدين إلى جذرين لغويين

مختلفين تصويرٌ مُطلقٌ يُبيّن مرحليّ تحوّل العصا ككائنٍ يابسٍ لا حياة فيه إلى ثعبانٍ مُّبِينٍ وهو من الزواحف المعروفة ..

إنّ الآية الكريمة ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ ، هي ضمن سياقٍ قرآنيٍّ يَصوّر

حواراً بين الله تعالى وبين موسى عليه السلام ﴿ وَمَا تَلَّكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴾ ٧ قال

هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيَّهَا وَأَهْشُرُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَقَارِبُ أُخْرَىٰ ٨ قال

أَلْقَاهَا يَمْوَسَىٰ ٩ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ١٠ قال خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سُنْعِيدُهَا

سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ١١ [طه : ١٧ - ٢١] .. وفي هذا السياق يُصوّر لنا القرآن الكريم مرحلة

تحوّل العصا ككائن جامد ميّت إلى حالة تدبُّ فيها الحياة وتسعى متحرّكة .. فكلّمة :

﴿ حَيَّةٌ ﴾ ليست اسم ذاتٍ للثعبان ، وليست اسم صفةٍ للثعبان ، إنّها تصفُ الحياة التي

دبت في العصا الميتة ، فتصوّر لنا مرحلة تحوّلها من حالتها الميتة إلى حالة تدبّ فيها الحياة فتسعى متحرّكة ..

بينما في الآيتين الكريمتين ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف :

١٠٧] ، ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : ٣٢] ، نرى أنّ السياق القرآني يُصوّر حواراً بين موسى عليه السلام وبين فرعون ، وبإمكان القارئ أن يعود إلى سورتي الأعراف والشعراء ليرى هذه الحقيقة .. وفي هذا السياق يُصوّر لنا القرآن الكريم مرحلة تحوّل تلك العصا إلى ثعبان مبين .. وكلّ ذلك وفق تصوير قرآني مُطلق يُصوّر لنا حقائق جليّة تُسقط تأويلاتهم من أساسها ..

ويثيرون شبهةً أخرى فيقولون .. إذا كان الجنّ منهم من آمن بالإسلام ، وبملاكون القوى الخارقة ، فلماذا لم ينصروا رسول الله ﷺ الذي آمنوا به ؟ ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. القوى الخارقة التي يملكوها ، هي في عالمهم وليس في عالمنا ، والأعمال التي قاموا بها ، رأينا أنّها خصوصيةٌ أُعطيت لسليمان عليه السلام ، فسخرهم ضمن إطار مشيئته .. وقد رأينا كيف أنّهم لا يملكون مشيئةً كالبشر ، أي لا يملكون تسخير الأسباب في عالم الجزئيات ..

.. وهذه الشبهة هي من أدلّتنا ضدّ مثيريها .. فالجنّ الذين آمنوا برسول الله ﷺ لم ينصروه نصراً مادياً فيقاتلون معه بالسيف ، لأنّهم من الجنّ ، أي لأنّهم من عالمٍ آخر .. وهنا نسأل مثيري هذه الشبهة فنقول لهم : إذا كان الجنّ هم الأثرياء وأصحاب النفوذ والغائبون ، كما تزعمون ، ونحن نعلم أنّ الكثير من هؤلاء نصر الرسول ﷺ وقاتل معه بالسيف .. فكيف يستقيم تعريفكم للجنّ مع هذه الحقيقة؟! .. ألا ترون أنّ شبهتكم هذه هي دليلٌ لنقض تعريفكم للجنّ من أساسه ؟ ..

.. ويقولون .. الإنس والجنّ سيدخلون النار والجنّة كما يؤكّد القرآن الكريم ، وهذا نتيجة أنّهم مُكلّفون .. وإذا كان الجنّ عالماً آخر غير عالم الإنس ، فلماذا يحصر الله تعالى حمل الأمانة بالإنسان ، في الآية الكريمة التالية ..

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

ونردّ على ذلك فنقول .. لقد بينا بما فيه الكفاية ، أنّ الأمانة المعروضة التي حملها الإنسان هي الائتمان على دفع الأسباب باتجاه المراد ، وبالتالي هي خلافة المؤمن لله تعالى في الأرض .. ولذلك بعد انتهاء هذه الخلافة يرث الله تعالى الأرض بعد أن يترع سلطان المؤمن على هذه الأسباب .. ﴿ إِنَّا لَحُنَّ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : ٤٠] .. وإنّ امتلاك الإنسان لأمانة التكليف هذه ، لا يتعارض أبداً مع كون عالم الجنّ مكلفاً تكليفاً يتناسب مع ماهية خلقه ، وهو - كما رأينا - التفاعل مع الكليات دون الجزئيات ..

ونقول لهؤلاء .. لقد انطلقتم في شبهة أخرى - كما رأينا - من أنّ كلمة الناس تتضمن عالم الجنّ ، فقلتم : الناس = الجنّة + الناس .. وهنا لو وضعنا شبهتكم هذه معياراً لقولكم ، فلماذا لا تكون كلمة الإنسان الواردة في آية حمل الأمانة متضمنةً للجان أيضاً ؟ !!! .. هي ليست كذلك .. ولكن ما تُريد أن تُبينه هو كيف أنّكم تُفصلون دلالات متعارضةً للكلمة القرآنية ذاتها ، فحسب الشبهة التي تريدون طرحها ، تُفصلون الدلالات دون أيّ معيار ..

.. ويطرحون شبهةً أخرى فيقولون .. لا بدّ أن يكون الرسول من جنس من أُرسِل إليهم ، والرسول محمد ﷺ رسولٌ إلى عالمي الإنس والجنّ ، ولذلك - كما يقولون - لا بدّ أن يكون الجنّ من بني آدم ، وبالتالي ليسوا كائناتٍ شبحيةً ، ويستشهدون بالآية الكريمة ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٥]

.. ونردّ على ذلك فنقول : كلمة الرسول تعني حامل الرسالة .. وما بين المرسل والمرسل إليه قد يكون هناك أكثر من رسولٍ لإيصال هذه الرسالة ، وذلك حسب العوالم المختلفة التي يتعد بها المرسل إليه عن المرسل ، وحسب ماهية الإرسال ..
 .. الله تعالى فوق المادة والمكان والزمان ، ونحن ومحمد ﷺ بشرٌ في هذا العالم الماديّ ..
 .. لذلك فإنّ الرسول الأوّل في حمل رسالة الله تعالى إلينا هو جبريل عليه السلام ، الذي أوصل هذه الرسالة إلى الرسول محمد ﷺ ..

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

﴿ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥]

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩٦﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٩٧﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ

﴿ [التكويز : ١٩٦ - ٢١] ﴾

وبعد ذلك كان الرسول محمد ﷺ حاملاً الرسالة من جبريل عليه السلام إلينا نحن البشر ، فرسالة الله تعالى إلينا مرّت عبر جبريل عليه السلام .. وهنا نسأل مثيري هذه الشبهة فنقول لهم : هل جبريل الذي حمل رسالة الله تعالى إلى محمد ﷺ هل هو من البشر .. !!!؟

.. فكون الرسول محمد ﷺ رسولاً للناس كافة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾

[سبأ : ٢٨] ، ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف :

١٥٨] ، لا ينفي استماع الجنّ للقرآن الكريم ، ولا ينفي الإيمان بالكليات التي جاء بها .. والقرآن الكريم يبيّن لنا أنّهم سمعوا القرآن الكريم وآمنوا به ونقلوه إلى قومهم .. وإنّ كان تصوير القرآن الكريم بأنّ رسالة الرسول ﷺ للناس كافةً وجميعاً ، دون ذكر اسم الجنّ في هذين النصّين ، دليلاً على عدم وجود الجنّ ككائنات أُخرى غير البشر ، فإنّ ذلك اعترافٌ منهم على أنّ الجنّ غير البشر ، وإن كانوا لا يُريدون هذه النتيجة ..

.. فكيف يكون عدم ورود الجنّ في هذين النصّين دليلاً على عدم وجود الجنّ (

ككائنات غير بشريّة) ودليلاً على وجودهم (كجزءٍ من البشر) ، في الوقت ذاته !!!؟

.. وهنا نسألهم السؤال التالي : إن كان الجنّ هم العامّة والتابعون والغرباء و فلماذا لم يُذكرُوا في هذين النصّين ؟!!! ، وإن كانت كلمة الناس تشمل الجنّ (حسب ما يذهبون) فلماذا يحتجّون بهذين النصّين ؟!!! ..

.. ومن قال إنّ محمّداً ﷺ قد خاطب الجنّ ورآهم وتجاوز معهم ؟!!! .. الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن : ١] .. فهؤلاء الذين صرفهم الله تعالى لكي يسمعوا القرآن ، هم رُسل عالم الجنّ .. وقوله تعالى ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ دليلٌ على أنّ هؤلاء النفر من الجنّ كانوا مخفيين عن أنظار البشر وعن نظر الرسول ﷺ ، ولذلك يُعلم الله تعالى رسوله ﷺ بأمرهم عن طريق الوحي ..

.. ومثيرو هذه الشبهة يقولون : إنّ الجنّ المعيّ في هذه الصورة القرآنيّة ، هم بشرٌ جاؤوا خفيةً ، فاستمعوا إلى الرسول ﷺ فسمعوا القرآن منه ، وآمنوا به ، ونقلوا المنهج إلى قومهم ، دون أن يعلم بهم رسول الله ﷺ ، ودون أن يعلم بهم أحدٌ من الصحابة المحيطين برسول الله ﷺ .. ويقولون : إنّ معنى الآية الكريمة ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن : ٦] في سياق هذه الصورة القرآنيّة ، أنّ الإنس هنا تعني البسطاء من العامّة ، وأنّ الجنّ تعني الأغنياء وأصحاب النفوذ والسلطان ..

.. أعتقد أنّ ما قدّمناه في ردّنا على الشبهات السابقة ، يكفي للردّ على هذه الشبهة .. ولكن لنسألهم السؤال التالي : كم هو حجم هؤلاء الرجال من الجنّ (الإنس حسب تعريفهم) الذين أتوا إلى الرسول ﷺ ، واستمعوا منه القرآن الكريم ، ونقلوه إلى قومهم دون أن يراهم أحد ؟! .. حتى يستطيع عقلنا تصوّر شبهتهم هذه لا بدّ أن يكون حجم كلّ واحدٍ من هؤلاء الرجال أصغر من حجم الذبابة !!! .. ويقولون .. الأحكام الفقهيّة المتعلقة بالبشر كأحكام العدة والحيض والنفاس و ، هي أحكامٌ للإنس ، فكيف يُطالب بها الجنّ إن كانوا مخلوقاتٍ شبحيّة ؟ ..

ونردّ على ذلك فنقول .. من قال إنّ هذه الأحكام يُطالب بها الجنّ ؟ .. إذا كانت هذه الأحكام ذاتها لا تنطبق على بعض المسلمين البشر ، حينما يخضعون لبعض الخصوصيّات .. لقد بينّا أنّ عالم الجنّ لا يُدرك الجزئيّات ، وهذه الأحكام لا تخرج عن ساحة الجزئيّات .. فهذه الأحكام كلّها تتعلّق بالمادّة ، أي بعالم المشيئة ، وقد بينّا أنّ الجنّ لا يملكون مشيئة ، وكلّ ما يملكونه هو الإرادة .. وهل القرآن الكريم يقول لنا إنّ عالم الجنّ مطالبٌ بالأحكام المرتبطة بالجزئيّات المادّيّة ، حتى يُثيروا هذه الشبهة !!؟ .. ألا تُوجد في القرآن الكريم أحكامٌ تتعلّق بالكليّات ؟!!! ..

.. وفي الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ۗ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام : ١٢٨]

﴿ يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ﴾ [الأنعام : ١٣٠]

.. يقولون : إنّ هاتين الصورتين تبيانٌ على أنّ الجنّ والإنس في حالة معايشة دائمة ، وأنّهم يعيشون في بيئةٍ واحدةٍ متّصلةٍ زماناً ومكاناً ، وبالتالي فهم من جنسٍ واحدٍ .. ونردّ على ذلك فنقول .. من قال إنّ هاتين الصورتين تحمّلان ما تذهبون إليه ؟ .. فقد بينّا بما فيه الكفاية أنّ كلمة الجنّ لا يمكن أن تعني إلاّ الكائنات المخلوقة من الماهيّة النارية ، والتي لا نستطيع رؤيتها ..

ومن قال إنّ العبارة القرآنيّة ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ ، لا تعني إلاّ الاستمتاع بين الإنس والجنّ ، وأنّها لا تعني الاستمتاع بين الإنس بعضهم مع بعض ؟ .. وحتى لو تمّ الجزم بأنّ العبارة القرآنيّة ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ ، لا تعني إلاّ الاستمتاع بين عالمي الإنس والجنّ .. فإنّ الاستمتاع المعني هو الاستمتاع النفسي ، حيث يؤثّر شياطين الجنّ في نفس الإنسان من خلال الوسوسة ، فتتأثر إرادة الإنسان نحو

الشرّ ، وبذلك يستمتع هؤلاء الشياطين بحرفهم لإرادة الإنسان عن مُراد الله تعالى ، ويستمتع الإنسان الذي استجاب لهذه الوسوسة ، بأن اتّجهت إرادته نحو نفسه الأُمارة بالسوء ضمن هذه الساحة المعنويّة يكون الاستمتاع ..

.. ويقولون لماذا الحجّ حصراً للناس .. ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ**

إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] .. والأمثال يضربها الله تعالى - في القرآن الكريم - للناس حصراً ، والحساب في الآخرة يتعلّق بالناس .. وبناءً على ذلك يستدلّون بإنكار وجود عالم الجنّ ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. كلّ ما ذكرتموه يرتبط بالجزئيات ، في عالمنا المادّي الثقيل ، وقد بيّنا أنّ عالم الجنّ لا يملك القدرة على ملك الجزئيات والتفاعل معها .. فالحجّ فريضةٌ يحتاج تنفيذها - بحيثيّاتها المعروفة - إلى امتلاك التفاعل مع الجزئيات .. والأمثال صورٌ مادّيّةٌ من عالمنا المادّي ، يضربها الله تعالى لنا لكي نستنتج منها الكليات .. والحساب في الآخرة يكون على تفاعلنا مع الجزئيات واستنتاجنا للكليات من خلالها ، بينما في عالم الجنّ حيث لا جزئيات ، والتفاعل مع الكليات مباشرة ، فإنّ نتيجة الحساب معروفة منذ قيامهم بالعمل ، لأنّهم يتفاعلون أصلاً مع الكليات التي هي نتائج مباشرة ..

.. ولذلك فإنّ معصية إبليس - كفردٍ من عالم الجنّ - لله تعالى ، أدّت إلى طرده من رحمة الله تعالى مباشرة ، لأنّ إبليس رفض أمر الله تعالى من حيث هو كليّة لا جزئية ، بينما معصية آدم عليه السلام لله تعالى ، كانت من حيث هي جزئية لا كليّة وهنا أيضاً نعود فنقول : إذا كنتم تقولون إنّ كلمة الناس هي الجنّة والناس (وهي ليست كذلك) فكيف تُناقضون أنفسكم فتقولون لماذا لم يُذكر - في مسائل شبهاتكم هذه - الجنّ ..

.. ويقولون لماذا لم يُذكر الجنّ في الآية التالية :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ
وَمَنْ يُّهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۗ ﴾ [الحج : ١٨]

ونردّ على ذلك فنقول .. إن كان عدم وجود كلمة الجنّ في هذه الآية دليلاً على عدم سجود المؤمنين من عالم الجنّ ، وبالتالي كان دليلاً على عدم وجود هذا العالم .. فإننا نسأل مثيري هذه الشبهة : أين هو ذكر كلمة الملائكة في هذه الآية ؟ .. فمن المعلوم أنّ الملائكة تسجد لله تعالى .. فهل عدم وجود كلمة الملائكة في هذه الآية ، يعني - بناءً على شبهتكم هذه - إنكار وجود عالم الملائكة !!! ..

.. والشبهات التي طرحوها ، جنحت بخيالهم إلى تصوّر دلالات الصورة القرآنيّة التالية (التي تصوّر لنا ما قاله أفراد الجنّ الذين أتوا رسول الله ﷺ وآمنوا به) تصوّراً لا علاقة له بدلالات هذه الصورة القرآنيّة ، لا من قريب ولا من بعيد ..

﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلَمَّتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۗ ﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ
مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ ۗ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ۗ ﴾ [الجن : ٨ - ٩]

.. يقولون .. معنى قوله تعالى ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾ هو : وأنا طلبنا معرفة الدين والكتاب .. والعبارة القرآنيّة ﴿ فَوَجَدْنَاهَا مُلَمَّتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴾ تعني وجدنا هذا الدين محفوظاً ببيان قويّ لا يمكن نقضه والنفاد إلى أيّ عيبٍ أو نقصٍ فيه ، وأنّ الحرس الشديد والشهب هم علماء الدين .. وأنّ الصورة القرآنيّة ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ ۗ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴾ تعني أنّ هؤلاء الجنّ الغرباء المتخفّين من البشر (حسب زعمهم) كانوا يتلمسون مجيء الرسول ﷺ ، بمعنى كنّا نترقب ظهور الدين الجديد حتى وجدناه ، فأصبح شهاباً يحمينا من ضلال الشياطين وأباطيلهم ..

.. فهذه الصورة القرآنية (حسب ما يقولون) تعني أنّ محاولة سرقة تعاليم السماء وتشويهها ، وتحريف الكتب السماوية كانت ممكنة قبل رسالة محمد ﷺ .. أمّا بعد هذه الرسالة فالأمر مختلفٌ تماماً ، لأنّ الله تعالى حفظ رسالته الجديدة بشبه البيان ، وبالْحِجَّة والبرهان الذي يحمله كتاب الله تعالى وهذا ما تعنيه - حسب قولهم - العبارة القرآنية :

﴿ شَهَابًا رَّصَدًا ﴾ ..

.. وفي محاولتهم لاستقامة هذه الشبهة ، أولوا الصورة القرآنية ﴿ إِلَّا مِنْ أَسْتَرَقَ ﴾ **أَلَسَّمَعَفَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ** [الحجر : ١٨] ، أولوها مع الصورة القرآنية ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ ﴾ ، بأنّ الله تعالى جعل لكلّ محاولة استرقاقٍ للسمع (وهي كما يقولون سرقة تعاليم السماء وتحريف الكتب السماوية) بياناً وبرهاناً وشهاباً يتقب الباطل المفترى ويزهقه ويرجم شيطانه ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. لقد بيّنا بما فيه الكفاية أنّ كلمة الجنّ في كتاب الله تعالى هي اسم ذات للكائنات المخلوقة من النار ، وأنّه يستحيل تأويلها وسحبها على البشر ، وبالتالي سقوط كلّ شبهةٍ تحاول القفز فوق هذه الحقيقة .. إنّ ما يُعرف وجوده بالمشاهدة لا يُسند إثباته إلى الوحي ، وفي القرآن الكريم لم يرد نصٌّ يشير مجرّد إشارة إلى أنّ رسول الله ﷺ أو أحداً من البشر رأى الجنّ أو تحدّث معهم .. ولذلك قلنا إنّ إعلام الرسول ﷺ بمسألة الجنّ عن طريق الوحي هو دليلٌ من مجموعة الأدلّة التي تُثبت أنّ أفراد الجنّ ينتمون إلى عالمٍ غير مرئيٍّ بالنسبة لنا ، وأنّه من المستحيل أن يكونوا بشراً بأجسادٍ مادية ..

.. وإنّ تأويلهم لقول الله تعالى ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا مَلَكًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴾ ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ ﴾ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا ﴾ ، هو تأويلٌ باطلٌ وذلك للأسباب التالية :

[١] - إن تأويل كلمة السماء بحيث تعني الدين وطلب الحكمة والسمو والرفعة ، لا دليل عليه في كتاب الله تعالى .. وحتى لو فرضنا - جدلاً - إمكانية صحّة هذا التأويل ، فإنه لا يُلغي المعنى الظاهر الذي تحمله كلمة السماء في كتاب الله تعالى ، وهو هذه القبة السماوية التي تعلونا ، والتي تحتوي على الكواكب والنجوم ، أو التي يتزل منها المطر وفيها الغيوم والرياح .. أمّا أن يكون التأويل مُناقضاً لظاهر دلالات الكلمة في كتاب الله تعالى ، فهذا يعني أنّه تأويلٌ باطلٌ ، وأنّه تحريفٌ لدلالات الكلمة القرآنية عن الحقيقة التي يريدّها الله تعالى ..

[٢] - لو كانت كلمة السماء لا تعني إلاّ الدين وطلب الحكمة والسمو والرفعة - كما يذهبون - لما كانت العبارة القرآنية على ما هي عليه ، ولكانت على الشكل (إنّنا مسسنا السماء) من الجذر (م ، س ، س) بدلاً من الجذر (ل ، م ، س) .. فمسّ الشيء هو الدخول فيه ، أمّا لمس الشيء فلا يعني الدخول فيه ، وإنّما يعني تحسّسه من خارجه .. وطلب الدين والحكمة والسمو يعني تدبّر الدين وفهم حقيقته ، وبالتالي الدخول إلى حقيقته ، وليس لمسه من الخارج .. وهذا ما يُناسبه المسّ وليس اللمس .. فالله تعالى يصف الداخلين لأعماق النصّ القرآني بقوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٩]

[٣] - قوله تعالى ﴿ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَمَةً حَرًّا شَدِيدًا وَشُهْبًا ﴾ ، لا ينفي وجود الحرس والشهب قبل لمس هذه السماء (أي قبل نزول القرآن الكريم) نفيّاً تامّاً كما ذهبوا .. إنّما يؤكّد أنّها (أي الحرس والشهب) زيدت لدرجة أنّ السماء ملئت بها تماماً .. فالحدث الذي حصل بعد نزول القرآن الكريم هو الملء التامّ ، وليس حدوث هذه الشهب ..

وقوله تعالى ﴿ كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ ﴾ يؤكّد هذه الحقيقة ، بأنّه كانت هناك بعض المقاعد للسمع ، تلك المقاعد التي لا تصلها الشهب ، والخالية من الحرس ، بينما الآن (بعد نزول القرآن الكريم) ملئت السماء بالحرس والشهب ، فلم تعد هناك

أيّ مقاعد للسمع ، وفي هذا دليلٌ على وجود بعض الشهب قبل نزول القرآن الكريم .. فلو لم يكن هناك حرسٌ وشهب ، لما أتت كلمة مقاعد في هذه الصورة القرآنية بصيغة النكرة ، ولأتت بصيغة المعرفة .. فورودها بصيغة النكرة ﴿مَقْعِدَ لِلْسَّمْعِ﴾ يعني أنّ هناك مقاعد للسمع (وليس كلّ المقاعد الممكنة) كانت صالحةً لاسترقاق السمع ، وهذه المقاعد أصبحت محميةً بالحرس الشديد والشهب ، شأنها بذلك شأن المقاعد الأخرى التي كانت محميةً قبل نزول القرآن الكريم .. وهكذا فقولهم إنّ الشهب حادثةٌ ، وإنّ هؤلاء الجنّ كانوا يتلمّسون الدين دون أيّ شهاب ، هو تأويلٌ باطلٌ ..

[٤] - تأويلهم للصورة القرآنية ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ لِمَنْ يُجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ ، بدجها مع الصورة القرآنية ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر : ١٨] ، بأنّ الله تعالى جعل لكلّ محاولة سرقة لتعاليم السماء وتحريف المنهج ، شهاباً وبيانا وبرهاناً لتقب الباطل المفترى .. هذا التأويل يناقض تماماً دلالات هاتين الصورتين القرآنيتين :

(أ) - إنّنا نرى أنّ الشهاب المبين والشهاب الرصد ، يتبع ذات من يسترقّ السمع ومن يستمع ، ولا يتبع محاولة استرقاق السمع كما زعموا ، فالشهاب - كما تؤكد صياغة هاتين الصورتين القرآنيتين - يتجه ليس نحو المحاولة ، وإنّما نحو الذات التي تقوم بهذه المحاولة ..

(ب) - لو كان تأويلهم لكلمات السماء والشهب والاستماع في هذه الصورة القرآنية سليماً ، لما كان لهذه المسألة (بعد نزول القرآن الكريم) أيُّ وجهٍ من الشرِّ .. فأیُّ شرٍّ من الممكن تصوّره إذا جعل الله تعالى لكلّ محاولة سرقة لتعاليم الدين وتحريفها - كما أولوا - برهاناً وشهاباً يتقب الباطل المفترى ..

إنّ القرآن الكريم بيّن لنا أنّ الجنّ بعدما رأوا السماء مُلئت حرساً شديداً وشهباً يقولون : ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن

: ١٠] .. وفي هذا دليلٌ على أنّ الشهب التي ملأت السماء هي ليست كما زعموا ، وأنّ السماء ليست كما زعموا ، وأنّ المسألة كونيّة جعلت الجنّ يجتارون بها ، لدرجة لم يعرفوا المراد منها ، هل هو شرٌّ أم خير .. ونرى أنّهم يُقدّمون الشرّ في ظنّهم حول هذه المسألة الكونيّة على الخير .. فلو كان تأويل زاعمي هذه الشبهة سليماً ، لما قالت الجنّ ما قالته في هذه الصورة القرآنيّة ..

[٥] - وفي محاولةٍ لكي يستقيم تأويلهم للصورة القرآنيّة التي رأيناها ، نراهم يسحبون هذا التأويل على الصورة القرآنيّة التالية ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطِينِ** ﴾ [الملك : ٥] .. فيقولون : المصابيح هنا هي علماء الدين والصحابة وحفظة القرآن ، وبما أنّ هذه السماء الدنيا وُجدت فيها هذه المصابيح التي هي رجومٌ للشياطين ، فهي رسالة محمد ﷺ والقرآن الكريم وهنا نسألهم السؤال التالي .. كيف يمكنكم تأويل كلمة الدنيا في العبارة القرآنيّة : ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ** ﴾ .. فهل رسالة محمد ﷺ والقرآن الكريم هما - بناءً على تأويلكم - الشريعة الدنيا والكتاب الأدنى !!! .. ومهما أولّتم ، كيف تكون كلمة الدنيا صفةً لشريعة محمد ﷺ وللقرآن الكريم !!!؟ .. ويقولون .. كيف ينطلق النجم تاركاً مساره ليطارده الجنّ والشياطين ؟ .. ولو أنّ ذلك كان صحيحاً لتناقص عدد النجوم في السماء ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. الله تعالى يقول ﴿ **وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطِينِ** ﴾ ، ولم يقل - حسب ما يذهبون - (وجعلناها رجماً للشياطين) .. فكلّ مصباحٍ هو رجمٌ ، وانطلاق الشهاب من المصباح لا يعني أنّ نجماً ترك مساره كما يتوهّمون .. ثمّ من قال إنّ الآليّة التي يتبع بها الشهابُ الشيطانَ ، هي حصراً الآليّة الماديّة التي يتصوّرونها؟! .. ما دام الجنّ من الكائنات غير المرئيّة بالنسبة لنا ، فإنّ الجزم بأيّ آليّةٍ ماديّةٍ حسّيّةٍ بالنسبة لهذه المسألة ، لا يرقى إلى مستوى اليقين ..

.. ولما رأوا أنّ القرآن الكريم بيّن بشكلٍ لا لبس فيه ، دون أيّ مجالٍ للتأويل ، أنّ عالم الجنّ كان موجوداً قبل عالم الإنس ، فقد ذهبوا إلى مجازاة فرضيّة دارون للتطور ، فقالوا إنّ الإنسان تطوّر خلقه عبر مراحل إلى أن وصل إلى مرحلة نفخ الروح فيه ، ويستدلّون بالآية الكريمة ..

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح : ١٣ - ١٤]

ونردّ على ذلك فنقول .. إنّ الصورة القرآنيّة ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ ، هي خطابٌ موجّهٌ للذين لم يؤمنوا مع نوح عليه السلام ، كما يؤكّد سياق النصّ المحيط بهذه الآية ، إضافة إلى أنّه خطابٌ لكلّ إنسانٍ موجودٍ على هذه الأرض حتى قيام الساعة .. وبالتالي فالخلق أطواراً يخصّ كلّ إنسانٍ موجودٍ وممتحنٍ في هذه الدنيا .. ولا يمكن سحب ذلك على تطوّر خلق البشريّة المزعوم قبل آدم عليه السلام ، فالضمير المتّصل في كلمة ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ يؤكّد أنّ ماهيّة الخلق المعنيّة ، هي ذات المخاطبين ..

.. وهؤلاء الكافرون الذين يُخاطبهم نوحٌ عليه السلام في الصورة القرآنيّة ﴿ مَا لَكُمْ

لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ ، ليسوا مؤمنين بالغيب .. وتصوّراتٍ مثيري هذه الشبهة عن التطوّر هي غيبٌ لم يشهده هؤلاء الكافرون ، فكيف يضع نوحٌ عليه السلام - بناءً على زعمهم - مقدّمةً غيبيةً بين أيديهم ، لينطلق منها إلى دعوتهم للإيمان بالله تعالى وليرجوا له وقاراً؟! ..! بينما مراحل خلق الإنسان في الحياة الدنيا ، هي مسألة حسّية وليست غيبية ، وهي المعنيّة بالعبارة القرآنيّة ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ ... فأطوار الخلق بالنسبة لكلّ إنسانٍ على سطح الأرض بيّنها الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿٣١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٣٢﴾

ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا

الْعَظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَدْنَانَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿ [المؤمنون : ١٢ -
[١٤

.. ولما كان حرف الفاء في الكلمتين ﴿ فَسَوَّكَ فَعَدَلَك ﴾ في الصورة القرآنية التالية ، يهدم ما يذهبون إليه ، نراهم يقولون ، إنّ فاء التعقيب - هنا - بمعنى ثمّ التي تُفيد التراخي في الزمن ، ضارين بعرض الحائط الثواب اللغوية التي يُقرّها القرآن الكريم ..
﴿ يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّكَ فَعَدَلَكَ ﴿٢﴾
فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ - ٨]

ولذلك يقولون .. إنّ آدم المذكور في القرآن الكريم ليس أوّل البشر على وجه الأرض ، وإنّما سبقه آدميون كثيرون ، ويستدلّون بقول الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة : ٣٠] .. وبالتالي يقولون إنّ خلافة آدم عليه السلام في الأرض ، ليست لله تعالى ، وإنّما لمن سبقه من البشر ، ويستدلّون بالآية الكريمة ﴿ * إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] على أنّ آدم حينما خُلِق لم يكن وحده ، وإنّما اصطفاه الله تعالى من بين قومه الذين كان منهم إبليس ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. إنّ قولهم هذا يقتضي أنّ آدم عليه السلام وُلد من بعض هؤلاء البشر الذين سبقوه ولادته ، وذلك كغيره من أبناء جيله ، أي أنّه مرّ بمراحل الخلق التي يمرّ بها البشر ، من النطفة إلى العلقة إلى .. ، وإن كان الأمر كما يتخيّلون ، فكيف نفهم قول الله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] !!!؟ ..

إنّ هذه الآية الكريمة تبين أنّ خلق آدم وعيسى عليهما السلام ، ليس كخلق باقي البشر ، ولم يمرّ بمراحل الخلق المعروفة .. فكيف يستقيم - مع هذه الحقيقة - قولهم بأنّ

آدم وُلد من آدميين سبقوه !!!؟ .. وهل من الممكن أن نتصوّر أن اسم ذاتٍ يرد في كتاب الله تعالى - كاسم آدم - ويخاطب الله تعالى صاحب هذا الاسم بأداة النداء ، من الممكن أن يرتبط بأشخاصٍ كثيرين غير معلومين !!!؟ ..

.. وقد بيّنا في الفصل الثاني كيف أن قول الملائكة ﴿ **أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ ، كان قبل خلق آدم (الجسد) ، وكان نتيجة رفع الله تعالى غطاء غيب الزمن المستقبل ، فرأت الملائكة ما سيكون من فسادٍ ومن سفكٍ للدماء على سطح الكرة الأرضية حتى قيام الساعة ..

.. أمّا بالنسبة للآية الكريمة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ .. فنقول .. إن ساحة اصطفاء آدم عليه السلام هي ذاتها ساحة اصطفاء نوح وآل إبراهيم وآل عمران ، وهي ساحة العالمين ﴿ **عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ .. فحرف العطف (الواو) بين آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران ، في هذه الآية الكريمة ، ليس عبثاً ، فهو يبيّن لنا أن هؤلاء الذين يجمع بينهم حرف العطف المذكور في ساحة الاصطفاء ، تجمعهم ساحة اصطفاء واحدة ، هي ساحة العالمين ..

وحيثّيات الاصطفاء تتعلّق بتمييز المصطفين بخواصّ تختلف عمّا يتّصف به باقي البشر حتى قيام الساعة ، وذلك من زاوية هذه الخواصّ .. فعلى سبيل المثال - لا الحصر - بالنسبة لآدم عليه السلام آدم هو أبو البشرية جمعاء ، وآدم سجّدت له الملائكة ، وآدم اختاره الله تعالى - مع زوجته - لجنة الاختبار هذه الصفات اصطفاها الله تعالى بها على باقي البشر حتى قيام الساعة ..

.. ودفعتهم تصوّراتهم هذه إلى تأويل مراحل خلق آدم عليه السلام ، والتي بيّنها الله تعالى في القرآن الكريم ، تأويلاً يقولون فيه : إنّ بيان الله تعالى في خلق آدم من تراب يعني أنّ الإنسان كان في بداية تطوّره - حسب زعمهم - كطبع التراب ، لا يُقوّلب ولا يتكيّف بسهولة ولا يُدعن .. وبيان خلق الله تعالى في خلق آدم عليه السلام من طين

، يؤوّلونه على أنّه في مرحلة التطوّر اللاحقة ، أعطاه الله تعالى ماء الحياة ، فأصبح بطبعه كالطين يتكيّف ويدعن بسهولة في حياته الاجتماعية .. وفي بيان الله تعالى في الخلق من الصلصال كالفخّار يقولون : وبعد ذلك جعله الله تعالى ناطقاً متكلماً ، يُجيب على ما يرِدُ عليه ، كما هو الصلصال كالفخّار يُجاوب حينما يُنقَر عليه .. أي يؤوّلون مراحل خلق آدم في القرآن الكريم ، فيجعلونها عبارات تُجاري فرضيّة التطوّر لدارون ونردّ على ذلك فنقول .. هذه التأويلات تُناقض تماماً دلالات النصوص القرآنيّة .. فالله تعالى يقول ..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٤٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٨ - ٣١]

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴾ [ص : ٧١ - ٧٤]

إننا نرى أنّ هاتين الصورتين القرآنيّتين تصوّران مشهداً واحداً ، هو خطاب الله تعالى للملائكة بأنّه سوف يخلق آدم (الجسد) ، وأنّ الصورة الأولى تُلقِي الضوء على مرحلة الصلصال من حمأ مسنون ، وأنّ الصورة الثانية تُلقِي الضوء على مرحلة الطين .. ورأينا سابقاً أنّ الصورة التالية ﴿ إِنِّ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] ، تُلقِي الضوء على مرحلة التراب .. إنّها مراحل خلق جسد آدم عليه السلام ، خلقاً مادياً من عناصر ماديّة ..

وبناءً على تأويلاتهم ، فإنّ احتجاج إبليس في رفضه للسجود لآدم عليه السلام ، هو في المرحلة الأخيرة من التطوّر البشري ، أي بعد نطق آدم عليه السلام ، أي - على الأقل - في مرحلة الصلصال كالفخّار .. فالله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم العاقل

الناطق الذي نفخ فيه من روحه .. وهنا نسألهم السؤال التالي : كيف تؤوّلون ورود الخلق من طين في الصورة القرآنيّة الثانية التي تصوّر المشهد نفسه ؟!!! ..

.. وكيف تبرّرون - من منظار تأويلاتكم - قول إبليس عن آدم السويّ الناطق

الذي نُفخ فيه من روح الله تعالى ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف :

١٢] ، في الوقت الذي تقولون فيه ، إنّ الخلق من طينٍ يعني مرحلة من مراحل تطوّر البشريّة قبل النطق ؟!!! .. إنّ إبليس ذاته يحتجّ في مشهدٍ آخر ، لأنّ آدم خُلِق من

صلصالٍ من حمأ مسنون .. ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ

مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٣٣] ..

.. وإن كان بيان الله تعالى في خلق جسد آدم من تراب ، يعني - كما يقولون -

مرحلة كان فيها الإنسان لا يُقولُ كطبع ، ولا يتكيّف اجتماعياً ، ولا يُدعن .. فهل

عيسى عليه السلام - بناءً على هذه الأوهام - كان يتّصف بهذه الصفات ؟!!! ..

﴿ إِبْرَاهِيمَ مَثَلٌ لِمِثْلِ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۗ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

﴾ [آل عمران : ٥٩]

ويقولون .. إنّ إبليس كان اسمه الحارث ، وكان من سكّان الكهوف ، وشمله الأمر

بالسجود ، لأنّ الأمر للملائكة بالسجود يستوجب الأمر لما هو دون ذلك كإبليس ..

ونردّ على ذلك فنقول : إنّ إبليس كفرّد من الجنّ كان مكلفاً ، وقد بيّنا كيف أنّه

كان يتّصف بصفة الملائكة ، لأنّه لم يعص الله تعالى حتى تلك اللحظة ، ومن الأدلّة على

ذلك ، الصورة القرآنيّة التالية .. ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ

رَبِّهِ ۗ ﴾ [الكهف : ٥٠]

.. إبليس يُستثنى من الملائكة (كصفة) في هذه الآية ، وفي كلّ الآيات التي تصوّر

هذه المسألة .. فالعبارة القرآنيّة ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ ﴾ تعني فخرج عن الانصياع

لأمر ربّه ، وبالتالي كان قبل ذلك منصاعاً لأمر ربّه ، ولذلك وُصف بصفة الملائكة ..

فقولهم اسمه الحارث وإثمه من سكّان الكهوف ، لا يملكون عليه ذرّة من دليل ، ويناقض الحدّ الأدبي من دلالات النصّ القرآني ..

.. ويقولون إنّ المذكور في الصورة القرآنيّة التالية ، ليس إبليس ..

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة : ٣٦]

نقول .. هذا القول فاسد ، لأنّه في تلك اللحظة لم يكن يُوجد من البشر غير آدم وزوجه ، ولأنّ صفة الشيطان تمثّلها - كما بيّنا - إبليس تمثلاً كاملاً ، عبر معصيته لله تعالى .. وحينما يقول الله تعالى ، الشيطان بأل التعريف ، فإنّه يعني فرداً محدداً ، أشار إليه في كتابه الكريم .. وهذا الشيطان هو ذاته إبليس الذي يدّعي أنّ الله تعالى أغواه بأمر السجود لآدم عليه السلام ، وهو ذاته الذي توعدّ بالعودة لآدم وذريّته صراط الله تعالى المستقيم ، وذلك قبل أن يسكن آدم وزوجه الجنّة ..

﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٦﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٢﴾ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٣﴾ وَيَتَقَادُمُ اسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ..... ﴾ [الأعراف : ١٢ - ٢٠]

إننا نرى أنّ كلمة الشيطان تصف الفرد ذاته الذي يدّعي أنّ الله تعالى أغواه بأمر السجود لآدم ، وهو ذاته الذي توعدّ بأن يقعد لآدم وذريّته صراط الله تعالى المستقيم ..

.. وفي هذا السياق نقول .. إبليس طلب من الله تعالى أن يُنظره إلى يوم القيامة ، وأنظره الله تعالى ، أي أنه سيبقى حياً إلى يوم القيامة .. وهنا نسأل مثيري هذه الشبهة السؤال التالي : إذا كان إبليس هو الحارث كفردٍ من البشر الموجودين مع آدم عليه السلام كما تقولون .. فكيف بنا أن نتصوّر فرداً من البشر الموجودين الآن على الأرض ، اسمه الحارث ، ما زال موجوداً منذ آدم عليه السلام ، وسيبقى موجوداً إلى يوم القيامة ، !!!؟ .. هذا ما دفعهم إلى القول بأن إبليس غير الشيطان ، وقد رأينا كيف أن هذا القول فاسدٌ ، ويناقض دلالات القرآن الكريم ..

.. ويؤوّلون الصورة القرآنيّة ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة : ٣٥] التي يُخاطب الله تعالى بها آدم عليه السلام ، بأن المقصود من كلمة ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ هو من آمن معك من قومك ، وصار من صفك ومثلك في أتباع منهج الله تعالى ..

نقول .. هذا خيالٌ لا علاقة له بدلالات كلمات هذه الصورة القرآنيّة .. إن كلمتي ﴿ وَكُلَا ﴾ ، ﴿ شِئْتُمَا ﴾ في هذه الصورة القرآنيّة ، تشيران إلى المثني ، أي آدم عليه السلام وفرد آخر هو زوجه ..

.. وآدم عليه السلام حينما أسكنه الله تعالى هذه الجنّة ، وقبل توبته وقبولها من الله تعالى ، لم يكن نبياً ولا رسولاً ، فقد بينا أنه بعد أن تاب الله تعالى عليه واجتباها أصبح نبياً ..

.. ففي جنّة الاختبار تلك ، لم يكن هناك بشرٌ حتى يدعوهم آدم عليه السلام إلى الإيمان .. ولو كان هناك بشرٌ آخرون مع آدم عليه السلام كما يزعمون ، فهل كان هؤلاء جميعاً عقيمين لا ينجبون؟! .. فالله تعالى يُخاطب البشريّة في كتابه الكريم بالعبارة ﴿ يَلْبَنِي آدَمَ ﴾ ..

.. ويؤوّلون الصورة القرآنيّة ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ بأنّ الشجرة هي شجرة الخلاف والتّزاع .. وهذا التّأويل فاسدٌ ، لأنّه لم يكن في تلك اللحظة سوى آدم وزوجه كما بيّنا ، ولأنّ هذه الشجرة هي التي طغى بها إبليسُ آدمَ وزوجه بأنّ الأكل منها يجعلهما ملكين ، أو من الخالدين .. ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] .. فكيف يُمكن فهم دلالات هذه الصورة القرآنيّة مع تأويلهم !!!؟ ..

.. وبالنسبة لظهور السوء بعد ذوق الشجرة ﴿ فَذَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ [الأعراف : ٢٢] ، ففيها بيانٌ إلهيٌّ أنّ الماهيّة الجسديّة التي كان عليها آدم وزوجه قبل الأكل من هذه الشجرة ، تختلف عنها بعد الأكل ، كما بيّنا في الفصل الثاني .. فالهبوط من تلك الجنّة هو هبوطٌ في حيثيّات البنية الجسديّة ، عمّا كانت عليه هذه البنية قبل الأكل من تلك الشجرة ..

.. ويؤوّلون الصورة القرآنيّة ﴿ وَطَفِقَا مَخَصِفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] ، بأنّ ورق الجنّة هم الفتية والشبّان المؤمنون ، حيث بدأ آدم وزوجه يدعوهم إلى الجنّة ..

نقول .. كلامهم هذا دليلٌ على فساد تأويلهم للمسألة من أساسه .. فإذا كان المثني في هذه العبارة القرآنيّة هو - كما يقولون - آدم وقومه الذين اتّبعوا منهجه (زوجته حسب تأويلهم) ، وبالتالي هو آدم وجميع المؤمنين معه في هذه الجنّة ، وبالطبع منهم الفتية والشبّان المؤمنون ، فكيف يكون الفتية والشبّان هم ورق الجنّة الذين يدعوهم آدم والمؤمنون [﴿ وَطَفِقَا ﴾ ، ﴿ مَخَصِفَانِ ﴾] في تلك الجنّة !!!؟ .. لا بُدّ أن يكونوا خارج هذه الجنّة ، وبالتالي لا وجود لهم إلّا في خيال مثيري هذه الشبهة ..

.. وفي احتجاجهم بأنّ صيغة الهبوط من الجنّة أتت بالجمع ، وبأنّ ذلك يدلّ على وجود بشر كانوا مع آدم ، وهبطوا معه .. نقول : لو كان معه أحدٌ وهبط ، فلماذا لم تكن له ذريّة؟! .. فالله تعالى - كما قلنا - يُخاطب البشريّة بالعبارة ﴿يَبْنِيْٓءَ آدَمَ﴾ ، ولم يُشر القرآن الكريم إلى أنّ هناك بشراً عاصروا آدم عليه السلام ، قد حكم الله تعالى عليهم بالعقم ..

.. لقد رأينا في الفصل الثاني أنّ ورود صيغة الهبوط بالجمع ، يدلّ على أنّ البشر الآن في حلقة جسديّة هابطة عمّا كانت ستكون عليه فيما لو لم يعص آدمٌ وزوجهُ الله تعالى ، وبالتالي فيما لو وُلدنا في تلك الجنّة ..

﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه : ١٢٣ - ١٢٤]

لا شك أنّ هذه الصورة القرآنيّة تُخاطب البشريّة جمعاء ، فالعبارة القرآنيّة ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ تُشير إلى منهج الله تعالى الذي يحمله الرسل عليهم السلام .. فاتباع الهدى والإعراض عنه ، هما طبيعة البشريّة حتى قيام الساعة .. ولم تتوقّف تأويلاتهم وشبهاتهم على مسائل الجنّ ، بل تعدتها إلى بعض المسائل الأخرى .. ففي الصورة القرآنيّة ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ٧٩] ، يؤوّلون كلمة ﴿الْجِبَالَ﴾ بسكان الجبال ، فيقولون .. معنى هذه الصورة القرآنيّة هو أنّ سكان الجبال جعلهم الله تعالى يسبّحون مع داود عليه السلام ، ويستشهدون بقوله تعالى ..

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس : ٩٨]

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ [الأنبياء : ١١]

.. فيقولون : المقصود بالقرية - هنا - هو الناس الذين في القرية ، وبالتالي فالمقصود بالجبال هو سكان الجبال من الناس ..

ونردّ على ذلك فنقول .. لقد بيّنا في النظرية الثالثة (الحقّ المطلق) ، أنّ كلمة القرية في القرآن الكريم تعني النشاط الاجتماعي والجانب الفكري والعقائدي للتجمّع البشري ، وأنّ كلمة المدينة تعني جانب البنيان والحضارة الماديّة لذلك التجمّع ، وبرهنا على ذلك .. ونقول .. لو أراد الله تعالى بكلمة القرية أهل القرية لوضع كلمة أهل قبلها ، أو على الأقلّ لأتى سياق الكلام خلفها بصيغة المذكر لا المؤنث .. فحينما يريد الله تعالى أن يذكر أهل قرية في كتابه الكريم ، يضع كلمة أهل قبل كلمة قرية ..

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا ﴾ [الأعراف : ٩٦]

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٧]

﴿ وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٨]

﴿ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ۗ ﴾ [العنكبوت : ٣١]

﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [العنكبوت : ٣٤]

.. وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة الجبال .. فلو أراد الله تعالى بهذه الكلمة أهل الجبال وسكانها - كما يقولون - لوضع كلمة أهل أو سكان قبلها .. أو لأتت كلمة يُسَبِّحُونَ بدل كلمة ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ في هذه الصورة القرآنيّة ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ، لأنّ سكان الجبال تُناسبهم كلمة يُسَبِّحُونَ لا كلمة ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ ..

وإذا كانوا يستغربون تسبيح الجبال مع داود عليه السلام ، عبر خصوصيّة له ، وبفضل من الله تعالى ، فماذا يقولون في عرض الله تعالى على هذه الجبال حمل الأمانة ، وذلك قبل وجود سكان هذه الجبال ، بل قبل وجود آدم (الجسد) ؟! ..

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

وإن كان المقصود بتسييح الجبال هو تسييح سكان الجبال ، فأين هي الخصوصية التي أعطيت لداود عليه السلام !!؟ .. حيث بيّن الله تعالى - كما رأينا في الفصل الثاني - أن تسييح الجبال وتعليم منطق الطير وتسخير الجنّ .. كل ذلك من الخصوصية التي أخصّص بها داود وسليمان عليهما السلام دون غيرهما من البشر ..

ودليلهم في هذه التأويلات ، أن العطاءات التي أُعطيت لسليمان عليه السلام ليست معجزات ، بل هي فضلٌ من الله تعالى وإنعامٌ عليه .. نقول .. ما أُعطي سليمان عليه السلام لم يكن معجزةً لكي يُصدّق البشر نبوّته ، وإنّما كان إجابةً لدعاء سليمان ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص : ٣٥] .. ولذلك فكل تأويلٍ للآيات الكريمة التي تُصوّر ما أوتي سليمان عليه السلام بحيث يستطيع البشر - دون سليمان - القيام به (مثل تأويلات مثيري هذه الشبهات) هو تأويلٌ فاسد ، لأنّ سليمان عليه السلام بيّن في طلبه لهذه العطاءات ، أنّها لا تنبغي لأحدٍ من بعده ..

وفي الآية الكريمة ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٠] ، يقولون .. إنّ كلمة الطير تعني الفرسان السريعين الذين يركبون الخيول السريعة ، ويقولون ، إنّ كلمة الهدهد تعني إنساناً عاقلاً اسمه الهدهد أو لقبه الهدهد ، وهو قائد جيش لفرقة الخيالة السريعين (الطير حسب تأويلهم) ، ومنهم من قال إنّ كلمة الهدهد تعني رجل مخبرات من فصيل الأخصائيين الفنيين في جيش سليمان عليه السلام ، ويحتجّون على تأويلهم بورود كلمة ﴿ الْغَائِبِينَ ﴾ بصيغة جمع المذكّر السالم ، الذي يأتي للعاقلين .. ويحتجّون أيضاً بأنّ الهدهد (كطير) لا يستطيع فك رسالة معلّقة بعنقه ، ولا يملك محاكمة عقلية يهتدي بها ..

ونردّ على ذلك فنقول .. لو كان الأمر كما يقولون ، فأين هو الفضل الذي أُعطي لسليمان عليه السلام والذي لا ينبغي لأحدٍ من بعده ؟!! .. أليس الكثيرون من قوم سليمان عليه السلام ومن بعدهم - وقبلهم - يعلمون منطق الفرسان السريعين ، ومنطق هذا الضابط (الهدهد) ؟!! ..

.. وكلمة الطير كلمة قرآنية .. وفي جميع ورودها في كتاب الله تعالى ، لا تخرج دلالاتها عن مفهوم الطير الذي نعلمه ..

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور : ٤١]

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴾ [الواقعة : ٢١]

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩]

.. أمّا بالنسبة لورود كلمة ﴿الغَائِبِينَ﴾ بصيغة جمع المذكر السالم ، فأين المشكلة في ذلك ؟ .. أليس الهدهد - من المنظار الذي ينظر منه سليمان وعبر الاستثناء الذي أُعطي له - عاقلاً يُدرك ما يُطلب منه ، ويدرك ما يُجيب ؟ ..

ألم تُحب السماوات والأرض (وهما جماد) بصيغة جمع المذكر السالم ﴿طَائِعِينَ﴾ ، حينما أحابنا الله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت : ١١] ، لآتهما (من هذا المنظار) مدركتان للسؤال والجواب ؟ ..

.. وكيف يُفسّر لنا هؤلاء ورود كلمة ﴿سَاجِدِينَ﴾ ، وكلمة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ، في الآيتين التاليتين ..

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ

لِي سَجْدِينَ ﴾ [يوسف : ٤]

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠]

.. ومن قال إن الهدهد عُلق في عنقه كتاب سليمان عليه السلام ، وله أصابع استخدمها في فكّ هذا الكتاب من عنقه !! .. النصّ القرآني يصف هذه المسألة عبر الآية التالية ﴿ أَذْهَبَ بِكُتَيْبِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : ٢٨] .. ودلالات هذا النصّ ، وما يحمل في أعماقه من الجزئيات التفصيلية للأحداث التي يُصوِّرها ، تُدرك ضمن إطار الخصوصية التي أُعطيت لسليمان عليه السلام ، والتي لا تنبغي لأحد من بعده ..

.. لذلك فإنّ لباس النصّ تصوّرات مُسبقة الصنع لا يحملها لا من قريب ولا من بعيد ، ثمّ الانطلاق من هذه التصوّرات كمقدمة لنتائج مسبقة الصنع أيضاً ، هو عين الخروج عن المنهج السليم في تدبّر كتاب الله تعالى ..
.. وفي الآية الكريمة التالية ..

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا

مَحْطَمَتَكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨]

.. يقولون : إنّ جمع الحشرات هو جمع المؤنث السالم ، ويستدلّون بالصورة القرآنية ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : ٦٨] .. ويقولون : إنّ المساكن للبشر فقط ، وبالتالي يستدلّون بالعبرة القرآنية ﴿ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ ﴾ على أنّ النمل بشرٌ ، وتخيّلوا المعنى بأنّ زعيم النمل أشار إلى قومه بأن يدخلوا مساكنهم مبتعدين عن سليمان وجنوده ، حتى لا يظنّ سليمان وجنوده

أنهم بعدم دخولهم مساكنهم يريدون مقاومة جيش سليمان ، فيحطمونهم وهم لا يعلمون أنّ قبيلة بني النمل لا تريد محاربة سليمان وجنوده .. ومنهم من قال إنّ كلمة نملة تُشير إلى اسم ملكة قبيلة بني النمل ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. لقد بيّنا في النظرية الخامسة (إحدى الكُبر) ، ومن خلال معيارٍ رقميٍّ لا يعرف الكذب والخداع ، أنّ الكلمة القرآنيّة فطريّة ، وليست وضعيّة من صنع البشر ، وأنّ ارتباط الكلمة (كمشتقٍ مولودٍ من الجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه) بدلالاتها ومعانيها النابعة من معاني جذرها اللغوي ، يماثل تماماً ارتباط المادّة بصورتها ..

.. وحينما ترد ثلاثة تفرّعات للجذر اللغوي (ن ، م ، ل) في عبارة قرآنيّة واحدة **﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ﴾** ، فهذا يعني أنّ هذه الكلمة تُشير إلى جنسٍ خاصٍّ من المخلوقات ، تصفه كاسم ذاتٍ ، ولا يمكن - أبداً - أن تُشير إلى ثلاثة معاني لا رابط بينها - من حيث الذات - كما يزعمون ..

.. إنّ كلمة النمل الأولى في العبارة **﴿ وَادِ النَّمْلِ ﴾** نراها في محلّ مضاف إليه لكلمة **﴿ وَادٍ ﴾** .. فالعبارة **﴿ وَادِ النَّمْلِ ﴾** تعني وادياً خاصّاً بهذا الجنس من المخلوقات ، وليس مجرد تسمية وضعيّة ، فهذا الوادي لا يسير فيه إلّا النمل .. وكلمة **﴿ نَمَلَةٌ ﴾** في العبارة القرآنيّة **﴿ قَالَتْ نَمَلَةٌ ﴾** تعني أنثى من أفراد هذه الكائنات ، ولا يمكن أن تعني زعيم قبيلة كما يزعمون ، وورود كلمة **﴿ نَمَلَةٌ ﴾** بصيغة النكرة لا يُسعف - أبداً - تأويلٍ من ذهب إلى أنّ هذه الكلمة تعني ملكة هذه القبيلة .. وكلمة النمل في العبارة القرآنيّة **﴿ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ﴾** تعني مجموع أفراد هذا الجنس من الكائنات الموجودة في واديهما هذا ..

ولتصوّر فساد تأويلهم ، ما علينا إلا أن نختار اسم علمٍ ما ، ونضع تفرّعاته اللغويّة الموازية لتفرّعات كلمة النمل في الأماكن الثلاثة في هذه الصورة القرآنيّة ، ونحاول تصوّر معنى هذه الصورة القرآنيّة .. حينها ندرك أكثر أنّ تأويلهم لا يقبله عقلٌ ولا منطق ..

.. وفي هذه الآية الكريمة نرى أنّ إتيان سليمان وجنوده كان على واد النمل ، فلماذا وردت كلمة **«عَلَى»** ، وما هو هذا الوادي !؟ ..

إنّ كلمة **«عَلَى»** تستخدم لاستعلاء الشيء ، وتستخدم لبلوغ الشيء حتى آخره .. إذاً سليمان عليه السلام وجنوده أتوا فوق هذا الوادي ، إتياناً يشمله حتى آخره ..

.. والعبارة القرآنيّة **«وَادِ النَّمْلِ»** يرتبط معناها ارتباطاً كاملاً بدلالات هاتين الكلمتين .. فكلمة وادي تعني المجرى الذي يحصر المسألة الجارية في هذا الوادي من طرفيها ، بحيث لا تخرج المسألة عن حدود هذا الوادي ، سواءً حملت هذه الكلمة دلالاتٍ مادّيّة كما هو في قوله تعالى **«أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةً بِقُدَرِهَا»** [الرعد : ١٧] ، أم حملت دلالاتٍ معنويّة نفسية كما هو في قوله تعالى **«وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ»** [الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٥]

.. إذاً العبارة القرآنيّة **«وَادِ النَّمْلِ»** تعني الخطّ والطريق الذي يسير وفقه النمل ولا يجيد عنه .. ومعلوم أنّ النمل بغريزته التي فطره الله تعالى عليها ، يسير وفق خطوطٍ لا يجيد عنها ..

وهكذا يكون معنى الصورة القرآنيّة **«حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ»** أنّ سليمان عليه السلام وجنوده - وهم سائرون - أتوا على طابورٍ من النمل يسير في خطٍ لا يجيد عنه ، وفق غريزته التي فطره الله تعالى عليها ، وبالتالي سيمرّ سليمان وجنوده فوق هذا الخطّ إلى آخره ..

.. وقوله تعالى ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، يبيّن لنا أنّ فرداً (أنثى) من أفراد هذه الكائنات السائرة في هذا الطريق (الوادي) ، قالت مخاطبةً أفراد جنسها بخطاب العقلاء ، ادخلوا مساكنكم مبتعدين عن هذا الوادي (الطريق الذي يسلكه النمل بغريزته) .. أي لا تسيروا في هذا الوادي حتى لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون أنّهم فعلوا ذلك ..

.. وما يؤكّد أنّ هذه النملة - التي خاطبت أفراد جنسها - أنثى ، هو وصف الله تعالى لحال سليمان في التفاعل مع قولها في الآية التالية مباشرة للآية التي تصوّر قولها ﴿ فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل : ١٩] .. فكلمة ﴿ قَوْلِهَا ﴾ تُشير حصراً إلى أنثى

وقد بيّنا في المسألة السابقة ، كيف أنّ خطاب العقلاء مسألة واردة في كتاب الله تعالى بالنسبة لغير البشر .. أمّا بالنسبة لقولهم إنّ جمع الحشرات هو جمع مؤنث سالم ، مستدلّين بخطاب الله تعالى للنحل .. نقول : خاطب الله تعالى النحل بصيغة المؤنث ليس لأنّها مجرد حشرات ، وإنّما لأنّ عاملات النحل - كإناث - هنّ اللاتي يقمن بجميع الأعمال ، وبالتالي خاطبهنّ الله تعالى بما يُناسبهنّ وهو صيغة المؤنث .. أمّا بالنسبة لقولهم بأنّ المساكن خاصّة بالإنسان ، فهو قول لا برهان عليه ، فالمساكن هي البيوت ، وعاملات النحل يأمرها الله تعالى أن تتخذ بيوتاً ، وهي ليست من جنس البشر ..

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : ٦٨]

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ في الصورة القرآنيّة ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .. الأولى بتفسيرها هو ما يُوافق الصياغة اللغويّة لهذه

الصورة القرآنية وما يسبقها ، أي : لا يشعرون أنّهم قاموا بتحطيمكم .. وهنا نسألهم السؤال التالي : ما هو حجم أفراد هذه القبيلة التي تخيلها مثيروا هذه الشبهة ، بحيث يمرّ سليمان عليه السلام وجنوده فوق هؤلاء الأفراد ، فيحطمونهم دون أن يشعروا أنّهم قاموا بتحطيمهم !!!؟ ..

وحال سليمان وقوله ، الذي يصوره الله تعالى في الآية التالية مباشرةً ، يؤكّد أنّ المسألة متعلّقة بالنمل (الحشرات المعروفة) ..

﴿ فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩]

.. ولو كانت المسألة مسألة بشر كما يزعمون ، فما هي مبررات تبسّم سليمان عليه السلام ضاحكاً من قول هذه النملة ؟ .. إنّ دعاء سليمان عليه السلام مقرأً بنعمة الله تعالى عليه وعلى والديه ، دليلٌ آخر على أنّ المسألة ليست عاديةً بما اعتاد عليه البشر ، وأنّها من الخصويّة التي أعطيت له ولوالده عليهما السلام ..

.. وفي الآية الكريمة ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨] ، التي تُصوّر خطاب سليمان عليه السلام وطلبه بتقديم عروض الإتيان بعرش ملكة سبأ .. يقولون : إنّ كلمة ﴿ يَأْتِينِي ﴾ - هنا - بمعنى يعمل ويتمّ لي ، وبالتالي يكون تأويل هذه الآية الكريمة عند بعضهم هو : من يستطيع منكم أن يعمل ويتمّ لي عرش استقبال ملكة سبأ ..

ويقولون أيضاً : لو أنّ سليمان عليه السلام طلب إحضار عرش ملكة سبأ ذاته ، لثبت عدم احترامه للقوانين الدولية المتعارف عليها في زمنه ، ولثبت أنّه قام بعملية سطو على أملاك غيره ، وبالتالي يحتجّ بعضهم بذلك على أنّ قوله ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ يعني أيكم يستطيع صنع كرسيّ عرش ملكة سبأ وفق المواصفات التي جاء بها رجل

مخبرتنا (الهدهد) .. أي أنّ دلالات العبارة القرآنيّة ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ هي دلالات مجازيّة لا حقيقيّة ..

.. وفي الآية الكريمة ﴿ قَالَ عِفْرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل : ٣٩] .. يقولون : إنّ العفريت من الجنّ هو رجلٌ ماهرٌ من الرجال الأشداء ، ومن زعماء القوم وكبارهم ..

وعن العرض الثاني الذي قدّم لسليمان عليه السلام ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] ، يقولون : إنّ معنى العبارة القرآنيّة ﴿ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ هو : قبل أن يعود إليك من أرسلته إلى مملكة سبأ للتحقق ممّا جاء به الهدهد .. ومنهم من قال : قبل أن يرتدّ إليك رجل المخبرات (الهدهد) الذي أرسلته إلى مملكة سبأ ..

.. ويقولون : إنّ معنى العبارة القرآنيّة ﴿ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ هو : الذي عنده علمٌ بإمكانيات خزينة الملك ، وهو مسؤول خزينة سليمان عليه السلام ، وبالتالي يقولون : إنّ عرض العفريت من الجنّ هو عرض تنفيذ ، وعرض الذي عنده علمٌ من الكتاب هو عرض تمويل ..

.. وقال بعضهم : إنّ المعنى بالعبارة القرآنيّة ﴿ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ ، هو : أحد الأخصائيين الفنيين المرافقين لجيش سليمان عليه السلام ، وهو رجلٌ مختصٌّ بالنجارة ومداوم على العمل في مهنته ..

ويقولون .. إنّ معنى العبارة القرآنيّة ﴿ نَكِّرُوا هَا عَرْشَهَا ﴾ في الآية الكريمة ﴿ قَالَ نَكِّرُوا هَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٤١] ، هو : اجعلوا من عرشها الذي في بلادها نكرةً أمام العرش الذي ستصنعونه لاستقبالها ..

.. ونردّ على ذلك فنقول : إنّ تصوّرهم في معنى العبارة القرآنيّة ﴿عَفْرِيَّتُ مِّنَ

الْجِنِّ﴾ بيّنا فساده في تبياننا لفساد تأويلهم لكلمة الجنّ ..

.. وفي تأويلهم للعبارة القرآنيّة ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ، نقول : كيف

اخترعوا مُرسلاً لسليمان إلى ملكة سبأ للتحقق ممّا جاء به الهدهد؟! .. فهل في دلالات النصّ القرآني ما يؤكّد ذلك ؟ .. إنّ الهدهد هو ذاته الذي عاد إلى مملكة سبأ ، حيث بعث معه سليمان عليه السلام كتاباً ..

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهُ

إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : ٢٧ - ٢٨]

.. أمّا بالنسبة لتأويل بعضهم على أنّ كلمة ﴿طَرْفُكَ﴾ تعني الهدهد ، نقول : لا

يوجد في صياغة هذه الكلمة والعبارة التي تنتمي إليها والآية أيضاً ، أيّ دليل لهذا المذهب من التأويل ، وورود فاء الاستئناف والتعقيب المباشر في بداية العبارة القرآنيّة التالية مباشرةً لكلمة ﴿طَرْفُكَ﴾ ، يُسقط تأويلهم من أساسه ﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ

قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ ، فعرش ملكة سبأ تمّ الإتيان به بشكلٍ فوريٍّ ومباشرٍ ، ولم يحتج ذلك إلى زمنٍ يُوازي عودة الهدهد ، من بلاد سبأ ، أو عودة غيره ..

وفي قولهم إنّ جلب عرش ملكة سبأ ذاته هو عملية سطو مخالفة للقوانين المتعارف عليها .. نقول .. سليمان عليه السلام لم يطلب الإتيان بعرش ملكة سبأ من أجل امتلاكه ، وإنّما من أجل استثماره في عمليّة هدايتها وعودتها وقومها إلى العبادة الحقّ لله تعالى ، بعد أن علم أنّهم يعبدون الشمس .. وهذه المكيدة التي قام بها سليمان عليه السلام من أجل هداية ملكة سبأ وقومها ، قام بمثلتها يوسف عليه السلام أيضاً بهدى من الله تعالى .. ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ

أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٧٠﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أُخِيهِ
 ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أُخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ط مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ
 الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَزْفَعَ دَرَجَتٍ مِّنْ دُشَاءٍ ط وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧١﴾]
 يوسف : ٧٠ - ٧٦ [

.. فالمسألة ليست مسألة سطو للحصول على أملاك الآخرين ، كما يتخيّل مشيرو
 هذه الشبهات ، وليست مسألة تزوير لظلم الآخرين والافتراء عليهم ..
 وفي تأويلهم للعبارة القرآنية ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ .. من أين أتوا
 بالخزينة ووزيرها ؟!!! .. وكيف يكون عرض الذي عنده علم من الكتاب مكمّلاً
 لعرض العفريت من الجنّ ، وبين العرضين سباقٌ في زمن إتيان هذا العرش ؟!!! .. أي
 لكلّ زمنه .. فالزمن الأوّل هو : ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾ ، والزمن الثاني هو :
 ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ..

وقد بيّنا في الفصل الثاني ، كيف أنّ العرضين المُقدّمين لسليمان عليه السلام متوازنان
 ، وفق معيار المعجزة المطروحة في النظرية الخامسة (إحدى الكُبرى) ، حيث يُقدّم كلُّ
 من العارضين أقصى إمكانيّاته في هذا المشروع .. ورأينا أيضاً أنّ عرش ملكة سبأ أتى
 عبر العرض الثاني حصراً ، وذلك وفق معيارٍ رقميٍّ لا يعرف الكذب والخداع ..
 وفساد تأويلهم يظهر واضحاً جليّاً في تأويلهم للعبارة القرآنية ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا
 ﴾ ، فكلمة ﴿بِعَرْشِهَا﴾ لا يمكن أن تعني إلاّ عرشها الذي يخصّها ، والذي تملكه ،
 والذي ذُكر في آيةٍ سابقةٍ لهذه الآية ، حيث أحرر به الهدهدُ سليمانَ عليه السلام .. ﴿
 إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل :
 ٢٣] .. فهذا العرش العظيم الذي تملكه ، هو ذاته عرشها المعني بالعبارة القرآنية ﴿
 أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ ..

وتأويلهم للعبارة القرآنية ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ دليلٌ آخر على فساد ما يذهبون إليه .. فكلمة ﴿ عَرْشَهَا ﴾ ترتبط هنا - أيضاً - بالعرش العظيم ذاته ، والعبارة القرآنية ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ تعني اجعلوه - هو ذاته - مُنكراً عليها ، وذلك بتغيير بعض معالمة كامتحان لها .. وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾ [النمل : ٤٢] ، دليلٌ على أنّ التنكير هو بهدف امتحانها في معرفة عرشها الذي تملكه .. أمّا بالنسبة للحكمة من مسألة الإتيان بعرشها وتنكيره وامتحانها في ذلك ، فلسنا مختلفين مع أحدٍ في أنّ ذلك لهدف هدايتها ..

.. ويخرج تأويلهم للصورة القرآنية التالية ليخرج عن حدود التصوّر ذاته ..

﴿ فَلَمَّا قُضِيَنا عَلَيْهِ الْمَوْتُ مَا دَهَمَهُمْ عَلَى مَوْتِهِمْ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُمْ ﴾
فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤]

قالوا : ﴿ دَابَّةُ الْأَرْضِ ﴾ تعني الناس الذين يتبعون أهواءهم ، وقالوا كلمة ﴿ مِنْسَأَتَهُمْ ﴾ تعني حاشية الملك (النبي سليمان عليه السلام) ، لأنها بمعنى عصاه .. وبالتالي يؤوّلون هذه الآية الكريمة على الشكل التالي : إنّ الموت الحقيقي لسليمان عليه السلام ، ليس في موته ، إنّما كان حينما تبين لمن هم تحت سلطانه وحكمه ، أنّ مملكته ستتهار بسبب خلود ابنه (الذي خلفه) لهواه .. حين ذلك تبين للغرباء الذين كانوا يعملون في ملك سليمان ، أنّه قد مات ، وبالتالي تركوا مملكته عائدين إلى بلادهم ..

.. وهنا نقول : إنّ كان هذا التأويل من الممكن أن تحمله هذه الآية الكريمة ، فمن المؤكّد أنّه يمكنها أن تحمل أيّ قصة من قصص الرسوم المتحرّكة .. وإن كانت الكلمة القرآنية من الممكن تحميلها أيّ معنى هواه الأنفس ، وإن كانت الصياغة القرآنية لا علاقة لها بأيّ معيارٍ ، كما هو الحال في التأويلات التي نراها .. فعلى الدنيا السلام ،

وحين ذلك لا فارق في تدبّر القرآن الكريم - على هذه الطريقة - بين من يعلم اللغة العربية ، وبين من لم يسمع بها ..



مركز الذِّكْر

لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

موقع :

الكاتب والمفكر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

الوجود في الآخرة

لقد رأينا - من خلال الفصول السابقة - أن الإنسان في حياته الدنيا يتّصف بصفة الزوجية ، التي تجمع بين النفس المجردة من جهة ، وبين الجسد المادي من جهة أخرى .. وفي تفاعل هذين الزوجين تكمن خلافة الإنسان لله تعالى ، وتكمن ماهية حمل الأمانة التي تعهد الإنسان بحملها ..

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن .. هل رحيلنا من هذا العالم المادي المحسوس عبر الموت ، هو دخولنا في حالة العدم ، أم في حالة وجود آخر ؟ .. وهل الموتة الثانية التي يذكرها القرآن الكريم تشمل كل إنسان أم تشمل بعض البشر ؟ .. ومتى هي ؟ .. وما هي الشفاعة وما حدودها ؟ .. وهل الجنة والنار موجودتان الآن ، أم ستوجدان في الآخرة ؟ .. وهل يخرج من النار بعض الداخلين إليها ، أم أنهم بمجرد دخولهم فيها سيخلدون فيها دون أن يخرجوا منها ؟ .. هذه الأسئلة - وغيرها - سنحاول إن شاء الله تعالى الإجابة عليها في هذا الفصل ..

.. في الموت تنفصل النفس المجردة عن الجسد انفصلاً نهائياً ، وتخرج الحياة من الجسد الذي يتحلل ويعود إلى التراب .. وتعود النفس إلى عالم مجرد عن عالم المادة ، بعد أن تكون قد أمّحت في حملها للأمانة ، وفي خلافتها لله تعالى على هذه الأرض ، عبر الجسد الحي .. فالموت الأول لا يعني الدخول في حالة العدم ، إنما يعني انتقال النفس المجردة من عالم المادة والمكان والزمان إلى عالم البرزخ ..

ولما كانت النفس مجردة عن عالم المادة والمكان والزمان ، وكان عالم البرزخ عالمًا غير مادي ، فإن النفس في هذا العالم (عالم البرزخ) لا تحسّ بالزمان ولا بالمكان .. وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة بشكلٍ جليٍّ ..

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ^٤ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٣﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٤﴾ خُنْ أَعْلَمَ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه : ١٠٢ - ١٠٤]

﴿ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٤﴾ قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا^٥ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٢ - ١١٤]

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم : ٥٥]

.. ودخول النفس - بعد موتها - إلى عالم البرزخ يعني انقطاع صلتها بعالم الدنيا ، وانقطاع اطلاعها على هذا العالم .. وهذا طبيعي لأن الجسد الذي كان آليتها للإطلاع على عالم الدنيا ، قد انفصلت عنه انفصالاً نهائياً ، وخرجت الحياة منه ، وبدأ رحلة عودته على التراب ..

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٠١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ^٦ كَلَّا^٧ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠]

.. ومسألة انقطاع النفس - بعد وفاتها ، وبعد موتها - عن أحداث عالم الدنيا وما يجري فيها ، مسألة أكدها القرآن الكريم مرّات عديدة ، منها عبر تصويره لعدم علم عيسى عليه السلام بما جرى على الأرض ، حينما توفاه الله تعالى ..

﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ^٨ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ^٩ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٧]

.. وهذا البرزخ الذي يحجز النفس - بعد موتها - عن عالم الدنيا ، هو من مقتضيات انتهاء زمن امتحان هذه النفس في حمل الأمانة .. فالنفس في عالم البرزخ لم تعد تُدرك الجزئيات كما كانت تُدركها في حياتها الدنيا عبر الجسد الحيّ ..

.. وفي هذا السياق لا بُدّ من التعرّض لحقيقة قرآنية مُغيّبة ، وهي عدم سماع الموتى لأيّ شيءٍ ممّا في عالم الدنيا التي خرجوا منها .. وقد بيّنتُ في كتاب : المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ، أنّ كلمة الموتى (في القرآن الكريم) تعني الذين خرجوا من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ ، سواءً كانوا مؤمنين أم كانوا كافرين ، وبيّنتُ أنّ كلمة الأموات تعني فاقدَي الروح من البشر ، سواءً كانوا على قيد الحياة ، أم كانوا من الموتى ..

.. فالله تعالى يصفُ الذين يدعون من دونه ، وهم من أهل الدنيا ولم يُغادروها بعد .. يصفهم بالأموات ..

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾ أمواتٌ

غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿ [النحل : ٢٠ - ٢١]

وكنا قد بيّنا أنّ المعني بالأموات - هنا - هو البشر الذين يدعون من دون الله تعالى .. ومن البراهين على ذلك هو ورود كلمة ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ ، في بداية هذه الصورة القرآنية دون كلمة (وما) .. ومن البراهين على ذلك هو العبارة ﴿ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ..

.. وفي الوقت ذاته يصفُ الله تعالى بعضَ الذين غادروا الدنيا (أي بعضَ الموتى) بأنهم ليسوا أمواتاً ..

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾

[البقرة : ١٥٤]

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [

آل عمران : ١٦٩]

إذا حينما يقول لنا الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ في الآيتين التاليتين :

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [النمل :

[٨٠

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [الروم :

[٥٢

فإنه جلّ وعلا يعني عدم إسماع الذين غادروا الدنيا ودخلوا عالم البرزخ ، سواء كانوا مؤمنين أم كانوا كفاراً ... وزعمهم بأنّ كلمة الموتى تعني الكفار المدبرين عن منهج الله تعالى ، هو قولٌ غير سليم .. فمن جهة ، الكفار المدبرين عن منهج الله تعالى من الأحياء يصفهم كتاب الله تعالى - كما رأينا - بالأموات وليس بالموتى ، والعبارة القرآنية التي نحن بصدد تفسيرها تتعلق بالموتى وليس بالأموات ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ .. ومن جهةٍ أخرى ، فإنّ العبارة ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ ، هي التي تعني المدبرين عن منهج الله تعالى ، وهي - كما نرى - معطوفة - على العبارة ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ ، وعلى العبارة ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ .. وكلُّ ذلك يُفند زعمهم بأنّ العبارة القرآنية ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ تتعلق بالأحياء المعرضين عن منهج الله تعالى ..

.. إذا .. النفس في حياة البرزخ لا تملك أيّ آليّة جسديّة لإحساس بالألم أو باللذّة ، لأنّها خارج الجسد ، وفي عالمٍ مجرّدٍ عن المادّة والمكان والزمان ، وهي بالأصل مجرّدة عن المادّة والمكان والزمان .. وأيّ إحساسٍ لها سواءً بالألم أم باللذّة ، هو إحساسٌ نفسيّ ، مجرّدٌ عن أيّ آليّة جسديّة مادّيّة ..

.. وحتى في الحياة الدنيا ، أثناء وجود النفس في الجسد ، فإنَّ النفسَ هي التي تحسّ بالألم واللذة ، لا الجسد .. ولكنّها - في حياتها الدنيا - تحسّ بآليّة الجسد عبر أعضائه ، فالجسد ليس أكثر من آليّة لإحساسها ..

.. إذاً .. الموتة الأولى - كما يُبيّن القرآن الكريم - هي التي نشهدها في هذه الدنيا حين خروج النفس من الجسد خروجاً نهائياً ، يعقبه تفسّخ الجسد وعودته إلى أصله الذي نشأ منه وهو التراب .. وهذه الموتة تمرّ منها الأنفس كلّها ، مؤمنة وكافرة دون استثناء ..

.. وبما أنّ هذه الموتة (الموتة الأولى) نشهدها أمام أعيننا ، فلم ينكرها الكافرون ، إنّما يُنكرون الموتة الثانية التي تسبق البعث في الآخرة كما سنرى ..

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

فَأَتُوا بِغَابِئِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ [الدخان : ٣٤ - ٣٦]

ولذلك نرى أنّ أحدَ أهل الجنة ، حينما يطّلع ويرى في سواء الجحيم قريناً له في الدنيا ، يذكر مقولة قرينه الكافر المطابقة لمقولة الكافرين ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ ، وهي عدم الاعتراف إلاّ بالموتة الأولى وإنكار البعث والعذاب ..

﴿ فَأَقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٣٧﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٣٨﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأِنَّا لَمَمْدِينُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴿٤٠﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿٤١﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَتُرْدِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٤٣﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَمِيَّاتٍ ﴿٤٤﴾ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الصافات : ٥٠ - ٥٩]

.. فالآيتين الأخيرتان ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَمِيَّاتٍ ﴾ ﴿ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدَّبِينَ ﴾

تُصوّران تمكّم الرجل المؤمن في الجنة على قول قرينه الكافر أثناء الحياة

الدنيا ، هذا القول المطابق لقول الكافرين في سورة الدخان ﴿ **إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ** ﴾ ..

.. وهاتان الآيتان (الأخيرتان) لا يُمكن أن تُشيراً إلى قول الرجل المؤمن عن حال المؤمنين في الجنة ، فأهل الجنة يعلمون علماً تاماً - بمجرد دخولهم الجنة - أنهم لن يموتوا فيها ، ولن يُعذبوا ، ولن يخرجوا منها ، والقرآن الكريم أكد هذه الحقيقة في الكثير من آياته .. وبالتالي فإنَّ سحب هاتين الآيتين على قول الرجل المؤمن عن حال أهل الجنة ، سيؤدّي إلى وصف أهل الجنة بأنهم لا يعلمون بخلودهم فيها ، وبأنهم لا يعلمون بمفازتهم من العذاب ، وهذا يُناقض صريح القرآن الكريم ..

.. والكافرون المنكرون للموتة الثانية ، سيعترفون - في جهنم - بذنوبهم المترتبة على هذا الإنكار ، حيث قادهم هذا الإنكار إلى إنكار البعث ، وإلى الكفر بمنهج الله تعالى ، وإلى اقرار الذنوب التي أدت بهم إلى جهنم ..

﴿ **قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأُحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن**

سَبِيلٍ ﴾ [غافر : ١١]

.. إنَّ قولهم ﴿ **أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ** ﴾ يعني نقلتنا من حالة الحياة إلى حالة الموت في نقلتين اثنتين ، لا يوجد بينهما فاصلٌ من الزمان والمكان ، ولا يعني ذلك نقلتنا من حالة الحياة إلى حالة الموت مرتين (حياة يتبعها موت ثم حياة يتبعها موت) ، فلو كان الأمر كذلك لأتت العبارة القرآنية على الشكل (أمتنا مرتين) ..

وقولهم ﴿ **وَأُحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ** ﴾ يعني نقلتنا من حالة الموت إلى حالة الحياة في نقلتين اثنتين ، لا يوجد بينهما فاصلٌ من الزمان والمكان ، ولا يعني نقلتنا من حالة الموت إلى حالة الحياة مرتين (موت يتبعه حياة ثم موت يتبعه حياة) ، فلو كان ذلك لأتت العبارة القرآنية على الشكل (وأحييتنا مرتين) ..

.. فالحياة الدنيا (الحياة الأولى) والحياة الآخرة (الحياة الثانية) ، لا يُوجَد بينهما - بالنسبة للإنسان ومن منظار عالم البرزخ الذي يفصلهما عن بعضهما - أيُّ زمان ، لأنَّ عالم البرزخ - كما رأينا - خارج ساحة الزمان والمكان .. وبالتالي فالحياتان - من هذا المنظار - كأنَّهما متصّلتان ..

.. وقوله تعالى ﴿ **الطَّلِقُ مَرَّتَانٍ** ^ط ﴾ [البقرة : ٢٢٩] ، يؤكِّد حقيقة ما نذهب إليه ، فهو يعني وقوع الطلاق ثمَّ عودة للحياة الزوجية ، ثمَّ بعد ذلك وقوع الطلاق مرَّةً أُخرى .. ولو قال الله تعالى (الطلاق اثنتان) لكان ذلك يشمل تكرار عبارة الطلاق في حالة واحدة (مرَّةً واحدة) دون عودة إلى الحياة الزوجية بين عبارة الطلاق الأولى والثانية ..

.. إذاً هناك حياتان ، هما الحياة الدنيا والحياة الآخرة .. وهناك موتتان ، كما رأينا في إقرار أهل النار .. إضافة إلى أنَّ قول الله تعالى ﴿ **لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ** ^ط **وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ** ﴾ [الدخان : ٥٦] ، يُشير إلى أنَّ هناك موتة ثانية لا يموتها أهل الجنة ..

.. والموتة الأولى معلومة ، وهي التي تخرج بها أنفسنا من أجسادنا خروجاً نهائيًّا ، حيث نترك الدنيا وندخل عالم البرزخ .. ولكن .. ما هي الموتة الثانية ؟ .. ومتى تكون ؟ .. وهل يمرُّ منها جميع البشر أم بعضهم ؟ ..

.. إنَّ الآية الكريمة ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٨] ، لا تُبيِّن لنا الموتة الثانية (كما ذهب بعضهم) ، وذلك للأسباب التالية :

[١] - قوله تعالى ﴿ **وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا** ﴾ لا يعني أنَّه حصلت إماتة بعد حياة ، فلو كان ذلك لكان هناك ثلاث حيوات ، هي هذه الحياة (المفترضة) التي قبل الدنيا ، والحياة الدنيا ، والحياة الآخرة ، ولتناقض ذلك مع العبارة القرآنية ﴿ **وَأَحْيَيْتَنَا أَتْنَيْنِ** ﴾

التي تحصر الحياة بحياتين ، هما - كما يؤكد القرآن الكريم في العديد من آياته - الحياة الدنيا والحياة الآخرة ..

.. فقولته تعالى ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ نرى فيه كلمة ﴿ أَمْوَاتًا ﴾ وليس كلمة (

موتى) .. ولذلك فهذه العبارة القرآنية ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ تُبَيِّن لنا أنه قبل مجيئنا إلى الدنيا وولادتنا من أرحام أمهاتنا ، كانت أنفسنا دون روح .. فالروح (الصلة والقربى والفطرة النقية الطاهرة) يُنْفَخُ فينا حين ولادتنا ..

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۗ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۗ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٧ - ٩]

.. إذا .. قوله تعالى ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ لا يعني أنه حصلت إماتة بعد حياة ..

إتما يعني أن أنفسنا قبل ولادتنا في هذا العالم ، لم يُنْفَخَ فيها الروح .. وبالتالي فالاستشهاد بهذه الآية الكريمة على أن الموتة الأولى هي قبل مجيئنا إلى الدنيا ليس سليماً ..

.. ولا بدّ - في هذا السياق - أن نذكر أنه لا حياة في عالم البرزخ ، أي لا عودة للنفس إلى جسدها في هذا العالم ، وبالتالي ليس هناك آليّة ماديّة (كالتّي في الحياة الدنيا) لإحساس النفس في القبر ، سواء بالعذاب أم باللذّة .. فلو كان ذلك لكانت هناك ثلاث حيوات ، ولتناقض ذلك مع صريح القرآن الكريم ..

[٢] - الموتة الأولى هي التي تعقب حياتنا الدنيا هذه ، بدليل إقرار الكفّار بها

كما يؤكد القرآن الكريم دون أن يُنكر عليهم ذلك .. بينما قوله ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ يخصّ ما قبل الحياة الدنيا ، أي مرحلة الأنفس المجردة قبل هبوطها إلى الدنيا بغية امتحانها في حمل الأمانة .. فالموتة الأولى هي - حصراً - الموتة التي تنقلنا من الحياة الدنيا إلى عالم البرزخ ..

[٣] - قوله تعالى ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ يصف - كما قلنا - عالم الأنفس المحرّدة ، قبل ولادتنا في الدنيا ، وفي هذا العالم وُجِدَت جميع الأنفس ، المؤمنة والكافرة ، فلو كانت هذه المرحلة هي الموتة الأولى ، والموتة الثانية هي خروجنا من الدنيا إلى عالم البرزخ ، حيث تخرج جميع الأنفس مؤمنة وكافرة .. لو كان ذلك لذاق أهل الجنّة موتتين ، بدل موتة واحدة (الموتة الأولى) ، ولتنافى ذلك مع صريح القرآن الكريم ، الذي يؤكد أنّ أهل الجنّة لا يذوقون إلاّ الموتة الأولى ..

[٤] - لو كانت العبارة القرآنيّة ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ تعني الموتة الأولى ، لكانت الموتة الثانية هي التي نشهدها ، ولكان بينهما فاصلٌ من الزمان والمكان هو حياتنا الدنيا ، وبالتالي لكان الموت يقع مرّتين وليس اثنتين ، وهذا يناقض العبارة القرآنيّة ﴿ أَمْئِنَّا أَنْتَيْنِ ﴾ ..

.. إذا الموتان الأولى والثانية ، هما داخل العبارة القرآنيّة ﴿ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ﴾ في الصورة القرآنيّة : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨] ..

الموتة الأولى تفصل بين عالم الدنيا وعالم البرزخ ، والموتة الثانية تفصل - كما سنرى - بين عالم البرزخ وعالم الآخرة .. فبين الموتتين عالم البرزخ ، وهو عالم ما وراء المادّة والمكان والزمان ، ولذلك رأينا كيف أنّ النصّ القرآني أتى ﴿ أَمْئِنَّا أَنْتَيْنِ ﴾ ولم يأت (أمئنا مرّتين) .. أي لا زمان ولا مكان بين الموتتين ، وذلك من منظار عالم البرزخ .. وكذلك - كما قلنا - لا زمان ولا مكان بين الحياتين الدنيا والآخرة - من المنظار ذاته - ولذلك رأينا أنّ العبارة القرآنيّة هي ﴿ وَأَحْيَيْنَا أَنْتَيْنِ ﴾ ، ولم تأت (وأحييتنا مرّتين) ..

.. ولو عدنا إلى القرآن الكريم لرأينا أنّ النفخة الأولى في الصور تؤدّي إلى مسألتين متلازمتين تماماً ، هما الفرع والصعقة ..

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۗ
وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل : ٨٧]

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۗ ثُمَّ
نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨]

.. فالفزع والصعقة ، مسألة تشمل كل من في السماوات والأرض ، إلا من شاء الله تعالى له ألا يفزع ولا يصعق ، كما يؤكد القرآن الكريم ، أي تشمل كل الأنفس - التي ستصعق - من عصر آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، بدليل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ .. فالذين يقومون ينظرون بعد النفخة الثانية هم جميع البشر من آدم عليه السلام إلى آخر إنسان في الحياة الدنيا ، وليس فقط الأحياء أثناء قيام الساعة .. وبالتالي فالعبارة القرآنية ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۗ ﴾ تشمل - فيما تشمل - البشرية جمعاء ، من آدم عليه السلام إلى آخر إنسان في الحياة الدنيا ..

والله تعالى يتوعد الكافرين ، بهذه الصعقة .. ﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٦﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الطور : ٤٥ - ٤٦] .. فالكافرون الذين يتوعدهم الله تعالى بهذه الصعقة موجودون في كل العصور .. وبالتالي فالصعقة ستكون للنفس المجردة ، وليس للإنسان الجسد ، فمعظم الكافرين الذين ستصعق أنفسهم غادروا الدنيا - عبر الموت - قبل قيام الساعة وفي الوقت ذاته يؤكد لنا القرآن الكريم أنّ المؤمنين الذين سيدخلون الجنة ، آمنون من الفزع الأكبر ، وبالتالي آمنون من الصعقة التي تنتج عن النفخة الأولى ..

﴿ لَا سَخْرَ لَهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّبُهُمُ الْمَلَيْكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [١٠٣ - ١٠٤] [الأنبياء : ١٠٣ - ١٠٤]

.. إذا المؤمنون الذين سيدخلون الجنة لا يفزعون ولا يصعقون ، ويدخلون ضمن

إطار الاستثناء ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ في الصورتين القرآنيتين التاليتين ..

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾
وَكُلُّ أُنثَىٰ دَاخِرِينَ ﴿ [النمل : ٨٧]

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨]

.. هذه الصعقة الناتجة عن النفخة الأولى وما يُرافقها من فزع [سماه الله تعالى]

﴿ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ ﴾ [هي الموتة الثانية التي تنال جوهر النفس المجردة .. ونرى أنها تنال فقط أنفس الذين سيدخلون النار .. وبالتالي فإن أهل النار يكونون قد ماتوا موتتين ، الموتة الأولى هي التي يشتركون فيها مع أهل الجنة ، وهي التي تنفصل فيها النفس عن الجسد انفصلاً كاملاً لتدخل في عالم البرزخ ، والموتة الثانية التي ينفردون بها ، هي الصعقة التي تنال أنفسهم نتيجة النفخة الأولى .. ولذلك يقولون : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أُمَّتَنَا

أَثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا أُنْتَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر : ١١]

.. بينما أهل الجنة مستثنون من الصعقة وما يصحبها من فزع ، وبالتالي لا يموتون

الموتة الثانية التي يموتها من سيدخلون النار .. ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ

الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [الدخان : ٥٦]

.. ومفهوم الصور في القرآن الكريم من الجذر اللغوي (ص ، و ، ر) ، ومفهوم النفخ فيه ، يحملان دلالة تغيير النواميس من حال إلى حال .. والتفسير التاريخي للصور بأنه بوق وأداة للنفخ ، ليس سليماً ..

.. وحتى لو أغمضنا أعيننا عن كون كلمة **«الصور»** من مشتقات الجذر اللغوي (ص ، و ، ر) ، وبالتالي تعلقها بدلالات هذا الجذر اللغوي ، فإن العبارة القرآنية **«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ»** التي ترد في جميع مرّات ورودها بهذه الصيغة [] حيث ترد هذه الصيغة **«في الصور»** عشر مرّات ، دون الصيغة ((بالصور)) [] ، تُؤكّد أنّ الصور ليس أداة للنفخ في شيءٍ آخر ، إنّما النفخ - المعنى في هذه العبارة القرآنية - هو في الصور ذاته .. فساحة النفخ هي في ذات الصور **«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ»** .. فلو كان الصورُ بوقاً يُنفخُ فيه ، لكانت العبارة القرآنية على الشكل : (وَنُفِخَ بِالصُّورِ) .. في كتاب الله تعالى .. صورة الشيء هي هيئته وشكله وناموسه ..

«فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ» [الانفطار : ٨]

.. وتصوير الشيء هو إعطاؤه شكله وماهيته وناموسه الذي يميّزه ..

«هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ» [آل عمران : ٦]

.. وكلمة **«الصور»** ، لم ترد في كتاب الله تعالى إلا معرفةً بأل التعريف ، لتصوّر لنا الماهية والناموس الذي يحكم شكل الكون وماهيته وقوانينه .. وبالتالي فإنّ النفخ في الصور ، هو النفخ في هذا الناموس ، وبالتالي سيؤدّي هذا النفخ إلى نهاية ناموس الدنيا وقوانينها .. من هنا ينتج الفزع ، وتنح الصعقة ، وتبدّل الأرض والسموات .. وفي النفخة الثانية في هذا الناموس يُعاد تشكيل العالم الآخر بناموس جديد له هيئته وماهيته المختلفة عن ناموس عالم الدنيا ..

.. والموتة الأولى التي تؤدّي إلى دخول النفس في عالم البرزخ ، هي - في الحقيقة - الدرجة الأولى من درجات الآخرة .. فالنفس المؤمنة بمجرد مفارقتها للدنيا تدخل مرحلة

عين اليقين ، فتعرفُ مصيرها وهو الجنة .. والنفس الكافرة بمجرّد مفارقتها للعالم تدخل مرحلة عين اليقين فتعرفُ مصيرها وهو النار ..

.. وأهل الجنة يطّلعون على الجنة منذ موتهم الأولى ، ودخولهم مرحلة عين اليقين .. وبالتالي حينما يدخلونها في الآخرة (في مرحلة حقّ اليقين) ، يكونون قد عرفوها سابقاً .. ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمَ ﴾ [محمد : ٦]

.. وفي حال حمل بعض النصوص القرآنية التي تُبيّن أنّ الشهداء والصالحين يدخلون الجنة ، على الدخول المباشر بعد الموت مباشرة ، فإنّ الجنة المعنية - وفق هذا المذهب من التفسير - هي الجنة الروحية (لا الحسبية) كمرحلة عين يقين ، وليس كمرحلة حقّ يقين .. وكذلك الأمر بالنسبة لأهل النار ..

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۗ قَالَ يَلِيَّتْ قَوْمِي يَعْلمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ

الْمُكْرِمِينَ ﴾ [يس : ٢٦ - ٢٧]

﴿ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا ﴾ [نوح : ٢٥]

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي

عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠]

والصورة القرآنية التالية ، تُبيّن هذه الحقيقة ..

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ ﴿١١٦﴾

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَدَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٧﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا

يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ - ١٧١]

فالصورة القرآنية ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ تؤكد أنهم لم يدخلوا الجنة الحسية بعد ، فالاستبشار هو طلب البشر والسرور .. أي أنهم يأملون بعد دخولهم الجنة الحسية - التي لم يدخلوها بعد - المزيد من نعمة الله تعالى وثوابه ..
والسعادة الحاصلة لهؤلاء - في مرحلة عين اليقين هذه - هي سعادة روحية يُرزقون فيها رضوان الله تعالى وغفرانه ، وحياءً إيمانية تصلهم بالله تعالى ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ﴾ .. فهي ثُمائل حال الملائكة الذين عند ربهم ..

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠٦]

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء : ١٩ - ٢٠]
﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت : ٣٨]

.. أما الدخول الحسي لأهل الجنة إلى الجنة ، ولأهل النار إلى النار ، فهو دخول جماعي ، حسي ، لا يكون إلا بعد النفخة الثانية ، وبعد إنشاء الجنة والنار الإنشاء الحسي ، وبعد أن يقضي الله تعالى بين العباد بالحق ..

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ

ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؕ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ
عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ؕ فَبِئْسَ مَثْوَى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ؕ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا
وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٨﴾ [الزمر :

[٧٣ - ٦٨]

.. وكنا قد رأينا أن الفرع الأكبر يكون حين النفخة الأولى ، حيث يتغير الناموس
الذي كان يحكم عالم الدنيا حتى تلك اللحظة ..

﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ
تُوعَدُونَ ﴿٧٩﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ؕ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ
نُعِيدُهُ ؕ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣ - ١٠٤]

وهناك فرع آخر يكون بعد النفخة الثانية ، حين تُكَبُّ وجوه الكافرين في النار :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ؕ آمِنُونَ ﴿٨١﴾ وَمَنْ جَاءَ
بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٩ -
٩٠]

والنفوس في عالم البرزخ مجردة عن عالم المادة ، وبالتالي لا تُدرك الجزئيات ، وما
تدركه هو الكليات .. فالنفوس المؤمنة تكون - في عالم البرزخ - أشبه ما تكون بالحالة
الملائكية ، فقد عملت في حياتها الدنيا وفق منهج الله تعالى .. والنفوس الكافرة تكون -
في عالم البرزخ - أشبه ما تكون بالحالة الشيطانية ، مرهونة بعملها المناقض لمنهج الله
تعالى ، الذي عملته في حياتها الدنيا ..

.. وعلى الرغم من أن النفوس المؤمنة والكافرة تكون - في عالم البرزخ - في
مرحلة عين اليقين بالنسبة للجنة والنار .. فإنَّ عدم إدراكها للجزئيات في ذلك العالم ،

وعدم إحساسها بالزمان والمكان ، يجعلها (وهي في عالم البرزخ) غير مدركة لحقيقة تفاعلها الحسي مع الجنة والنار ، هذا التفاعل الحسي الذي لا يكون إلا بعد تزواج هذه النفوس مع أجسادها التي ستخلق في الآخرة .. ولذلك بعد هذا التزواج (بعد النفخة الثانية) ، وبعد إدراكها للجزئيات ، إضافة لإدراكها للكليات ، تُدرك حقيقة العالم الآخر إدراك حقّ يقين ..

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولَاقَنَا
مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥١
- ٥٢]

.. والجنة والنار كوجود حسيّ مادّي كامل ، ليستا موجودتين أصلاً قبل الانقلاب الكوني الذي تُبدّل فيه الأرض غير الأرض ، وكذلك السماوات ..

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِهُ رُسُلُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٥٢﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ
الْأَرْضُ غَيْرِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۗ وَرَزَوُا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٥٣﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ [إبراهيم : ٤٧ - ٤٩]

.. فبعد انتهاء خلافة الإنسان لله تعالى على هذه الأرض ، وبعد أن يُنفخ في الناموس ﴿ الصُّورِ ﴾ الذي حكم الدنيا وهياتها وقوانينها ، بعد ذلك ، يبدأ ناموس الآخرة ، ويرث الله تعالى الأرضَ ومن عليها ..

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : ٣٩ - ٤٠]

.. وهذه الأرض .. بعد الانقلاب الكوني (حيثُ ناموسُ الآخرة وقوانينها) ، بعد ذلك ، تُقام الجنة عليها ويعرضها وعرض السماوات ..

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ

لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣]

.. ومما يؤكد أن الجنة ستقام على الأرض بعد أن تبدل هي والسموات ، أن الله تعالى سيورث هذه الأرض (بعد تبديلها وإقامة الجنة عليها وبعرض السموات) لعباده الصالحين ..

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۗ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۗ

وَعَدًّا عَلَيْنَا ۗ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ

الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤ - ١٠٥]

إتنا نرى في هذا النصّ القرآني ، أن ميراث العباد الصالحين للأرض ، هو بعد الإعادة إلى الخلق الأول .. وبالتالي فهذا الميراث يكون بعد إنشاء الجنة عليها بعرضها و عرض السموات ..

.. وأهل الجنة بعد دخولهم إلى الجنة ، يمدون الله تعالى بأن أورثهم هذه الأرض (التي أصبحت من الجنة) ..

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ

حَيْثُ نَشَاءُ ۗ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر : ٧٤]

.. فميراث أهل الجنة للأرض التي ستبدل في الآخرة ، هو ذاته ميراثهم للجنة ..

﴿ وَتُودُوا أَن تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٣]

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : ٦٣]

.. وهكذا نرى أن الجنة - وكذلك النار - غير موجودة الآن كوجود حسي ، لأنها ستقام على أنقاض الأرض التي نعيش عليها الآن ، بعد أن يُعاد الخلق ، وبعد أن يذهب ناموس الدنيا ويأتي ناموس الآخرة ..

.. ولو فرضنا جدلاً أن الجنة والنار موجودتان الآن ، لفنيا بالانقلاب الكوني ،
الذي سيحدث يوم القيامة .. فكل شيء سيهلك .. ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾
[القصص : ٨٨] ..

ولو فرضنا جدلاً أنّهما موجودتان الآن ، وستعادان على ذات الهيئة بعد أن يفنيا
بالانقلاب الكوني ، فإن ذلك يناقض قول الله تعالى في وصف الجنة ..
﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ
وَوَظْلُهَا ۖ ﴾ [الرعد : ٣٥] .. فقولته تعالى ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ يعني أنه لا يأتيها
الفناء ..

.. وفي هذا السياق لا بدّ من الوقوف عند حقيقة ، هي أن كون الجنة والنار ليستا
موجودتين وجوداً مادياً حسيّاً الآن ، لا يعني عدم وجودهما في علم الله تعالى ، ولا يعني
عدم وجودهما وجوداً مجرداً عن الكينونة المادية .. أبداً .. كل الأشياء التي تولد ولادة
مادية حسيّة في عالمنا المخلوق المتشّيء هي موجودة في علم الله تعالى ، وتوجد في هذا
العالم المادّي الحسيّ بكلمة ﴿ كُن ﴾ من الله تعالى ، حيث يقول لها الله تعالى (قبل
وجودها المادّي الحسيّ المتشّيء) ﴿ كُن ﴾ فتكون بعد ذلك في هذا العالم ..

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠]
.. وجهتهم لا تخرج على هذا الناموس ، فكونها الآن غير موجودة مادياً وحسيّاً ،
وأنها ستوجد هي والجنة بعد الانقلاب الكوني الذي تُبدّل فيه الأرض غير الأرض
والسماوات ، لا يعني ذلك أنّها غير موجودة الآن في علم الله تعالى ككيان مجرد عن
الوجود الحسيّ المتشّيء ..

وجهتهم الآن ككيان مُجرّد سيوجد ويتجسّد مادياً بعد الانقلاب الكوني الذي لم
يحدث بعد ، يُعرض عليها أهلها في الحياة الدنيا ، وهم يمارسون طغيانهم وكفرهم
ومعاصيهم ، وهذا ما نراه جليّاً في قوله تعالى :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۗ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

.. لقد وردت هذه الآية الكريمة في سياق قرآني يُصوِّر حواراً بين رجلٍ مؤمن من آل فرعون يكتنم إيمانه ، وبين وقومه ..

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٦٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كُذِّبًا ۗ وَكَذَلِكَ زُينَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٦٨﴾ يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٦٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ۗ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٧٠﴾ * وَيَنْقُومِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٧١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ ﴿٧٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٧٣﴾ فَسْتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أُمُورِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٧٤﴾ فَوَقَّه اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا ۗ وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٧٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۗ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٧٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّعْتَدُونَ ۗ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ [غافر : ٣٦ - ٤٧]

.. العبارة القرآنية في الآية السابقة مباشرة للآية الكريمة موضوع البحث ﴿فَوَقَّهٖ
 اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكَّرُوا^ط﴾ ، هذه العبارة القرآنية ، الضمير فيها يعود إلى هذا الرجل
 المؤمن في القصة المذكورة في هذا السياق القرآني ، وساحة الدلالات المحمولة بهذه العبارة
 القرآنية هي في حياته الدنيا ، بمعنى أن السياق القرآني ما زال تابعاً للقصة القرآنية التي
 تصف سيرة هذا الرجل وصراعه مع قومه ..

والعبارة التالية لها مباشرة والمعطوفة عليها ﴿وَحَاقَ بِقَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾
 هي أيضاً ساحتها عالم الدنيا ، بمعنى أن سوء العذاب حاق بآل فرعون في حياتهم الدنيا ،
 فسيئات ما مكروا بهذا الرجل المؤمن وبغيره من المؤمنين ، وما يترتب على هذا المكر من
 عذاب ، أحاط سوؤه بآل فرعون ، بمعنى ثبت عليهم العذاب ولبستهم الخطيئة ، ولا مفر
 لهم من دفع مستحقات مكرهم الذي مكروه ..

وكلمة ﴿وَحَاقَ﴾ تؤكد أن ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أحاط بهم ، وثبت عليهم ، ولا
 مجال لهم للهروب منه ، ولا يعني ذلك أبداً أنهم دخلوا في العذاب وذاقوا العذاب ..
 فسوء العذاب وليس عين العذاب هو ما أحاط بهم نتيجة مكرهم الذي مكروه ، ولا
 يعني ذلك أبداً أنهم دخلوا في ذات العذاب .. والنص القرآني التالي يبين هذه الحقيقة :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِن إِيحَادَى
 الْأُمَمِ^ط فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ^ع
 وَلَا تَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ^ع فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ
 اللَّهِ تَبْدِيلًا^ط وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر : ٤٢ - ٤٣]

إذاً .. المكر السيء لا يحيق إلا بأهله ، وليس من المستغرب أن يكون ذلك في الدنيا
 العبارة القرآنية ﴿وَلَا تَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ^ع﴾ تنوِّس نصاً يتكلم
 بمجمله عن أمور تحدث في الدنيا .. فالعبارة السابقة لها ﴿اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ

السَّيِّئِ^ع ، والعبارة التالية لها ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا^ط وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ ، كلاهما تصوّران أموراً لا تخرج عن عالم الدنيا

..

.. وهذا هو عين ما تصوّره العبارتان القرآنيتان ﴿ فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكُرُوا^ط وَحَاقَ بِحَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ في النصّ قيد الدراسة ، فسوء العذاب الذي حاق بحاق فرعون (بمعنى ثبت عليهم ولبستهم خطيئتهم ولا مجال لهم للخلاص) إنّما حاق بهم في الحياة الدنيا ، وليس في الآخرة أو في عالم البرزخ ..
.. وفي النصّ التالي في سورة غافر ذاتها ما يؤكد صحّة ما نذهب إليه ..

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^{٨٣} ﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر : ٨٣ - ٨٤]

.. العبارة القرآنيّة ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ساحتها الدنيا وليس الآخرة ، بدليل أنّها تتوسّط عبارات قرآنيّة تصوّر أموراً لا تخرج عن عالم الدنيا ، فالعبارة السابقة لها مباشرة ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ تصوّر أحداثاً حدثت في عالم الدنيا ، وكذلك العبارة القرآنيّة التالية لها مباشرة ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ..

.. وها هي باقي النصوص القرآنيّة الحاملة لمشتقات الجذر (ح ، ي ، ق) في كتاب الله تعالى .. حيث نرى فيها بعض النصوص صريحة في تصوير مسائل تتعلّق بالدنيا ، وبعضها في مسائل تتعلّق بالآخرة ..

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [الأنعام : ١٠ - ١١]

﴿ وَلَئِن أَخْرَجْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا سَحَّسُهُمْ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِن أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ﴾ [هود : ٨ - ٩]

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [النحل : ٣٢ - ٣٤]

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٨ - ٤١]

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٨﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧ - ٤٨]

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَلِكُم مَّا كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَأَتِكُم النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢ - ٣٤]

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا تَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦ - ٢٧]

.. إذا .. حمل الآية الكريمة كاملة ﴿ فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكَّرُوا^ط وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ على الدنيا هو أمرٌ لا يتعارض أبداً مع روح دلالات كتاب الله تعالى .. بل إن عطف الجملة ﴿ وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ على الجملة السابقة لها ﴿ فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكَّرُوا^ط ﴾ التي لا شك أن دلالاتها لا تخرج عن الدنيا ، يؤكد صحة ما نذهب إليه من أن العبارة القرآنية ﴿ وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ لا تخرج دلالاتها عن عالم الدنيا ، ولا عن سياق هذه القصة القرآنية ..

.. والعبارة القرآنية التالية مباشرة ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ تتعلق بالعبارة السابقة لها مباشرة ﴿ وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ تعلق تبيان لماهية إحاطة سوء العذاب بآل فرعون .. فكيف يكون ذلك ؟ ..

ما نراه في هذه العبارة القرآنية أن آل فرعون هم الذين كانوا يُعرضون على النار ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ وليست النار هي التي كانت تُعرض عليهم ..

فالله تعالى لم يقل (النار تُعرض عليهم غدواً وعشيّاً) إنما يقول ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ ..

ففي قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١] ، نرى أن أصحاب الأسماء هم الذين عُرضوا على الملائكة ، وليس العكس ..

وفي قوله تعالى ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ [ص : ٣١] ، نرى أن الصافنات الجياد هي التي عُرضت على سليمان عليه السلام ، وليس العكس ..

.. إذاً .. آل فرعون هم الذين كانوا يُعرضون على النار ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ وليست النار هي التي كانت تُعرض عليهم ، ولو كانت النار هي التي كانت تُعرض عليهم لأنت الصياغة مشابهة لصياغة قوله تعالى ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ * وَتَرَكَنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فْجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿١١٠﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١١١﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف : ٩٨ - ١٠١]

.. الله تعالى يقول ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ ، فالكافرون هم الذين رأوا جهنم يومئذ بعرضها لهم ... ولم يقل جلّ وعلا (وعرضنا الكافرين يومئذ لجهنم عرضاً) ..

وفي قوله تعالى ﴿ وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۗ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ لَّجُعَلْ لَّكُمْ مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف : ٤٨] ، نرى أن وقوفهم في الموضع الذي يُسألون فيه عن أعمالهم ويُحاسبون عليها ، وصَفَهُ اللهُ تعالى بأنه عرضٌ على صفة

الربوبية ، وكلُّ ذلك يتعلّق بما يليق بالذات الإلهية ويترهها عن أيّ تجسيد أو تحييز ..
فهؤلاء هم الذين عُرضوا على صفة الربوبية ، وليست صفة الربوبية هي من عُرض عليهم ..
وهذا يشبه قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود : ١٨] .. وما نراه في هذين النصين هو تعلق العرض بصفة الربوبية حصراً ..

.. إذا .. قوله تعالى .. ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ يصف عرض آل فرعون على النار وليس عرض النار عليهم .. بمعنى أن النار كانت تراهم ، لا العكس ..
وكلمة ﴿ النَّارُ ﴾ هي بدل من ﴿ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ .. والعبارة ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ تُبين حال إحاقّة سوء العذاب بآل فرعون ، عبر عرض آل فرعون على النار .. وكلُّ ذلك هو في الحياة الدنيا ، حيث آل فرعون يمارسون معاصيهم التي تُوجب عليهم العذاب في الآخرة ، والذي أحاط بهم سوءه في حياتهم الدنيا نتيجة عرضهم هم على النار ، بمعنى أن النار تراهم أثناء ممارستهم لمعاصيهم ..
إذاً قوله تعالى ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ يُصوّر حال الإحاقّة المحمّولة في العبارة السابقة مباشرة ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ ..

.. وورود كلمة ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ بصيغة المضارع يتعلّق باستمرارية رؤية النار لأهلها وهم يمارسون المعاصي ، رؤية موازية لاستمرارهم في فعل هذه المعاصي ، كون المسألة تتعلّق بالنار ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ ..

.. وفي تكملة الآية الكريمة ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ دليلٌ على أن الدخول الحسي في العذاب لا يبدأ قبل قيام الساعة .. وهذا أمر

طبيعي ، ففي عالم البرزخ تكون النفس منفصلةً تماماً عن الجسد ، والعذاب الحسي لا يكون إلا بوجود الزوجين النفس والجسد معاً ..

وحتى لو لم نأخذ بهذا التفسير ، واعتبرنا أن آل فرعون كانت النار هي التي تُعرض عليهم ، فإن ذلك ليس دليلاً على العذاب الجسدي الحسي في القبر ، فالعرض هو الرؤية ، ولا يعني أبداً الدخول في العذاب .. أبداً .. العرض كما نرى من مشتقات الجذر (ع ، ر ، ض) في كتاب الله تعالى يعني مجرد الرؤية ..

ونحن في هذا السياق لسنا في صدد تنفيذ مزاعم العذاب الحسي الجسدي في القبر ، فالآية الكريمة وعلى أي وجه تُحمل فيها دلالاتها ، لا تعني أبداً الدخول في العذاب الحسي قبل الآخرة واستشهاد بعضهم بقوله تعالى ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [السجدة : ٢١] على عذاب القبر ، ناتج عن جهل كبير ، وعن إعراضٍ كاملٍ عن دلالات كتاب الله تعالى ، فالعبارة ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ جلية في تبيان حقيقة العذاب الأدنى بأنه في الدنيا حصراً ..

.. إذاً .. النار ككيان مُجرّد عن التجسّد المادّي ، يُعرض عليها في الحياة الدنيا أهلها وأعمالهم ، ولذلك يصف الله تعالى النار بعد وجودها مادياً حسيّاً بعد الانقلاب الكوني بقوله ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ [ق : ٣٠] ..

.. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : ما هو السرُّ الذي ينتج عن إيمان المؤمنين فيحميمهم - وهم في عالم البرزخ - من الفرع والصعقة فلا يموتون إلا الموتة الأولى حين خروجهم من الدنيا ؟ .. ولماذا يفتقده الكافرون فيموتون موتتين اثنتين ؟ ..

.. هذا السرُّ هو الروح .. فقد رأينا في النظرية الثانية (القدر) أن كلمة الروح ومشتقاتها في القرآن الكريم ، تعني الصلة مع الله تعالى ، والقرب منه جلّ وعلا .. وأن الروح مسألة ، والنفس مسألة أخرى ، وسرّ الحياة في الجسد مسألة ثالثة ..
.. وفي الصورة القرآنية التالية أكبر دليل على أن الروح هو الصلة مع الله تعالى ، والقرب منه ..

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢]

.. فهؤلاء أيدوا بروح من الله تعالى نتيجة إخلاصهم لله تعالى وإيمانهم به .. وما يميزهم عن غيرهم من الذين لم يؤيدوا بهذا الروح ، هو الصلة مع الله تعالى والقربى منه جلّ وعلا ، وليس سرّ الحياة في الجسد ..
.. والآية الكريمة التالية تؤكد أنّ الروح الذي تنزل به الملائكة على بعض البشر ، هو المدد الإلهي لهؤلاء البشر ، لكي يُنذروا ويدعوا إلى الله تعالى ..

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢]

والرُّوحُ والرُّوحُ من مشتقات جذرٍ واحدٍ هو الجذر (ر ، و ، ح) ، وبالتالي فدلالتهما تدور ضمن إطارٍ واحدٍ من المعنى ، هو المدد والصلة والقربى من الله تعالى ..
﴿ يَبْنِيْ أَدْهَبُوا فَتَحَسَبُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رُّوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رُّوحِ اللَّهِ إِلَّا الْكٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧]

إننا نرى أنّ العبارة القرآنية ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رُّوحِ اللَّهِ إِلَّا الْكٰفِرُونَ ﴾ تُبيّن لنا أنّ الكافرين يائسون من روح الله ومفتقدون له ..
.. ولذلك فالروح الذي نفخه الله تعالى في آدم وعيسى عليهما السلام ، هو الصلة مع الله تعالى والقربى منه جلّ وعلا ، وليس مجرد سرّ الحياة الذي يدبّ في الجسد فيجعله حيّاً ..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٨ - ٢٩]

إنّ العبارة القرآنيّة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ تعني فإذا اكتمل خلق الجسد المادّي لآدم عليه السلام ، بما في ذلك دخول نفسه - المخلوقة مسبقاً كما رأينا - في ذلك الجسد ..
والعبارة القرآنيّة ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ تعني وأعطيته من صليتي وقربته منّي ..
وعيسى عليه السلام نُفخ فيه من روح الله تعالى ، إلاّ أنّ كميّة الروح الذي نُفخ في عيسى عليه السلام ، أكبر من كميّة الروح الذي نُفخ في آدم عليه السلام ، فبعيسى*
عليه السلام روحٌ من الله تعالى ..

﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١]

.. ولذلك نرى أنّ عيسى عليه السلام منذ اللحظة الأولى لولادته جُعِلَ نبياً ، ومنذ ولادته آتاه الله تعالى الكتاب ، وكنا قد رأينا كيف أنّ جسده عليه السلام خُلِقَ - على خلاف البشر - شأنه - في ذلك - كشأن جسد آدم عليه السلام ..

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهَدِ صَبِيًّا ﴾ قال إني عبْدُ
اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿ [مريم : ٢٩ - ٣٠]

بينما آدم عليه السلام عصى الله تعالى في جنّة الاختبار ، هو وزوجه ، وبعد أن تاب الله تعالى عليه ، احتباه وأتته النبوة ..

* لذلك نرى أنّ القيمة العدديّة لكلمة ﴿عِيسَى﴾ وفق الأجدية القرآنيّة المكتشفة لأول مرّة في العالم في النظريّة الخامسة (إحدى الكُبر) ، تساوي تماماً القيمة العدديّة لكلمة ﴿الرُّوحُ﴾ ،
وتساوي تماماً القيمة العدديّة لكلمة ﴿الْإِنْجِيلُ﴾ :

﴿عِيسَى﴾ = ٣٤ ، ﴿الرُّوحُ﴾ = ٣٤ ، ﴿الْإِنْجِيلُ﴾ = ٣٤

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه : ١٢١ - ١٢٢]

وكل إنسان حينما يكتمل خلقه الجسدي ، وحين دخول نفسه في جسده ، ينفخ الله تعالى فيه من روحه .. ولذلك نرى أن الإنسان بفطرته يعرف الله تعالى ، فكل مولود يولد على الفطرة ..

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۗ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۗ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٧ - ٩]

.. وبعد ولادة الإنسان ، وأثناء امتحانه في هذه الدنيا ، إما يكسب بإيمانه مدداً من الله تعالى ، فيمدّه جلّ وعلا بهذا الروح .. وإما يخسر بكفره وبصدّه عن سبيل الله تعالى ، حتى ما تُفخ فيه من هذا الروح حين ولادته ..

ومما يؤكد أن الروح هو الصلة مع الله تعالى والقربى منه ، أن جبريل عليه السلام يُوصف بالروح الأمين ، أي الصلة الأمانة والقربى الأمانة بين الله تعالى والمخلوقات ..

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ - ١٩٤]

.. والقرآن الكريم روح من أمر الله تعالى ..

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۗ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا ۗ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢]

.. وهكذا نرى أن الروح الذي يمتاز به المؤمنون عن الكافرين ، والذي يعني الصلة مع الله تعالى والقربى منه جلّ وعلا ، هو سرُّ حماية المؤمنين من الفرع والصعقة ، وبالتالي

من الموتة الثانية حينما يُنفخ في الصور النفخة الأولى .. بينما الكافرون الذين يفتقدون هذا الروح يفزعون ويصعقون ويموتون موتتهم الثانية ..

.. وهذا الروح الذي يمتاز به المؤمنون على الكافرين ، هو نورٌ من الله تعالى .. وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة ، عبر وصفه لكتابه الكريم بصفتي النور والروح ..

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء :

[١٧٤]

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١٥]

﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧]

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢]

.. ووجود الروح مع المؤمنين ، إضافة إلى أنه سرٌ حمايتهم من الفزع والصعقة ، وبالتالي حمايتهم من الموتة الثانية ، فإنه سرٌ النور الذي يرون به في الآخرة .. ذلك النور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، والذي يفتقده الكافرون والمنافقون ، فلا يرون لأنهم يفتقدون هذا الروح ..

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ

الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ يَوْمَ

يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ

أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ

وظَهْرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٤﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ

أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [

الحديد : ١٢ - ١٤]

فالصورة القرآنية ﴿ وَلِكِنِّكُمْ فَتَنَّمُ أَنْفُسِكُمْ وَتَرَبَّصُّمُ وَأَرْتَبْتُمْ وَعَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ

حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ ، تبين سبب عدم امتلاكهم لهذا النور ، وهو

ذاته سبب عدم حصولهم على الروح ..

فنور الحق الذي يقتبسه المؤمنون في حياتهم الدنيا ، ويرون به ، ويعملون به ، هو

ذاته يرون به يوم القيامة .. وظلمات الجهل والضلال التي يعمه بها الكافرون في حياتهم

الدنيا ، تصبح من حيثيات خلقهم في الآخرة ..

وفي حين أن آلية الرؤية في الحياة الدنيا مادية ، وأن الضوء الذي ينقل صور الأشياء

إلى عيوننا هو خارج ذواتنا .. فإن حقيقة الرؤية في الآخرة إيمانية ، وإن النور الذي تُرى

به الأشياء ينبع من الذات المؤمنة ، بما يتناسب مع درجة إيمان هذه الذات ..

.. فمن كان في حياته الدنيا لا يرى نور الحق في منهج الله تعالى ، ولا يعمل وفق

هذا المنهج ، ولا يرى ببصيرته الكليات التي يجب أن يراها من خلال تفاعله مع

الجزئيات .. يجعله هذا العمى (المعنوي) أعمى (حقيقة) في الآخرة ، لأن ماهية خلق

ذاته في الآخرة لا تحمل النور الذي تُرى به الأشياء ..

﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هِدْمَةٍ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء

: ٧٢]

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَنُكَمَا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء : ٩٧]

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ ﴿١٢٤﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا

فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿ طه : ١٢٤ - ١٢٦ ﴾

.. إذا حيثيات إعادة خلق الإنسان في الآخرة ، بعد النفخة الثانية ، ترتبط ارتباطاً

تاماً بحقيقة عمله في الدنيا .. وهذا الارتباط بين ماهية الخلق في الآخرة وحقيقة العمل في

الدنيا ، لا يتوقف على جانب النور والعمى فقط ، فتفاعل الإنسان في الحياة الآخرة مع الأسباب ، هو نتيجة موازية لحقيقة تفاعله مع هذه الأسباب في الدنيا ..

.. إن الموتة الثانية أثناء الصعقة الأولى والتي يدوقها من سيدخلون النار ، وما يترتبُ عليها من انقطاع سبل إدراك النفس وغياب هذه السبل .. هذه الموتة وهذا الغياب لسبل الإدراك ، له تأثيره على النفس بعد النفخة الثانية ، حيث ينتظر هذه النفس جسداً جديداً تتعلّق ماهيته بنتيجة عمل الإنسان في حياته الدنيا ..

.. فالإنسان الذي كان عبداً للأسباب في الدنيا ، ناسياً المُسبّبَ جلّ وعلا ، والذي لم يتجاوز الجزئيات إلى إدراك حقيقة من يقف وراء الكليات والجزئيات ، يُصبح في الآخرة عبداً لهذه الأسباب .. وبعد أن كان يملك تسخيرها في الدنيا ، أصبحت تملكه ، فلا يملك - أبداً - دفعها باتجاه ما يُريد ..

.. هذه الحقيقة بيّنها القرآن الكريم ، عبر ملك أهل النار لإرادة الخروج من النار ، دون أن يملكوها أيّ مشيئة ..

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ مِنْهَا ﴾ [المائدة : ٣٧]

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يُخْرَجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [الحج : ٢٢]

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يُخْرَجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [السجدة : ٢٠]

.. ولذلك فعلاقة النفس البشرية في الآخرة - بالنسبة لأهل النار - بالجسد الذي سيُخلَق كزوج لهذه النفس ، هي علاقة أدنى من علاقة الزوجية بين النفس والجسد التي كانت في الحياة الدنيا .. ففي الحياة الدنيا كانت النفس داخل الجسد ، وكان الجسد آليتها في أحاسيسها ، حيث كان يعمل (عبر حركاته الإرادية) بأمرها .. بينما في الآخرة فإنّ أجساد أهل النار سجونٌ لنفوسهم ، دون أن تملك هذه النفوس أيّ سلطان على هذه الأجساد .. وكلّما نضجت جلودهم نتيجة عذابهم في النار أُستبدلوا جلوداً غيرها ، لتبقى هذه النفوس أسيرة العذاب والألم ..

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ٥٦]

.. ولو كان لأهل النار مشيئة ، لكان لهم سلطانٌ على الأسباب ، ولكن هناك احتمالٌ لخروجهم من النار .. ولذلك لا يُوجد نصٌّ قرآنيٌّ يبيِّن لنا أن أهل النار يملكون مشيئة ..

.. أمّا علاقة النفس الإنسانيّة في الآخرة - بالنسبة لأهل الجنّة - بالجسد الذي سيُخلَق كزوج لهذه النفس ، فهي علاقة أسمى من علاقة الزوجيّة بين النفس والجسد التي كانت في الحياة الدنيا .. ففي الحياة الدنيا كانت النفس تُحقِّق مُرادها عن طريق تفاعل جسدها مع الأسباب ، وعن طريق تسخير هذه الأسباب .. أي كان بين إرادة النفس ومشيتها فاصلٌ هو الأسباب ..

.. بينما في الآخرة يتلاشى هذا الفاصل ، وتصبح الأسباب بأمره إرادة النفس الداخلة في الجنّة ، دون بذل أيّ جهد .. وبالتالي تُصبح إرادة الإنسان (الداخل في الجنّة) عبارة عن مشيئة ، فمجرد ما يُريد شيئاً يتحقَّق له ذلك دون بذل أيّ جهدٍ في الأسباب ، لا كما كان الأمر في الحياة الدنيا ، حيث كانت الأسباب (في الحياة الدنيا) فاصلاً بين المراد وتحقيقه ..

.. هذه الحقيقة يبيِّنها القرآن الكريم ، عبر التعبير عن تفاعل أهل الجنّة بصيغة المشيئة دون صيغة الإرادة ..

﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ [النحل : ٣١]

[النحل : ٣١]

﴿ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ﴾ [الفرقان : ١٦]

﴿ هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر : ٣٤]

﴿ وَأُورَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ [الزمر : ٧٤]

﴿ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى : ٢٢]

﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥]

.. ولو ورد لأهل الجنة إرادة في القرآن الكريم ، لكان بينهم وبين ما يُريدون حاجزٌ هو الأسباب ، وبالتالي لاحتاجوا إلى بذل جهدٍ من أجل تخطي هذا الحاجز ، ولتعارض ذلك مع حقيقة النعيم الذي يلقاه أهل الجنة في الجنة ..

.. أمّا بالنسبة لعالم الجنّ .. فثنائية النفس والجسد غير موجودة أصلاً ، كما هو الحال عند الإنسان ، وإدراكهم للجزئيات غير موجودٍ - في حياتهم الدنيا - كما هو الحال عند الإنسان .. وفي الآخرة يُعاد خلق الجنّ بماهيّة جديدة ، ولكن دون تجاوز الماهية النارية التي خلق منها ..

.. ولما كان الجنّ في حياتهم الدنيا لا يُدركون الجزئيات كإدراك البشر لها ، ولما كانوا مخلوقين من الماهية النارية ، فإنهم في الآخرة يُعذبون في النار بعد تحوّلها من الوقود ، ولا يُعذبون بتحوّل الوقود (كما دة تنتمي إلى عالم الجزئيات) إلى النار .. ولذلك رأينا كيف أنّ الجنّ يُستثنى - في النار - من مسألة الوقود ..

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة : ٢٤]

﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحریم : ٦]

.. بينما البشر الداخلون في النار ، يُعذبون بتحوّل الوقود (والتي منها أجسادهم) إلى النار ، وهذا يُقابل إدراكهم وتفاعلهم مع الجزئيات بنقيض منهج الله تعالى في حياتهم الدنيا .. ويُعذبون بالنار ، وهذا يُقابل كفرهم بالكلّيات ودفعها باتجاه الكفر في حياتهم الدنيا ..

.. أمّا بالنسبة للجنّ الداخلين في الجنة ، فإنّ إيمانهم بالكلّيات وفق ما يُريده الله تعالى في حياتهم الدنيا ، هو مقدّمة لماهيّة إعادة خلقهم في الآخرة .. فأحساسهم بنعيم الجنة سعادةٌ أشبه ما تكون بالحالة الملائكية ، ولكن داخل نعيم الجنة .. ولذلك نرى أنّ

القرآن الكريم لم يذكر لنا بشكلٍ صريحٍ تفاعلَ الجنِّ مع نعيم الجنة الحسبي ، إلا طمّث قاصرات الطرف ، وطمّث الحور العين ..

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴾ [الرحمن : ٥٦]

﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ

إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴾ [الرحمن : ٧٢ - ٧٤]

.. وهذا لا يعني أن الجنَّ الداخليين في الجنة لا يستطيعون التجسّد مادياً ، للتمتّع بنعيم الجنة المادّي كالبشر ، إذا أرادوا ذلك .. فلما كان أهل الجنة (جنّاً كانوا أم إنساً) يتحقّق لهم ما يُريدون ، ولما كانت إمكانيّة التجسّد لعالم الجنّ ممكنة ، وتمّت في الحياة الدنيا (ضمن الاستثناء الذي أعطي لسليمان عليه السلام كما رأينا) ، فبالتأكيد أنّها ممكنة في الجنة بالنسبة للجان ، حينما يُريدون ذلك للتمتّع بنعيم الجنة الحسبي كالبشر ..

.. والفارق بين تجسّد الجنِّ في ملك سليمان للعمل بين يديه ، وبين تجسّد الجنِّ في الجنة للتمتّع بنعيمها الحسبي ، هو أن تجسّد الجنِّ في الحياة الدنيا لا يجعلهم يملكون المشيئة (كما رأينا) ، فهم كالأسباب ليسوا فاعلين عن إرادة مسبقة .. بينما تجسّد الجنِّ في الجنة للتمتّع بنعيمها الحسبي ، هو بإرادتهم ، ولتسخير النعيم للتمتّع به ، وبالتالي يملكون (في الآخرة) المشيئة ..

.. وإعادة الخلق بماهيّة جديدة في الآخرة ، مسألة ليست متوقّفةً على عالمي الإنس والجنّ .. فكلُّ ما يُعاد خلقه في الآخرة يكون بماهيّة جديدة ، ولذلك مهما حاولنا الوقوف على حقيقة ما أُخفي لأهل الجنة من نعيم ، لا نستطيع ذلك ، لأنّه مخلوقٌ بهيئةٍ تختلف عمّا نعلم في الحياة الدنيا ..

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة

[١٧ :]

.. فماء الدنيا (مقارنة مع ماء الآخرة) هو ماء آسن، ولبن الدنيا يتغير طعمه،
بينما لبن الآخرة لا يتغير طعمه .. وكل ما هو موجود في الآخرة يختلف عنه في الدنيا

..

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ
يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ [محمد : ١٥]

ولذلك حينما يُرزق أهل الجنة من رزقٍ، يحسبونه مما رزقوا من قبل، لأنه متشابه
في الشكل .. ولكنّه مختلفٌ في الماهية والطعم ..

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ هُمْ فِي جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ
مُتَشَابِهًا ﴾ [البقرة : ٢٥]

.. والاختلاف بين نواميس الدنيا ونواميس الآخرة يطال حتى مفهوم الزوجية،
فلقاء الزوجية المعروف في الحياة الدنيا، يختلف عنه في الحياة الآخرة بين أهل الجنة
وأزواجهم ..

.. فالنفس البشرية الموجودة في عالم البرزخ، ستزوّج - بعد النفخة الثانية -
بجسد يُخلَق لها في الآخرة: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ رُوجت ﴾ [التكوير : ٧]، وهذا الجسد له
ماهية مختلفة عن جسد الدنيا، فهو مخلوق وفق معيارٍ له تعلّقه بنتيجة العمل التي خرج
بها الإنسان من حياته الدنيا ..

.. كُنّا قد رأينا كيف أنّ الأعضاء الجنسية - بماهيتها الدنيوية - ظهرت لآدم عليه
السلام وزوجه نتيجة الخطيئة وبعد معصية الله تعالى في حنة الاختبار .. فجسد آدم
وجسد زوجته قبل تلك الخطيئة لم تظهر فيهما السوءة، وبالتالي فالماهية الجنسية لآدم
وزوجه قبل الهبوط الجسدي تختلف عما هي عليه الآن بالنسبة للبشر .. فالسوءة

الظاهرة للإنسان في حياته الدنيا ، ليست كذلك في الآخرة ، وبالتالي فلقاء الزوجية بين أهل الجنة وأزواجهم ليس بالآلية التي تحدث في الدنيا ..

.. بل إن التمايز بين الأنوثة والذكورة الذي نعلمه في الحياة الدنيا ، يختلف عنه في الآخرة .. ومفهوم الطمث الوارد في القرآن الكريم بالنسبة للحوار في الآخرة ، ليس كمفهوم اللقاء الجنسي في الحياة الدنيا ..

﴿ مُتَكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْهُنَّ ذُكُورٌ مُؤْمِنُونَ قَبْلَهُمْ وَلَا يَجَانُّنَّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَانَهُنَّ أَلْيَافُ تُقَاتُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن : ٥٤ - ٦٠]

﴿ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٠﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٦١﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٢﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْهُنَّ ذُكُورٌ مُؤْمِنُونَ قَبْلَهُمْ وَلَا يَجَانُّنَّ ﴾ [الرحمن : ٧١ - ٧٤]

.. وبالتالي فأهل الجنة الذين يُزَوِّجهم الله تعالى بحورٍ في الجنة ، هم المؤمنون من ذكور الدنيا وإنائها .. فالسياق القرآني المحيط بعبارة تزويج أهل الجنة بتلك الحور ، ليس خاصاً بالذكور من أهل الجنة دون الإناث ..

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّاهُمْ فِيهَا عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [الدخان : ٥١ - ٥٦]

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٧٧﴾ فِيكِهِنَّ بِمَاءٍ آتَانَهُمْ رِيٌّهُمْ وَعَقْلُهُمْ رَبُّهُمْ
عَذَابُ الْجَحِيمِ ﴿٧٨﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ
مُصْفُوفَةٍ ﴿٨٠﴾ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الطور: ١٧ - ٢٠]

﴿ فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٨٢﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٧١ - ٧٤]

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿٨٤﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٨٥﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٨٦﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْ
الْأُولَئِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٨٨﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿٨٩﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ
﴿٩٠﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿٩١﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٩٢﴾ لَا
يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفُونَ ﴿٩٣﴾ وَفَلَكَهَاتِ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٩٤﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ
﴿٩٥﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٩٦﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٩٧﴾ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ لَا
يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٩٩﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ١٠ - ٢٦]

.. إتنا نرى أن السياق القرآني المحيط بالعبارات القرآنية ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾

، ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ ، ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ ، ليس خاصاً بالرجال دون النساء ،
، فمرتبة المتقين والسابقين في الجنة يدخلها الرجال المتقون والنساء ، وبالتالي فكل
العبارات المحيطة بعبارات التزويج بالحور ، تتعلق بأصحاب مراتب الجنة ذكوراً كانوا أم
إناثاً ..

.. وَمِمَّا يُؤَكِّدُ صِحَّةَ مَا نَذَهَبُ إِلَيْهِ بِأَنَّ الْحُورَ الْعَيْنَ لَيْسَتْ إِنْثَاءً - عَلَى غِرَارِ إِنْثَاءِ
الدنيا - يُزَوِّجُهَا اللَّهُ تَعَالَى لِدُكُورِ الْجَنَّةِ حَصْرًا دُونَ الْإِنْثَاءِ الدَّخِلَاتِ فِي الْجَنَّةِ ، كَمَا
يَتَوَهَّمُ الْكَثِيرُونَ ، مِمَّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقُلْ : (وَزَوَّجْنَاهُمْ حُورًا عِينًا) ،
بصيغة مشاهمة لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]

[، حيث يقول الله تعالى : ﴿ زَوْجَنكِهَا ﴾ ، ولم يقل : (زوجناك بها) فالزواج في الدنيا كلقاء بين الذكورة والأنوثة ليس زواجا بالآخر .. وبالتالي لا يتعلق بقاء الواسطة والوسيلة ..

بينما في النصين القرآنيين في سورتي الدخان والطور يقول تعالى : ﴿ وَزَوْجَنَّهُمْ نَحُورٍ عَيْنٍ ﴾ ، أي يتم تزويج الذكور والإناث الداخلين إلى الجنة بواسطة الحور العين ، فالحور العين - إذاً - هي واسطة زواج أهل الجنة ذكورا كانوا أم إناثا هكذا يبين لنا الله تعالى في كتابه الكريم .. أمّا مسألة إسقاط حيثيات اللقاء بين الأزواج في الحياة الدنيا على لقاء الأزواج في الجنة ، وأن الحور في الآخرة هن فقط للرجال الأتقياء الذين يدخول الجنة دون النساء ، وأن لقاء هؤلاء الرجال معهن في الجنة كلقاء الزوجية في الحياة الدنيا .. كل ذلك هو تصوّر بشري محكوم بتصورات دنيوية لا دليل عليها في كتاب الله تعالى ، بل تناقض دلالات كتاب الله تعالى الخاصة في هذا الشأن ..

.. فكل ما في الجنة من نعيم ولذة ولقاء بين الأزواج ، له ماهيته المختلفة عن نعيم الدنيا وملذاتها ، كون ناموس الآخرة مختلفاً عن ناموس الدنيا .. ونحن في الحياة الدنيا ، وضمن تصوراتنا المحكومة بنواميسها ، لا يمكننا الوقوف على حقيقة نعيم الجنة وملذاتها ، وعلى حقيقة ماهية لقاء الزوجية فيها بين الأزواج ..

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [

السجدة : ١٧]

.. إذاً كل نواميس الآخرة تختلف - من حيث الماهية - عما هي عليه في الدنيا ، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ ، فالهدف الذي من أجله يُوجدُ اللهُ تعالى تلك الدار الآخرة ، يختلف عن الهدف الذي من أجله أوجد اللهُ تعالى الدار الدنيا ..

.. وفي سياق الحديث عن الوجود في الآخرة ، لا بُدَّ من التعرُّض لمسألة الشفاعة ، التي لها تأثيرٌ في مصير بعض المكلفين ، والتي ينتهي تأثيرها قبل الدخول إلى الجنة أو إلى النار ..

.. لقد تمَّ تشويه مسألة الشفاعة (من قبل الكثيرين الذين يحسبون أنفسهم أوصياء على منهج الله تعالى) بتصويرها وساطة كوساطة البشر ، دون معيار حقٍّ أو عدل .. فالكثيرون من أصحاب المعاصي ومن المقصَّرين في عبادتهم لله تعالى ، ومن ناشري الفساد ، يتكلمون على هذه الشفاعة بحجة أنهم مسلمون ..

وهناك بعض الروايات (في كتب الصحاح) التي تناقض دلالات القرآن الكريم مناقضة صريحة ، تعطيمهم حيثيات هذا التواكل .. لذلك علينا أن ندرس مسألة الشفاعة من كتاب الله تعالى لنرى حقيقتها وحدودها ..

.. ولنبدأ بوضع ما تحمله روايات الشفاعة من معانٍ ودلالات ، في معيار القرآن الكريم ، كخطوة نحو إدراك حقيقة الشفاعة ، ونحو تزيهها عما أُلصق بها من افتراءٍ على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ ..

[١] - إنَّ الجزمَ بأنَّ شفاعة الرسول ﷺ هي لأهل الكبائر من أمته ، اعتماداً

على الأحاديث التالية ، يتناقض مع الكثير من آيات القرآن الكريم ..

سنن الترمذي - حديث (٢٣٥٩) :

حَدَّثَنَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ

الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي

سنن أبي داود - حديث (٤١١٤) :

حَدَّثَنَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي

مسند أحمد - حديث (١٢٧٤٥) :

..... عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ

الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي

سنن ابن ماجه - حديث (٤٣٠٠) :

..... عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ شَفَاعَتِي يَوْمَ

الْقِيَامَةِ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي

[أ] - لننظر إلى الصورتين القرآنيتين التاليتين :

﴿ إِنَّ تَجْتَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفَرْنَا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا

كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١]

﴿ وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ

الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴿٣٢﴾ [

النجم : ٣١ - ٣٢]

إننا نرى - في هاتين الصورتين القرآنيتين - أن الله تعالى يُكفِّرُ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا إِنْ

اجتنبنا كِبَائِرَ مَا تُنْهَى عَنْهُ ، وَأَنَّ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ هُمُ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ ..

وبالتالي فإنَّ الوقوع في هذه الكبائر مع عدم التوبة المقبولة ، يُوَدِّي إلى عدم تكفير

السيئات ، وإلى ساحة الذين أسأؤوا بما عملوا ، الذين سيجزئهم الله تعالى على ذلك ..

وهذا يتعارض تماماً مع كَوْنِ الشفاعة لأهل الكبائر الذين ماتوا دون توبة مقبولة ..

[ب] - يُبَيِّنُ لَنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ مَرْتَكِبِي الْكِبَائِرِ ، إِنْ مَاتُوا دُونَ تَوْبَةٍ مَقْبُولَةٍ ،

وَرَجَحَتْ سَيِّئَاتِهِمْ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ ، فَسَيُخْلَدُونَ فِي جَهَنَّمَ ، سِوَاءَ كَانُوا مِنَ الْمُوحِدِينَ أَمْ

مِنَ الْغَيْرِ الْمُوحِدِينَ ، وَسِوَاءَ كَانُوا مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ أَمْ مِنْ غَيْرِهِمْ ..

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ

مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۗ

فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَآتَتْهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۗ وَمَنْ عَادَ

فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥]

﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ

عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [النساء : ١٤]

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ

وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣]

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ

لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٣]

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

عَاصِمٍ ط كَانَمَا أَغْشَيْتَ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ط هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٧]

.. إن آكلي الربا هم من الموحدين ومن غير الموحدين ، ومن أتباع جميع الديانات

.. والذين يعصون الله تعالى ورسوله كثيرٌ منهم مسلمون .. وقاتلوا المؤمنين موجودون

في جميع الأديان .. وكذلك الأمر بالنسبة لعاملي السوء ، ولكل الكبائر ..

.. هؤلاء جميعاً إن ماتوا دون توبة مقبولة ، ورجحت سيئاتهم على حسناتهم ،

سيخلدون في النار .. هكذا يقول الله تعالى في كتابه الكريم .. فكيف إذن تتم الشفاعة

بالنسبة لمرتكبي هذه الكبائر !!!؟ ..

.. وإذا قال قائل .. إن تأويل ما نُسب إلى الرسول ﷺ [شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ

مِنْ أُمَّتِي] ، أن هؤلاء الذين سينالون الشفاعة هم من أمة محمد ﷺ ، الملتزمين بمنهج

الله تعالى .. نقول : لو كان الأمر كذلك ، كيف يقوم هؤلاء بالكبائر التي يبيِّن لنا

القرآن الكريم أنها لا تُكفَّر !!!؟ .. فالملتزم بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله تعالى ، لا

يعمل الكبائر ..

[ج] - قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾

[الزمر : ١٩] ، يبيّن لنا أنّ الذين حقّت عليهم كلمة العذاب - ومنهم كما رأينا أهل الكبائر من المسلمين - موحدّين كانوا أم غير موحدّين ، لا يُنقذهم من هذا العذاب حتى الرسول ﷺ ..

[د] - قوله تعالى .. ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [آل عمران : ١٩٢] ، وقوله

تعالى .. ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : ١٨] ، يبيّن لنا أنّ الظالمين ما لهم من أنصارٍ ، ولا شفيعٍ يُطاع .. ومعلوم أنّ الظالم قد يكون من الموحدّين ، ومن أيّ أمةٍ ، ومن أتباع أيّ دين ..

[هـ] - ما نُسب إلى رسول الله ﷺ ، من أنّ شفاعته لأهل الكبائر من أمته -

كما رأينا - يرده القرآن الكريم .. فقيام بعض المسلمين بالكبائر يُوجب عليهم عقوبةً أكبر من العقوبة المترتبة على غيرهم في حال قيام غيرهم بهذه الكبائر ذاتها .. فالذي يعصي الله تعالى عن علمٍ بحقيقة هذه المعصية وبحقيقة عقوبتها ، عقوبته أكبر ممّن يعصيه عن غير علم ..

.. ويبيّن لنا القرآن الكريم أنّ عقوبة النبي ﷺ - فيما لو تمّ وقوع الخطأ - هي

ضعف غيره من عامّة المسلمين ، لأنّه أعلم الناس بالمنهج ..

﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ

ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٧٤ - ٧٥]

وعقوبة نسائه - فيما لو تمّ وقوع الخطأ - هي ضعف غيرهن من نساء المسلمين ،

كوهنّ أقرب النساء إلى بيت النبوة ..

﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ^ج

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٠]

والحواريون الذين طلبوا أن يُنزلَ اللهُ تعالى عليهم مائدة من السماء .. عقوبتهم -
 فيما لو كفروا بعد رؤيتهم لهذا البرهان الإلهي - ستصبح أكبر بكثير مما هي عليه قبل
 رؤيتهم للبرهان الذي طلبوه ..

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ^ط فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا
 أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٥]

وهكذا نرى أن ارتكاب المسلمين للكبائر في حياتهم الدنيا ، يُرتب عليهم عقوبة -
 فيما لو لم يتوبوا توبة مقبولة - أكبر من غيرهم الذي يقوم باقتراف الكبائر ذاتها ، لأنهم
 أكثر علماً بالحقيقة .. وهذا يناقض تماماً صياغة الحديث .. فإن كانت هناك شفاعاة لهذه
 الكبائر ، فغير المسلمين أقرب إليها ، لأنهم لا يعلمون الحقيقة كما يعلمها المسلمون ..
 [و] - ما نُسب إلى النبي ﷺ من أن شفاعته لأهل الكبائر من أمته ، يتناقض مع
 روايات أخرى تؤكد أنه حتى فاطمة بنت محمد ﷺ ، لا يملك لها النبي ﷺ شيئاً ..

صحيح البخاري - حديث (٢٥٤٨) :

حَدَّثَنَا أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً
 نَحْوَهَا اشْتَرَوْا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ
 اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ
 لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَيَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكَ
 مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

صحيح مسلم - حديث (٣٠٤) :

حَدَّثَنَا عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّافَا فَقَالَ يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ
 الْمُطَّلِبِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ

[٢] - حديث الشفاعة الكبرى - التالي - يتنافى مع الكثير من آيات القرآن

الكريم ..

صحيح البخاري - حديث (٦٩٥٦) :

حَدَّثَنَا فَقَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاحَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا فَاسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذِنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبُّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَانْطَلِقْ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقَالَ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبُّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَانْطَلِقْ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقَالَ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبُّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَانْطَلِقْ فَأَفْعَلُ قَالَ ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقَالَ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبُّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَانِي وَعَظَمَتِي لَأَخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

[أ] - هذا الحديث بهذه الصيغة يتناقض مع قوله تعالى ..

﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ

مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ٤٨]

﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا

شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٢٣]

﴿ يَنبَأُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا

خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤]

إننا نرى - في هذه النصوص القرآنية - كيف تُنفى الشفاعة التي تبدأ مقدّماتها في الآخرة ، بأقوى صيغ النفي .. فالشفاعة التي تبدأ مقدّماتها في الآخرة لا وجود لها أما الصور القرآنية التي تربط الشفاعة بإذن الله تعالى ، وبرضاه ، وباتخاذ العهد عنده ، وبشهادة الحقّ ، فهي تصوّر حقيقة الشفاعة التي تبدأ مقدّماتها في الدنيا كما سنرى لاحقاً ، وتؤكد أنّ الشفاعة تعود في النهاية إلى الله تعالى وهكذا نرى في النصوص القرآنية الثلاثة السابقة ، أنّه لا تُوجد نفسٌ تستطيع إسقاط العقاب عن نفسٍ أخرى ، فلو استطاعت إسقاط العقاب عن نفسٍ أخرى لكانت قد أجزت عنها شيئاً ، ولكانت قد نصرتها وشفعت لها ، ولكان في الآخرة وجهٌ من أوجه الشفاعة التي تبدأ مقدّماتها في الآخرة ، وهذا يتنافى تماماً مع صياغة هذه الآيات الكريمة ..

[ب] - دخول الجنة يرتبط بالعمل وفق منهج الله تعالى ..

﴿ وَتُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٣]

﴿ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٣٢]

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزحرف : ٧٢]

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٩]

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤]

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المرسلات : ٤٣]

.. فلو فرضنا - جدلاً - أن الموحدّين سيخرجون من النار بالشفاعة ، على

الرغم من تقصيرهم بالعمل .. فكيف سيدخلون الجنة بلا عمل ؟ !!!!!!! ..

[ج] - قوله تعالى ..

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ

وَدَسْتَعْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا

وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر : ٧]

.. يُبَيِّن لنا أن غفران الله تعالى - ووقاية عذاب الجحيم - يناله التائبون المتبعون

لسبيل الله ، وبالتالي فغير التائب وغير المتبع لسبيل الله تعالى ، لا ينال هذا الغفران ، ولا

ينال الوقاية من النار ، وبالتالي لن تنفعه الشفاعة (التي تبدأ مقدّماتها في الآخرة) ، وإن

كان من الموحدّين ..

[د] - حينما تكون الشفاعة مخصوصةً لنوع من البشر دون الآخرين ، أو لدين

محدّد دون غيره من الديانات السماوية ، أو لمذهبٍ محدّد .. فإنّها في النهاية ظلمٌ لهؤلاء

الآخرين ، لأنّها - حين ذلك - دون معيارٍ حقٍّ يرتبط بالإيمان والعمل .. وإن كانت

وفق معيارٍ إيمانٍ وعملٍ يشمل جميع البشر (وهي كذلك) ، فلا بدّ أن يكون هذا المعيار

من جملة المعايير التي يُحاسب عليها البشر في الآخرة ، قبل دخولهم إلى النار أو إلى الجنة

.. وحين ذلك فإنّ مفهوم الشفاعة بالحِثِّيَّة التي ترويه الأحاديث - كما رأينا - لا

معنى لها ..

[هـ] - هذا الحديث بهذه الصياغة يتناقض ما بين بدايته ونهايته ، ففي بدايته

يذهب الناس يوم القيامة إلى آدم وبعض الرسل عليهم السلام ، وهذا يكون قبل الدخول

إلى الجنة وإلى النار : [**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ**] .. وفي داخل الحديث لا يذكر الرسول ﷺ إلا أمته ، مع العلم أن الذين أتوا إليه ليشفع لهم هم الناس على مختلف أديانهم وليس فقط أمته : [**فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعُ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشْفَعُ فَأَقُولُ يَا رَبُّ أُمَّتِي أُمَّتِي**] .. ويُخرج الرسول ﷺ المشفوع لهم من النار ، مع العلم أنه لم يتم الدخول - حتى تلك اللحظة - إلى النار : [**فَأَقُولُ يَا رَبُّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِنْتَقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَانْطَلِقْ فَأَفْعَلُ**] ..

[٣] - إن الجزم بأن العبارة القرآنية : **﴿ مَقَامًا مُحَمَّدًا ﴾** في الصورة القرآنية التالية : **﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مُحَمَّدًا ﴾** [الإسراء : ٧٩] ، لا تعني إلا الشفاعة الكبرى للرسول ﷺ يوم القيامة ، وذلك اعتماداً على الحديث التالي .. هذا الجزم لا تُسعفه الدلالات التي تحملها الصياغة اللغوية لهذه الصورة القرآنية ..

صحيح البخاري - حديث (٤٣٤٩) :

حَدَّثَنِي..... قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُنًّا كُلُّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ يَا فُلَانُ اشْفَعْ يَا فُلَانُ اشْفَعْ حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمُحَمَّدَ

سنن الترمذي - حديث (٣٠٦٢) :

حَدَّثَنَا..... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ **﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مُحَمَّدًا ﴾** سُبُلَ عَنْهَا قَالَ هِيَ الشَّفَاعَةُ.....

.. إن الشفاعة التي تصفها الروايات ، والتي لا يكون لها إلا الرسول ﷺ - كما رأينا في صحيح البخاري حديث (٦٩٥٦) - هي مسألة معلومة ومعروفة ووحيدة ، ولا يقدر عليها إلا شخصٌ واحدٌ هو النبي محمد ﷺ ، وبالتالي هي ليست نكرةً ، وليست مرْتبةً ما من مجموعة مراتب ..

.. ولو نظرنا إلى الصورة القرآنية التي قيل إنَّها تصف هذه المسألة ، لرأينا أن العبارة القرآنية ﴿ **مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ فيها ، تأتي بصيغة نكرة موصوفة ، ولم تأت بصيغة المعرفة الموصوفة .. فالشفاعة الكبرى - حسب ما تقول الروايات - تُناسبها الصياغة (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ **الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ**) ..

.. ولذلك .. حتى الذين صاغوا عبارات الرواية الحاملة لهذه المسألة [الحديث : (٤٣٤٩) في صحيح البخاري] ، ونسبوا إلى ابن عمر ، لم يستطيعوا القفز فوق هذه الحقيقة اللغوية .. فالعبارة [**فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ**] في الحديث المذكور ، تؤكد هذه الحقيقة ..

.. إن العبارة القرآنية ﴿ **مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ ، تُصوّر درجة بعثه ﷺ ، المرتبطة بمقدار سموّ درجة تهجده : ﴿ **وَمَنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ ..

.. ولذلك لا يمكن الجزم بأن العبارة القرآنية ﴿ **مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ ، تعني بعثه ﷺ مقاماً محدداً ، لا ثاني له ، هو الشفاعة الكبرى للبشر ، كما هو وارد في الروايات ..
.. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن .. ما هي الشفاعة ؟ ..

.. الجذر اللغوي للشفاعة هو الجذر : (ش ، ف ، ع) .. ودلالاته تدور ضمن إطار خلاف الوتر ، وبالتالي ضمن إطار الزوج .. والشفاعة - كما تُستنبط من مشتقات الجذر (ش ، ف ، ع) في القرآن الكريم - هي المزاجية بين المُراد وبين طلب تحقيقه .. أي هي : طلب الشافع بتحقيق مُراد المشفوع له ..

.. لقد رأينا أنّ الإرادة تتحوّل إلى مشيئة (واقع ملموس) بالعمل ، وبالأخذ بالأسباب ، أي بالمزاوجة بينها وبين العمل .. أمّا حينما يُفقد العمل ، ولا يُؤخذ بأسباب تحقيق المراد ، فإنّ الإرادة لا تتحوّل إلى واقع محسوس (مشيئة) ، وتبقى مجرد هدف وغاية في نفس المرید ..

.. فالشفاعة هي مزاوجة الدعاء إلى الله تعالى والطلب منه والتوسّل إليه جلّ وعلا (حيث يقوم بذلك الشافع) ، مع مُراد المشفوع له ، لتحقيق هذا المراد ، لأنّ المشفوع له لم يُزاج إرادته هذه بالعمل وبالأخذ بالأسباب في حياته الدنيا .. إذاً الشفاعة هي لمن ملك إرادةً خيرة صادقة للعمل في حياته الدنيا ، ولم تسعفه الظروف لتحقيق هذه الإرادة إلى عمل ..

.. ولو نظرنا إلى مشتقات الجذر (ش ، ف ، ع) في القرآن الكريم ، من منظار المنهج السليم لتدبر كتاب الله تعالى ﴿ **ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ** ﴾ [آل عمران : ٧] ، لرأينا أنّ الشفاعة الواردة في كتاب الله تعالى ، جميعها مقدّماتها في الدنيا ، وليس في الآخرة .. وفي الآخرة يتمّ قبول هذه الشفاعة (قبول مزاوجة دعاء الشافع وتوسّله إلى الله تعالى مع إرادة الخير في الدنيا للمشفوع له ، من أجل رفع هذه الإرادة إلى مستوى العمل المأجور) ، أو يتمّ عدم قبولها ، وكلّ ذلك وفق معايير تتعلق بصدق الإرادة - في الدنيا - للمشفوع له لننظر إلى الصورة القرآنية التالية ..

﴿ **وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ**

لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : ٢٦]

.. إنّ العبارة القرآنية ﴿ **وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ** ﴾ تُصوّر لنا بعض الملائكة

الآن (قبل الآخرة) ، الموجودين في السماوات والأولى بتفسير العبارة القرآنية ﴿ **لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا** ﴾ ، أنّها تعني شفاعتهم الآن (قبل الآخرة) ..

.. وحتى لو تم سحب هذه الشفاعة إلى الآخرة ، فإن العبارة القرآنية ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ، ساحتها الدنيا حصراً ، لأنها تصوّر لنا مقدمات قبول الشفاعة ، ومقدمات قبول الشفاعة هي حصراً في الدنيا (دار الامتحان) ، لأنها تتعلق بالإرادة الطاهرة للمشفوع لهم ، والتي أرادوها في الدنيا ولم يستطيعوا ترجمتها إلى عملٍ حسيّ ..

.. فَسَحَبُ مقدمات هذه الشفاعة إلى الآخرة ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ، يتنافى مع الآيات الكريمة التي تنفي أيّ شفاعة تبدأ مقدماتها في الآخرة كما رأينا ..

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة : ٤٨]

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة : ١٢٣]

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة : ٢٥٤]

.. وهكذا يكون تقدير الصورة القرآنية ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي

شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ، هو : [] وكم من ملك في السماوات لا ينفع دعاؤهم وتوسلهم - سواء في الدنيا أم في الآخرة - لمزاوجة هذا الدعاء والتوسل مع إرادة البشر الخيرة التي أرادوها في الدنيا ولم يستطيعوا مزاجتها مع العمل ، من أجل رفع هذه الإرادة إلى مستوى العمل المأجور ، إلا من بعد أن يأذن الله تعالى بأن تتم هذه المزاجة لمن يعلم الله تعالى صدق إرادته ، ويرضى عن هذه الإرادة

الطاهرة ، وبأنها أهلٌ لدخول ساحة مشيئة الله تعالى ورضاه ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ ،
وبالتالي لرفعها إلى مستوى المشيئة [] ..

.. والشفاعه في عالم الدنيا كمقدمات .. نراها في الصور القرآنية التالية ..

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]

﴿ مَنْ يَشْفَعُ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ^ط وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ

لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ^ط ﴾ [النساء : ٨٥]

﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس : ٣]

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ

خَشِيَّتِهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨]

.. فالشفاعة التي تنفع في الآخرة ، يحتاج فيها المشفوع له إلى إرادة طاهرة لعمل

الخير ، أرادها في الدنيا (دار العمل) .. هذه الحقيقة نراها في الصورة القرآنية التالية ..

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه : ١٠٩]

.. فالعبارة القرآنية ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ ﴾ ساحتها الآخرة .. والعبارة

القرآنية ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ساحتها الدنيا ..

.. والنصوص القرآنية التالية تؤكد هذه الحقيقة ..

﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ [مريم : ٨٧]

﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٣]

﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴾ [الزحرف : ٨٦]

.. فقله تعالى ﴿ **إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا** ﴾ في النصّ الأوّل ، يصوّر لنا العهد في الحياة الدنيا ، وبالتالي مقدمات هذه الشفاعة ساحتها الدنيا .. وكذلك قوله تعالى ﴿ **إِلَّا لِمَنْ أُذِنَ لَهُ** ﴾ في النصّ الثاني .. وكذلك قوله تعالى ﴿ **إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ في النصّ الثالث ..

.. ولما كان الكافرون والظالمون لا يملكون إرادة خير في حياتهم الدنيا من الممكن مزاجتها مع دعاء الشافعين ، فإنهم لا تنفعهم الشفاعة أبداً ..

﴿ **وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ** ﴾ [الشعراء : ٩٩ - ١٠٠]

﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ [غافر : ١٨]

﴿ **مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ** ﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿١٢١﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ

الْمَسْكِينِ ﴿١٢٢﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿١٢٣﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١٢٤﴾ حَتَّى

أَتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴿ **فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّفِيعِينَ** ﴾ [المدثر : ٤٢ - ٤٨]

.. إذا من لم يملك مقدمات الشفاعة (الإرادة الخيرة الصادقة) في الدنيا ، لا تُفیده أي شفاعة في الآخرة ، لأنّ أحد زوجي الشفاعة غير موجود .. وهكذا فالشفاعة التي تبدأ في الآخرة لا وجود لها على الإطلاق ..

﴿ **يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا**

﴿ **خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٥٤]

.. فقله تعالى ﴿ **مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ** ﴾ يعني يوم الآخرة .. وهذا اليوم لا بيع يبدأ

فيه : ﴿ **لَا بَيْعَ فِيهِ** ﴾ ، بينما في الحياة الدنيا كان الناس يبيعون .. ولا خلة تبدأ فيه : ﴿

﴿ **وَلَا خُلَّةٌ** ﴾ ، بينما في الحياة الدنيا كانت الخلة بين الكثير من أفراد البشر .. فالخلة تبدأ

في الدنيا ، وتنتهي في الآخرة إلا للمتقين ..

﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف : ٦٧]

.. وقوله تعالى ﴿وَلَا شَفَعَةً﴾ يُماثل تماماً ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةً﴾ .. فالله تعالى

يقول .. لا بيع ولا خلة ولا شفاعة تبدأ في الآخرة ، فالبيع والخلة والشفاعة مسائل تبدأ في الدنيا ، ويستفيد الإنسان - إيمانياً - من نتائجها في الآخرة ..

.. والنصان القرآنيان التاليان يؤكدان هذه الحقيقة ..

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ

مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة : ٤٨]

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا

شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة : ١٢٣]

فالشفاعة التي لا تُقبل ولا تنفع ، هي التي تبدأ مقدّماتها في الآخرة ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾

دون امتلاك مقدّمات لها في الدنيا من إرادة خير ، كما رأينا ..

.. والشفاعة جميعها تعود إلى الله تعالى ، فهي معيارٌ من معايير حساب الله تعالى

للبشر دون استثناء ..

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِليٌّ وَلَا

شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ٥١]

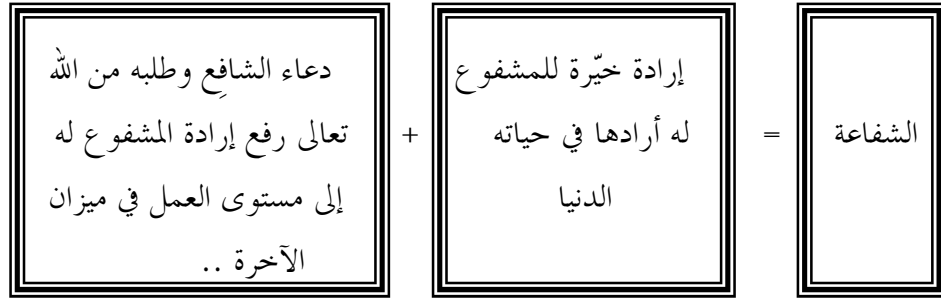
﴿وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وِليٌّ وَلَا

شَفِيعٌ﴾ [الأنعام : ٧٠]

﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وِليٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة : ٤]

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر : ٤٤]

.. وهكذا نرى أن الشفاعة كما يصفها الله تعالى في كتابه الكريم - لا كما لبس على الرسول ﷺ - هي مزاجية الإرادة الخيرة للمشفوع له (والتي أرادها في حياته الدنيا) ، مع دعاء الشافع وطلبه غفران الله تعالى للمشفوع له ، أي مع طلب رفع هذه الإرادة إلى مستوى المشيئة ... فصاحب هذه الإرادة عجز عن تحقيقها بالعمل وبالأخذ بالأسباب في حياته الدنيا ..



.. ومسألة الخروج من النار بعد انقضاء فترة من العذاب فيها ، بالنسبة لبعض الداخلين في النار ، هي مسألة غير واردة في كتاب الله تعالى .. فبعد انتهاء الحساب وسوق أهل النار إلى النار وأهل الجنة إلى الجنة ، يدخل الجميع حياة خلود لا تنتهي ، ولا تتبدل بانتقال من نار إلى جنة ، ولا من جنة إلى نار ..

.. القرآن الكريم يؤكد أن أهل النار - دون استثناء - لا يخرجون منها ..

﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [

البقرة : ١٦٧]

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

﴿ [المائدة : ٣٧]

.. ويوم القيامة ينقسم المكلفون إلى فريقين .. فريقٌ تتقل موازينه ، وفريقٌ تخفف موازينه .. والذين خفف موازينهم نتيجة غلبة شقوتهم عليهم (تلك الشقوة التي أدت

بهم في حياتهم الدنيا إلى الضلال) يطلبون الخروج من النار .. ويأتيهم الردّ من الله تعالى ، لا كما يريدون ..

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿١٠٨﴾ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١١٠﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١١١﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُتَلَّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١١٣﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١١٤﴾ قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴿١١٥﴾ [المؤمنون : ١٠١ - ١٠٨]

فأهل جهنم سيخلدون^(*) فيها مجرد ما دخلوا أبواها ، ولا يخرجون منها أبداً .. وكذلك الأمر بالنسبة لأهل الجنة ..

(*) - بيّنت في كتاب المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ، وحسب الأبيدية القرآنية المكتشفة في النظرية الخامسة : (إحدى الكبر) ، بيّنت كيف أنّ القيم العددية للعبارة القرآنية ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : ٤٨] التي تُصوّر عدم خروج أهل الجنة من الجنة ، تساوي القيمة العددية للعبارة القرآنية ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ [الانفطار : ١٦] ، والتي تُصوّر عدم غياب أهل النار عن النار ..

$$\underline{١٠٥} = \langle \text{وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} \rangle$$

$$\underline{١٠٥} = \langle \text{وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ} \rangle$$

.. وفي هذا بيان رقمي (إضافة للبيان اللغوي) على توازن عدم خروج أهل الجنة من الجنة ، مع عدم خروج أهل النار من النار ..

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِعِيسَىٰ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل

[٢٩ :

﴿ اَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِعِيسَىٰ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [غافر : ٧٦]

.. وفي سورة الزمر ينقسم الناس يوم القيامة إلى قسمين لا ثالث لهما ، قسمٌ يدخلُ جهنم خالداً فيها ، وقسم يدخل الجنة خالداً فيها ..

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۗ فَبِعِيسَىٰ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : ٧١ - ٧٣]

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِعِيسَىٰ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : ٧١ - ٧٣]

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِعِيسَىٰ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : ٧١ - ٧٣]

.. وبالتالي فإن الصورة القرآنية ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۚ لِلطَّٰغِيْنَ مَقَابَا ۚ ﴾ [النبا : ٢١ - ٢٣] ، تعني أن أهل جهنم تتابع عليهم دورات العذاب وألوانه المختلفة ، كلما مضى لونٌ من العذاب تبعه لونٌ آخر .. وهكذا بشكلٍ مستمرٍ إلى الأبد ..

﴿ لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ [النبا : ٢١ - ٢٣] ، تعني أن أهل جهنم تتابع عليهم دورات العذاب وألوانه المختلفة ، كلما مضى لونٌ من العذاب تبعه لونٌ آخر .. وهكذا بشكلٍ مستمرٍ إلى الأبد ..

بشكلاً مستمراً إلى الأبد ..

.. هذه الحقيقة نراها في الصورة القرآنية ﴿ كَلَّمَآ أَرَادُوآ أَن يَخْرُجُوآ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوآ فِيهَا وَذُوقُوآ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج : ٢٢] .. فأهل جهنم حينما يقترب لونٌ من العذاب (حقب) من الانتهاء ، يتجه قصدهم وغايتهم (إرادتهم) باتجاه الخروج من الغم الذي هم فيه ، ولكنهم يعودون فيدخلون لوناً جديداً من العذاب ، وحينما يقترب هذا اللون الجديد من العذاب من نهايته ، يتجه قصدهم وغايتهم نحو الخروج من جهنم ، ولكنهم يعودون فيدخلون لوناً جديداً آخر من العذاب ، وهكذا إلى الأبد ، وهذا ما تصوّره هذه الصورة القرآنية ، كتيبانٍ للصورة القرآنية ﴿ لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾

هذا ما تصوّره هذه الصورة القرآنية ، كتيبانٍ للصورة القرآنية ﴿ لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾

..

وما نراه في الصورة القرآنية **﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾** ، أن الجار والمجرور **﴿فِيهَا﴾** قُدِّم على كلمة **﴿أَحْقَابًا﴾** ، وهذا ليس عبثاً ، فالعبرة **﴿لَيْثِينَ فِيهَا﴾** تُبَيِّن مسألة لبثهم ، والتي هي كما يؤكد القرآن الكريم في العديد من آياته خلوداً لا خروج منه ، وتأتي كلمة **﴿أَحْقَابًا﴾** لتبيِّن لنا ماهية هذا اللبث بأنه - كما بيَّنا - ألوان مختلفة من العذاب .. فالله تعالى لم يقل (لا يثين أحقاباً فيها) إنما يقول **﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾** ، بمعنى أن لبثهم فيها (الذي لا يخرجون من حالته) ماهيته أحقابٌ مختلفة من العذاب .. والصورة القرآنية التالية تؤكد هذه الحقيقة ..

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۗ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۗ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ ﴿١٠٨﴾ [هود : ١٠٣ - ١٠٨]

.. إنَّ المعنى بالسموات والأرض في العبارة القرآنية **﴿ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾** ، هو سموات الآخرة وأرضها ، بعد أن تُبدَّلَا عن سموات الدنيا وأرضها **﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾** [إبراهيم : ٤٨] .. وهذه العبارة **﴿ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾** تعني الخلود - سواءً لأهل النار أم لأهل الجنة - وهي متكاملة مع العبارة القرآنية التي تسبقها مباشرة **﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾** ..

.. والمسألة التي حار بها الكثيرون ، هي إدراك دلالات العبارة القرآنية ﴿إِلَّا مَا

شَاءَ رَبُّكَ﴾ .. ولإدراك دلالاتها إدراكاً سليماً ، علينا أن نُبين النقاط التالية :

[١] - رأينا في تبيان القرآن الكريم أنه لن يخرج أيُّ من أهل النار ، من النار ، ولن يخرج أيُّ من أهل الجنة ، من الجنة .. ولذلك فإنَّ أيَّ تصوّرٍ لتأويل هذه العبارة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ بأنها تعني خروج قسمٍ من أهل النار من النار ، هو تصوّرٌ غير سليم ، لأنه يُناقض صريح القرآن الكريم ، ولأنه سيعني بالضرورة خروج قسم من أهل الجنة من الجنة .. فالآية التي تحدّثت عن أهل النار تتلوها آيةٌ تحدّثت عن أهل الجنة بصياغةٍ مشابهةٍ تماماً ، حيث ترد العبارة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في الآيتين ..

﴿ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١١٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ

وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾

﴿ فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾

[٢] - الأقوال والروايات التي تقول إن بعض الداخلين إلى النار سيخرجون منها ، ويدخلون الجنة ، هي أقوال وروايات لا تُناقض صريح القرآن الكريم فحسب ، وإنما ينقضها القرآن الكريم مبيناً أنها أقوال وروايات تُماثل ما افتراه اليهود على الله تعالى ..

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ

تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً

وَأَحْطَتْ بِهِنَّ خَطِيئَتُهُنَّ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٨٠

- [٨١] .. فكيف يكون افتراء اليهود على الله تعالى ، والذي يُبين القرآن الكريم فساده ، كيف يكون حقيقةً عندنا وجزءاً من عقيدتنا؟! .. نترك الإجابة لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمْعَ وهو شهيدٌ ..

والصورة القرآنية التالية تُؤكِّد هذه الحقيقة لكل من ينظر نظرة تدبّرٍ في دلالاتها ..

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمَسِّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۗ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٣ - ٢٤]

[٣] - إن الجزم بأن المقصود بالعبارة القرآنية ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ هو خروج بعض أهل النار من النار ، يقتضي - لو كان سليماً ولو كان لا يُنافي صريح القرآن الكريم - ورود هذه العبارة القرآنية على الشكل (إِلَّا مَنْ شَاءَ رَبُّكَ) .. فالعاقلون - كأهل النار وأهل الجنة - تُناسبهم كلمة (مَنْ) دون كلمة (ما) ، إضافة إلى أن هذا الجزم يقتضي خروج بعض أهل الجنة من الجنة .. وبالتالي لا يمكن الجزم بأن كلمة ﴿ مَا ﴾ تعني مجموعة من العاقلين الداخلين في النار ، أو في الجنة ..

ولربما يحلو لبعضهم أن يزعم بأن كلمة ﴿ مَا ﴾ في هذه العبارة القرآنية ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ هي بمعنى كلمة (مَنْ) ، وذلك هروباً من مواجهة حقيقة عدم خروج أي من أهل النار من النار .. نقول .. لو فرضنا جدلاً صحّة هذا الزعم ، فلماذا كلمة ﴿ مَا ﴾ في العبارة القرآنية المتعلقة بالنار ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ هي بمعنى (مَنْ) كما يحلو لهم ، وكلمة ﴿ مَا ﴾ في العبارة المتعلقة بالجنة ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ ليست بمعنى (مَنْ) ؟!!!! .. فهل أهل النار عقلاء وأهل الجنة ليسوا عقلاء بمنظار المعرضين عن دلالات كتاب الله تعالى ؟!!!! .. طبعاً المسألة ليست كذلك ، فكلمة ﴿ مَا ﴾ في العبارتين هم معنا (ما) ولو كانتا بمعنى (مَنْ) لآتت في كتاب الله تعالى (مَنْ) ..

[٤] - لما كان ورود كلمة ﴿ مَا ﴾ دون كلمة (مَنْ) في العبارة القرآنية ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ لا يُفيد الجزم باستثناء بعض أهل النار - أو بعض أهل الجنة -

كما رأينا .. فإن ذلك لا يقتضي ولا يفرض أن هذه العبارة القرآنية تعني استثناءً من زمن الخلود ، لأن ذلك سيؤدّي إلى أن الخلود التام لا يوجد في النار ولا في الجنة ، لجميع الداخلين في النار وفي الجنة دون استثناء ، كون العبارة ذاتها ﴿ **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ** ﴾

﴿ **ترد بالنسبة للنار والجنة بذات الصياغة .. وهذا يناقض صريح البيان القرآني في العديد من الآيات الكريمة ، والتي يؤكد الله تعالى فيها الخلود بالنسبة لأهل الجنة وأهل النار ..** ﴾

[٥] - إن القول بأن العبارة القرآنية ﴿ **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ** ﴾ تعني استثناء زمن

وقوف أهل الموقف في الموقف ، أو زمن عمرهم في الدنيا ، أو في عالم البرزخ .. هذا

القول يناقض كون الصورة القرآنية السابقة لهذه العبارة القرآنية ﴿ **خَلِيدِينَ فِيهَا مَا**

دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ تعني المرحلة بعد دخول النار ، فالعبارة القرآنية ﴿ **فِي**

النَّارِ ﴾ واضحة جلية في تبيان أن الخلود المعني هو بعد دخول النار وليس قبل ذلك ﴿

فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ ﴾ ﴿ **خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا**

مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ .. وأيضاً العبارة ﴿ **فِي الْجَنَّةِ** ﴾ واضحة جلية في تبيان أن هذا الخلود

هو بعد دخول الجنة وليس قبل ذلك ﴿ **فِي الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ**

وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ .. وكل ذلك (سواء لأهل الجنة أم لأهل النار) هو بعد

الموقف ، وبالتالي بعد الدنيا ، وبعد عالم البرزخ ..

[٦] - تأويل هذه الصورة القرآنية على أن الخارجين من النار بعد عذابهم لفترة

محددة ، والذين تعنيهم العبارة القرآنية ﴿ **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ** ﴾ في الآية التي تتحدث عن

النار ، هم ذاهم الذين تعنيهم العبارة ﴿ **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ** ﴾ في الآية التي تتحدث عن

الجنة .. أي أن الخارجين من النار أُستثنى من خلودهم فيها زمن ما بعد هذا الخروج ،

وهو ذاته زمن لبثهم في الجنة التي دخلوها بعد خروجهم من النار ، وهؤلاء ذاهم -

بعد دخولهم الجنة - أُستثنى من خلودهم في الجنة زمن وجودهم في النار ، قبل مجيئهم

إلى الجنة ... هذا التأويل غير سليم ، لأن ابتداء الآية التي تتحدث عن أهل النار بالعبارة **﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ﴾** ، وابتداء الآية التي تتحدث عن أهل الجنة بالعبارة **﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ﴾** ، يؤكد لنا أننا أمام فريقين مختلفين ، ولسنا أمام فريق واحد ..

[٧] - قوله تعالى **﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾** يصف لنا الشقاء والسعادة من منظور علم الله تعالى المطلق .. ومن حكم الله تعالى عليه بالشقاء فلن يكون سعيداً ، وستلازمه صفة الشقاء .. ولذلك فإنّ القول بأنّ بعض الذين شقوا سيخرجون من النار ويدخلون الجنة ، هو - في النهاية - وصفٌ لهؤلاء بأنهم من الذين سعدوا ، وهذا يُنافي وصف الله تعالى لهم بالشقاء ..

[٨] - الخلود مسألة تعني عدم الوصول إلى نهاية .. فهو يعني سرمدية النهاية ، ولا يعني سرمدية البداية ..

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤]
﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : ١٢٩]

.. ولذلك فإنّ العبارة القرآنية **﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾** لا يمكن أن تكون استثناءً من الخلود ، لأنّ دخول بعض المكلفين إلى النار في البداية ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة ، يتنافى مع مفهوم الخلود الذي يعني استمرارية الوجود للشيء - دون انقطاع - بلا نهاية .. وبالتالي فالذي دخل النار ثم خرج منها لا يمكن وصف وجوده فيها بالخلود ، أو اعتباره خلوداً تُستثنى منه مرحلة ما بعد الخروج .. وكذلك الأمر بالنسبة للذي تأخر دخوله إلى الجنة ، فلا يُمكن استثناء تأخره من الخلود ، لأنّ هذا الاستثناء انقطاعٌ يُناقض مسألة الخلود من أساسها ..

[٩] - في الصورة القرآنية **﴿ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ ﴾** **﴿ خَلِيدِينَ ﴾** فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، لو تمّ سحب العبارة القرآنية

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ على الاستثناء الزمني للخلود ، لتنافي ذلك مع منطق الاستثناء ذاته .. فمن المعلوم أن المُستثنى هو - بشكلٍ عامٍّ - الجزء الأقلّ من المُستثنى منه .. والمستثنى هنا هو الخلود بكامله ما عدا فترة اللبث المحدودة في النار (حسب تفسيرهم) ، وهذا يُكوّن معظم المُستثنى منه ، لأنّ الخلود لانهائيٌّ ، ومهما حُذِف من اللاهائيّ يبقى لانهائيّاً .. فهل يُعقل أن يكون المُستثنى لانهائيّاً ، في الوقت الذي يُفترض فيه أن يكون هو الجزء الأقلّ ، أو - على الأقلّ - الجزء المحدود ..

[١٠] - الآية الكريمة التالية ، تؤكد حقيقة ما نذهب إليه ..

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشِرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ط وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٢٨]

.. فالعبارة القرآنية ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ تقع بين عبارتين ، تصوّر كلّ منهما خطاباً مباشراً .. العبارة السابقة لها ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ تصوّر خطاباً مباشراً في الموقف إلى الكافرين الذين يستحقّون الخلود في النار .. والعبارة التالية لها ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ، تصوّر خطاباً مباشراً إلى الرسول ﷺ ولكلّ مؤمنٍ مستمعٍ لآيات الله تعالى ..

.. وبالتالي فالعبارة القرآنية ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ، تتعلّق بالعبارة التي تسبقها تعلق تبيانٍ لماهيّة الخلود في النار ، وتتعلّق بالعبارة التي تليها تعلق النتيجة بمقدّماتها ، فمشيئة الله تعالى لهذا الخلود ، هي نتيجة إحاطة حكمة الله تعالى بجعل الكافرين خالدين في النار ، ونتيجة علمه جلّ وعلا بحقيقة استحقاق هؤلاء لهذا الخلود ..

[١١] - العبارة القرآنية ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ في الصورة القرآنية

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٦٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ، هي تفصيلٌ وتبيانٌ للعبارة القرآنية التي تسبقها ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ..

.. إنَّ المشيئة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ هي - كما رأينا - تسخير الأسباب المادية (الفعل) لتحقيق المراد ، وهذا ما تنطق به العبارة القرآنية ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ .. وبالتالي فالعبارة القرآنية ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ تصوّر لنا حيثيات دوام الخلود ، المرافق لدوام سماوات الآخرة وأرضها ، ولا تعني - أبداً - استثناء بعض الداخلين إلى النار ، ولا تعني - أبداً - استثناء من زمن الخلود في النار .. وهذا ما رأيناه في النقاط السابقة ..

[١٢] - العبارة القرآنية ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ في نهاية الصورة القرآنية ﴿*

وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ ، تعني عطاءً غير منقطع وغير منقوص .. وهي ترتبط بجميع عبارات الآية الكريمة التي تنتمي إليها .. فلا يستطيع أحد أن يُبرهنَ بأنها لا تتعلق بالعبارة التي تسبقها ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ..

وإذا نظرنا إلى العبارة القرآنية ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ من منظار العبارة القرآنية ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ .. فكيف يكون النقصان من الخلود والانقطاع عن جزءٍ منه (حسب تفسيرهم أن كلمة إلا استثناء) عطاءً غير منقطع وغير منقوصٍ ؟ !!! ..

..... وهكذا نرى أن العبارة القرآنية ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ليست استثناءً ، لا من زمن الخلود ، ولا من أهل النار ، ولا من أهل الجنة .. وإنما تدلّ على أن الخلود - سواءً لأهل النار أم لأهل الجنة أم لسماوات الآخرة وأرضها - لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى ، وتحت قيوميته جلّ وعلا ..

.. إذاً تقدير الصورة القرآنية ﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .. أن خلود أهل النار في النار ، هو خلود دائم ، لأن السماوات والأرض بعد أن تُبدَلَا في الآخرة دائمتان لا تفنيان .. وهذا الدوام والخلود ما كان ليكون إلا بمشيئة الله تعالى ، فحيثيات عدم الفناء ليست نابعة من ذات الجنة ، ولا من ذات النار ، ولا من ذات من فيهما ، إنما هي نتيجة تسخير أسباب هذا الخلود لتحقيق مُراد الله تعالى بدوام هذا الخلود .. وكذلك الأمر في تقدير الصورة القرآنية ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِى الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُوزٍ ﴾ ..

.. وفي المقابلة بين العبارة القرآنية ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وبين العبارة القرآنية ﴿ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُوزٍ ﴾ ، بيان إلهي يصور لنا الفارق بين مفهوم مشيئة الله تعالى في الدنيا ، وبينه في الآخرة ..

.. رأينا أن مشيئة الله تعالى في الدنيا هي تسخير الله تعالى للأسباب ، لتحقيق مُراد الله تعالى (الإرادة الكونية) ، ولتحقيق مُراد البشر .. وأن هذه الأسباب مسخرة للمؤمنين والكافرين على حدٍ سواء ، وبالحيثيات ذاتها .. بينما مشيئة الله تعالى في الآخرة تختلف بأن تكون مسخرة لإرادة الله تعالى الكونية بالنسبة لأهل النار ، دون أن ترتبط بإرادتهم أبداً ، ودون أن تفعل الأسباب بين أيديهم .. وقد رأينا كيف أن أهل النار لا يملكون سوى إرادة الخروج من النار ، ولا يملكون أي مشيئة ..

.. ولذلك فمشيئة الله تعالى - بالنسبة لأهل النار - تعني فعل الله تعالى وتسخيره للأسباب بحيث تُحقق مُراد الله تعالى في عدم فناء النار ، وهذا ما تصوّره الصورة القرآنية ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .. ولا تعني - أبداً - عطاء من الله تعالى لأهل النار بأن يُسخّر الأسباب بين أيديهم ، كما كان الأمر في الحياة الدنيا ..

.. بينما مشيئة الله تعالى بالنسبة لأهل الجنة ، إضافة إلى أنها تعني تحقيق مُراد الله تعالى في عدم فناء نعيم الجنة ، فإنها تعني عطاءً من الله تعالى لأهل الجنة بأن تُصبح إرادتهم مشيئة ، بحيث يزول الفاصل بين إرادتهم وما يشاؤون كما رأينا ..

.. هذه الحقيقة نراها في الارتباط بين العبارتين القرآنيتين المتتاليتين في الصورة القرآنية ﴿ **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُوذٌ** ﴾ .. فمشيئة الدنيا - بالنسبة للإنسان - عطاءً منقوصٌ ، لأنها تحتاج إلى العمل بالأسباب .. بينما مشيئة الآخرة بالنسبة لأهل الجنة ، هي - ضمن إطار مشيئة الله تعالى - عطاءً غير منقوص ..

.. والقول بأن جميع الداخلين إلى النار لا يخرجون منها ، لا يعني أنهم متساوون في العذاب ، فالنار درجات ((والجنة أيضاً درجات)) ، وكلُّ من أصحاب النار ((وكذلك أصحاب الجنة)) يدخل الدرجة المتناسبة مع حصيلة عمله الذي عمله في حياته الدنيا .. ودخول النار ودخول الجنة ، هو نتيجة حصيلة أعمال الإنسان في كامل حياته الدنيا ..

.. وحتى في الدرجة الواحدة من درجات النار ((وكذلك في الجنة)) فإنَّ كلاً من أصحاب هذه الدرجة يحسُّ بالألم ((وباللذة بالنسبة لأهل الجنة)) حسب الماهية الجسدية التي خلقت - أصلاً - حسب معيارٍ يتعلَّقُ بنتيجة أعمال الإنسان في حياته الدنيا ..

.. من هنا نرى أن أصحاب النار ((وكذلك أصحاب الجنة)) لكلِّ منهم خصوصيته التي تميّزه عن غيره في الإحساس بعذاب النار ((وبلذة الجنة)) ، فالمجازي هو الله تعالى ، وهو العالم علماً مطلقاً بحقيقة الأمور والأشياء ..

.. وفي هذا السياق من البحث ألقينا الضوء - بشكلٍ مركز - على العبارتين القرآنيتين : ﴿ **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ ، ﴿ **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُوذٌ** ﴾ ، واكتفينا - هنا - بذلك ، كتفسيرٍ لغويٍّ لهاتين العبارتين القرآنيتين .. بينما مسألة عدم الخروج من النار هي مسألة تمّ شرحها - بشكلٍ مفصّل ،

ومن خلال معجزة إحدى الكُبر (العددية) - في كتاب المعجزة الكبرى (حوار أكثر
من جريء) ..



مركز الذِّكْر

لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

موقع :

الكاتب والمفكر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

الخاتمة

.. لقد تناولنا في هذا البحث مسائل تُعدُّ من أساسيات بناء الفكر الإسلامي ،
كفلسفة إسلامية مستمدة من كتاب الله تعالى ، عبر منهج معياره القرآن الكريم ..
.. وفي منهجنا التفسيري لهذه المسائل دليلٌ - لمن أراد معرفة الحقيقة - على أن
الفكر الإسلامي الذي معياره القرآن الكريم ، هو معيار الوحدة الفكرية لكلِّ مذاهب
الأمّة ..

فقد رأينا كيف ترتبط هذه المسائل مع بعضها بعضاً ، برابطٍ روحيٍّ ، يجعل من
كلِّ مسألةٍ مقدّمةً لغيرها .. وهذا ما كان ليكون لولا كون القرآن الكريم حقاً من عند
الله تعالى ، ولولا المنهج التفسيري الذي يعتمد القرآن الكريم معيار كلِّ تصوّرٍ ..
إنَّ المعيار التاريخي في تفسير آيات كتاب الله تعالى التي تتناول مسائل هذا البحث ،
يُمثال - من حيث القفز فوق ما يحمله كتاب الله تعالى - المعيار الذي أتبعه مثيروا
الشبهات حول عالم الجنِّ كما رأينا في الفصل الثالث من هذا البحث .. فكلُّ المعايير التي
لا تعتمد القرآن الكريم معيارها ، هي في النهاية معايير تاريخية وضعيّة ، تبتعد عن الحقِّ
بمقدار ابتعادها عن حقيقة دلالات كتاب الله تعالى ..

فإن لم يكن كتاب الله تعالى معياراً لمعرفة الحقِّ من الباطل ، في تصوّراتنا التفسيرية
والفلسفية .. فما هو المعيار الذي من الممكن أن تُجمع عليه الأمّة ؟!!! ..
إننا نقول للكثيرين الذين يتصوِّرون التاريخ معياراً فكرياً ، ومنظراً حتى لمعرفة
دلالات كتاب الله تعالى .. لماذا لم تتعظوا ممَّا حصل فيه ؟ .. فكم من عالمٍ غير رأيه -
بل فكره - في العديد من المسائل ، بعد أن أيقن أموراً لم يكن يعلمها من قبل ؟ .. وكم

من خلاف بين أعمدة الفكر التاريخي أدى إلى قطع الأعناق بين أبناء الدين الواحد ،
على الرغم من تحذير القرآن الكريم من قتل النفس ؟ .. وكم وكم .. ؟ ..
.. إن كنا لا نتعظ حتى من تاريخنا ، فكيف سنخرج من الحلقة المفرغة التي مازلنا
ندور فيها قروناً عديدة ؟ .. أليس جعل التاريخ معياراً لفكرنا جعلنا نغرق في معارك
داخلية ، تزيد - مع الزمن - من تمزقنا ، ومن فشلنا في صنع شيء يليق بعظمة المنهج
الذي نستمدّه من كتاب الله تعالى ؟ ..
.. فمتى سنقرأ التاريخ قراءة مجردة ، لنكتشف قوانينه الحركية ، وسنن الانبعاث
الحضاري العاملة فيه ، لنخرج من سجنه كتقليد أعمى للقال والقيل .. وذلك بوضع
هذا التاريخ في معيار كتاب الله تعالى ..
.. إنني أتوجه إلى كل الحريصين على وحدة هذه الأمة عقيدةً وفكراً وهدفاً ، أن
يكون القرآن الكريم معيار فكرهم ، ومعيار تصوراتهم ، ومعيار معرفة قريهم وبعدهم عن
الحق .. حتى نكون أمةً تفعل ما تقول ، وحتى نخرج جميعاً من الحلقة المفرغة ، التي
رسمتها لنا العصبية المذهبية عبر التاريخ ..
.. والله تعالى وليّ التوفيق ..

المهندس عدنان الرفاعي

تمّ بعونه تعالى في :

٦ جمادى الآخرة عام ١٤٢٢ هجري

الموافق : ٢٥ آب عام ٢٠٠١ ميلادي

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة
الفصل الأول	
١٧	مراتب الوجود
الفصل الثاني	
٦٩	وجودنا وحقبة التكليف
الفصل الثالث	
١٢١	عالم الجن وبعض الشبهات
الفصل الرابع	
١٧٥	الوجود في الآخرة
٢٤٣	الخاتمة
٢٤٥	الفهرس

مركز الذِّكْر

لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

موقع :

الكاتب والمفكر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

أخي القارئ

تمّ تنضيد الكتب على عجل

وأبى خطأ مطبعي

هو نتيجة الإسراع

في تنزيل هذه الكتب على النت

نزولاً عند رغبة الإخوة القراء

ونتيجة عدم مراجعتها

لذلك نعتذر

إن وجدت بعض الأخطاء المطبعية

ونعد بتصحيحها لاحقاً بإذن الله تعالى

المهندس عدنان الرفاعي